الأستاذ الدكتور محمد جواد النوري

أستاذ العلوم اللغوية في جامعة النجاح الوطنية

التفكير الصوتي عند سيبويه في ضوء علم اللغة الحديث

تقديمْ

الأستاذ الدّكتور رمَضان عبد التّواب

أستاذ العلوم اللّغوية ورئيس قسم اللّغة العربية

بكلّية الآداب– جامعة عين شمس.

تقديم

بقلم الأستاذ الدكتور رمضان عبد التواب

أستاذ العلوم اللغوية، وعميد كلية الآداب،

جامعة عين شمس

الحمد لله حق حمده، والصلاة والسلام على من لا نبي من بعده، صلاة وسلاماً دائمين إلى يوم الدين، أما بعد:

فإن كتاب سيبويه معين لا ينضب، بالنسبة للدراسات اللغوية العربية، وإنه على الرغم من مرور اثني عشر قرناً على تأليفه، فإنّ جدّته لا تبلى على الزمن، وآراءه التي تموج بها صفحاته وسطوره، لتقف شامخة أمام أحدث النظريات اللغوية في كثير من الأحيان.

وهذه الحقيقة يجهلها أو يتجاهلها بعض الجاهلين أو الحاقدين، ممن يعملون في ميدان الدراسات اللغوية في العصر الحاضر، وقد اتصل بعضهم بشيء من النظريات اللغوية الحديثة عند علماء الغرب، ولم يكونوا قبل ذلك قد تحصنوا بزاد وفير من التراث اللغوي عند العرب، فبهرتهم أضواء النظريات الحديثة، وخطف بريقها أبصارهم، فضلّوا وأضلّوا، وما زالوا ينشرون سمومهم وأحقادهم في كل مكان يحلون فيه،

مفترين على التراث اللغوي عند العرب، يدّعون أنه تراث عفى عليه الزمن، وتجاوزه العلم اللغوي المعاصر، وهم لم يقرؤوا منه حرفاً، وإن قرؤوا لم يفهموا، ولوَوا أعناق النصوص على هواهم، ووفق أغراضهم الدنيئة.

وقد عانى الدرس اللغوي عند العرب اليوم، وما زال يعاني، من فكر هؤلاء الملاحدة، الذين يزرون بالعربية وتراثها المجيد، ولذلك تراهم وقد ملئوا الساحة بمؤلفات عباراتها بنعيق الغربان والبوم أشبه، لأنها لم تؤسس على ركيزة صلبة من التراث العربي.

ومن أجل الوقوف أمام هذا التيار الجارف من الاستغراب المتفشّي في بلاد العرب، وكشف ما فيه من زيغ وضلال، اتفقت مع مجموعة من تلامذتي النابهين في الوطن العربي على أن نعمل في عدة محاور، منها: إعادة قراءة تراثنا اللغوي من جديد، واستخراج ما فيه من الكنوز والذخائر، وإعادة تفسيرها في ضوء معطيات الدرس اللغوي الحديث. ومنها: ترجمة بعض المؤلفات الغربية المعتمدة بأسلوب عربي مبين. ومنها: عمل معجم للمصطلحات اللغوية الحديثة مع استخدام المقابل العربي ما دام ذلك ممكناً، للقضاء على فوضى المصطلحات الملغزة في عالمنا العربي المعاصر.

وكتاب أخي وصديقي وتلميذي النابه الدكتور محمد جواد النوري، الذي أقدمه هنا اليوم، إحدى ثمار هذا الاتفاق. وأحسب أنه وفق في كتابه هذا في الكشف عن كنوز كتاب سيبويه في الدرس الصوتي، غاية التوفيق، فقد أنصف الباحثين العرب القدماء، الذين وصفوا أصوات العربية، معتمدين على الملاحظة الذاتية، والتجربة الشخصية في النطق والسماع، في وقت لم تكن فيه المعامل الصوتية معروفة في ذلك الزمان المبكر.

ويحاول أخي الدكتور محمد جواد النوري، في هذا الكتاب، أن يلقي الضوء على الفكر الصوتي عند سيبويه. وكان من الضروري أن يمهد لذلك بالحديث عن هذا الامام الكبير، ووصف نشأته وحياته، والكلام عن شيوخه وتلاميذه، ومناظرته المشهورة مع الكسائي إمام نحاة الكوفة. وقد قدم بعد ذلك دراسة موجزة عن كتاب سيبويه، من حيث مادته ومنهجه، وتوضيح قيمته ومكانته في تاريخ الدرس اللغوي.

وقد جاءت بعد ذلك ثلاثة أبواب، أولها لدراسة الأصوات العربية، من حيث عددها، ومخارجها، وصفاتها، وما طرأ على بعضها من تطور في النطق الحديث للعربية الفصحى.

وفي الباب الثاني دراسة لموضوع الإدغام في الحرفين المثلين المنفصلين والمتصلين، وكذلك الإدغام في الحرفين غير المثلين. ويواصل المؤلف في

الباب الثالث الحديث في موضوع الإدغام، فيذكر العلاقة بينه وبين بعض الظواهر الصوتية، التي تعرض لشيء من أبنية العربية، كالمماثلة والحذف.

والمؤلف في كل هذه الأبواب المختلفة، يعرض المقارنة بين الفكر الصوتي عند سيبويه، وعند المحدثين من علماء الأصوات في الشرق والغرب. وقد وفق كثيراً في محاولته إزالة الغموض الذي يكتنف عبارات سيبويه في كثير من الأحيان، وساعده على ذلك زاد وفير من التراث العربي والدرس اللغوي الحديث.

وقد وقف أخي الدكتور محمد جواد النوري، أمام كثير من مشكلات الدرس الصوتي عند سيبويه، كمشكلة تعريف الجهر والهمس من جانب، وتعريف الشدة والرخاوة من جانب آخر، وحاول أن يضع بعض التصورات المفيدة في هذا الموضوع، وكان التوفيق حليفه في هذا الجانب الشائك من جوانب الدرس اللغوي في العربية.

ولكل هذا، يسعدني حقاً أن أقدم اليوم هذا الكتاب الطيب إلى قراء العربية، من تأليف واحد من أبرز تلامذة "المدرسة الرمضانية"، آملاً أن يفيد منه أصدقاء الفصحى، وعشاق البحث العلمي الجاد في قضاياها ومشكلاتها، وسائلاً المولى جل وعلا أن يوفقنا جميعاً، إلى ما فيه الخير والصواب في خدمة لغة القرآن الكريم. وليهنأ تلامذة "المدرسة

الرمضانية" بصبرهم وإخلاصهم لعقيدة التوحيد. وأما الملاحدة المارقون فما أشقاهم بتجرع مرارة الحقد، وغصّة انكار الشمس الساطعة!
ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشدا.

أ.د. رمضان عبد التواب.

الإهداء

إلى روح سيبويه

التي فاضت إلى بارئها طاهرة، وفي أعماق صاحبها،

من أشواق الروح، ونفحات العقل، بقية عزيزة،

من علم غزير، لم تصلنا.

جدول رموز الكتابة الصوتية المستعملة في الدراسة(١)

وصف الصوامت	الرمز العربي	الرمز الصوتي
صامت حنجري انفجاري لا مجهور ولا مهموس	ء	ɔ
صامت شفوي ثنائي انفجاري مجهور	ب	b
صامت أسناني لثوي انفجاري مهموس	ت	t
صامت أسناني احتكاكي مهموس	ث	θ
صامت لثوي غاري مركب مجهور	ج	g
صامت حلقي احتكاكي مهموس	ح	ḥ
صامت طبقي احتكاكي مهموس	خ	X
صامت أسناني لثوي انفجاري مجهور	د	D
صامت أسناني احتكاكي مجهور	ذ	ð̀
صامت لثوي مكرر مجهور	ر	r
صامت أسناني لثوي احتكاكي مجهور	ز	z
صامت أسناني لثوي احتكاكي مهموس	س	s
صامت غاري احتكاكي مهموس	ش	š
صامت أسناني لثوي مهموس مطبق	ص	Ṣ

(١) يُنظر: محمد جواد النوري، و علي خليل حمد: فصول في علم الأصوات. ص:١٤

صامت أسناني لثوي انفجاري مجهور مطبق	ض	ḍ
صامت أسناني لثوي انفجاري مهموس مطبق	ط	ṭ
صامت أسناني احتكاكي مجهور مطبق	ظ	ð̲
صامت حلقي احتكاكي مجهور	ع	c
صامت طبقي احتكاكي مجهور	غ	ɣ
صامت شفوي أسناني احتكاكي مهموس	ف	f
صامت لهوي انفجاري مهموس	ق	q
صامت طبقي انفجاري مهموس	ك	K
صامت لثوي جانبي مجهور	ل	l
صامت شفوي ثنائي أنفي مجهور	م	m
صامت لثوي أنفي مجهور	ن	n
صامت حنجري احتكاكي مهموس	هـ	h
نصف صامت أو نصف حركة طبقي مجهور	و	w
نصف صامت أو نصف حركة غاري مجهور	ي	y

وصف الحركات	قصيرة	طويلة
حركة أمامية ضيقة (الكسرة الخالصة)	I	ii
حركة أمامية واسعة (الفتحة المرققة)	a	aa
حركة خلفية ضيقة (الضمة الخالصة)	u	uu

المقدمـــة

"بسم الله الرحمن الرحيم"

مقدمة

أحمدك اللهم حمد الشاكرين، وأصلي وأسلم على أشرف المرسلين صلى الله عليه، وعلى آله وصحابته أجمعين، وبعد.

فقد بذل العرب المسلمون جهوداً هائلة في سبيل خدمة لغتهم، ونظروا في جوانبها المختلفة نظرات عميقة شاملة. وكانت أصوات لغتهم، من أكثر تلك الجوانب، التي استرعت انتباه علمائهم. ولا سيما حين اتسعت رقعة الاسلام، وتوزع أبناء العربية في مختلف الأمصار. وكان هدفهم من وراء ذلك المحافظة على القرآن الكريم ولغته. فعملوا - في جهد لا يعرف الملل - على اتقان النطق بتلك الأصوات، وخاصة عندما انتشر الاسلام في بقاع الأرض المختلفة، وضم في عطفيه شعوباً وأمماً مختلفة الألسن واللغات، وطرقت أسماع العرب أصوات تلك اللغات. فخشي أبناء العربية أن تنحرف أصوات لغتهم، عن سمتها الصحيح، ومسارها السليم نتيجة تأثرها بأصوات تلك اللغات. فلم يكد فجر القرن الهجري الثاني يبزغ حتى نهض من بين علماء العرب من يدرس تلك اللغة، ويصف أصواتها، معتمداً في ذلك على "الملاحظة الذاتية" Introspection التي تتكئ، في منهجها في استخلاص

الحقائق، وتصنيفها، ووضع القواعد الخاصة بها، على التجربة الشخصية المعتمدة بدورها على اللسان والأذن، دون المعامل والأجهزة المختلفة التي لم تكن معروفة في ذلك الوقت المبكر من تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، بَلْه الحضارة الإنسانية.

وقد حقق أجدادنا في هذا الميدان -ميدان الدرس الصوتي- انجازات مبكرة، وقطفوا من ثمار بحثهم جنى طيبا تمثل في جوانب لغوية مختلفة، كان من أهمها وضعهم ألفبائية صوتية للغة العربية، وتصنيفهم أصوات العربية إلى فئات مختلفة وفقاً لمعايير خاصة وضعوها، كتقسيم الأصوات إلى صحيحة ومعتلة، ومجهورة ومهموسة، وشديدة ورخوة، ومستعلية ومستفلة وغير ذلك.

وقد برع بعض علماء اللغة العرب في دراستهم للجهاز النطقي الإنساني، فقسموه إلى مدارج وأحياز، ثم نسبوا إلى كل مدرج وحيز منها مجموعة الأصوات التي تنتمي إليه.

ولعلنا نجد في شخص الخليل بن أحمد الفراهيدي، بداية حقيقية للدرس اللغوي بعامة، والصوتي بخاصة عند العرب(١)، فهو يتبوأ – في

(١) سُبق الخليل بن أحمد ببعض العلماء، الذين كانت لهم بعض الآراء في مجال الدرس الصوتي، نذكر منهم -على سبيل المثال- أبا الأسود الدؤلي، الذي حاول أن يضع رموزاً لقسم مهم من قسمي الأصوات اللغوية، ونعني بها الحركات، ويحيى بن يعمر ونصر بن عاصم اللذين حاولا إصلاح نظام الكتابة العربية عن طريق وضع نظام الاعجام والنقط، وذلك من أجل التمييز بين الأحرف المتشابهة في الرسم، كالحاء والجيم والخاء وغيرها..=

ميدان الدراسات اللغوية العربية بمختلف فروعها وأنواعها – مركز الريادة والأصالة، وذلك عائد –بلا شك– إلى توقد ذهن هذا العالم، وعبقريته الرياضية الفذة، وطاقاته الفكرية العميقة، التي وجهها لخدمة اللغة العربية، لغة القرآن الكريم، والبحث في أسرارها، والكشف عن خصائصها.

كان الخليل بن أحمد عالما رياضياً، استطاع أن يكوِّن نماذج للبنى التي تتألف منها النظم المختلفة. وقد ساعده، في كل ما ذهب إليه، سمعه المرهف الحساس. فوجّه عنايته لأوزان الشعر وإيقاعه، واستخرج بحوره وقوافيه، أو ما يُسمى بعلم العروض الذي لا يعدو أن يكون دراسة صوتية لموسيقى الشعر. واتجه كذلك إلى الألحان والأنغام، وألف في الإيقاع والنغم.

وإضافة إلى ما سبق، فإن الخليل بن أحمد يعدُّ –بحق– إمامَ علماء الأصوات العرب، فقد قدم للفكر الصوتي العربي، أهم أسسه ومبادئه، ولقد تمثل ذلك في تلك القمة العلمية اللغوية، التي قدمها هذا العالم الفذ للفكر العربي اللغوي، ونعني بها كتابه الخالد المعروف باسم كتاب العين، فضلا عن أفكاره التي تناثرت في كتب الأقدمين ، والتي تشير إلى علمه

=غير أن هذه المحاولات الأولية –وما كان على شاكلتها– لم تكن أكثر من ملاحظات فردية عابرة لم تصل –ولم يصل بها أصحابها أيضا– إلى مرحلة التأطير، ووضع النماذج الفكرية في مجال البحث اللغوي.

وفضله، ومقدار اعتزاز القدماء بآرائه واعتمادهم عليه. ولعل من الأمور التي تذكر لهذا العالم – في هذا المجال- وضعه للرمز الخاص بالهمزة العربية ، وهو عبارة عن رأس عين صغيرة (ء) مما ينبئ عن إحساسه بالعلاقة المخرجية الدقيقة، التي تربط بين هذا الصوت، وصوت العين، كما يعزى إليه أيضاً، وضعه للرمز الدال على الإدغام وهو ما يسمى بالشدّة، ويشار إليه بالرمز (ّ)، وربما كان هذا العالم ينطلق – فيما ذهب إليه في هذا الصدد- من تصورات صوتية شغلت- وما تزال تشغل- الفكر الصوتي فيما يسمى بتأثير الأصوات وتأثرها بعضها ببعض.

غير أن هذا العالم الفذّ انصرف إلى اللغة في عمومها، فيمَّم وجهه شطر أصواتها، وصرفها، ونحوها، واستطاع بفكره الثاقب أن يضع الأصول والقوانين العامة، التي تحكم أطرها، وتتحكم في آلياتها. ومما لا ريب فيه، أن نظرات الخليل الأولى، في البحث اللغوي عند العرب، كانت الغرس الطيب للبدايات الحقيقية للعلوم اللغوية العربية، في مستوياتها المختلفة.

لقد قدم – في ميدان الدرس الصوتي- دراسة دقيقة للجهاز الصوتي، فقسمه إلى مناطق ومدارج، يختص كل منها، بحرف أو مجموعة أحرف، وأشار إلى ضرورة "ذوق الحروف" لبيان حقيقة مخرجها ، وهدي بذكائه المتفوق، إلى مقاييس ومعايير صوتية أقرَّ كثيراً منها، علماء

الأصوات المحدثون ، من ذلك –على سبيل المثال– قوله في الحركات : إِنها أبعاض حروف المد، واختراعه علامات الضبط التي لا تزال نستعملها حتى اليوم: من ضمة وفتحة وكسرة.[1]

وعلى الجملة، فقد احتل كتاب العين –في علوم العربية ودرسها– موقع الريادة والقيادة، وكان – وفي ظننا أنه سيبقى – عَلَماً شامخاً ، ومنارة مضيئة لكل بحث لغوي في كل مستوياته.

وبعد الخليل، جاء دور تلميذه العبقري سيبويه، الذي ورث، عن أستاذه، علمه وفكره، إضافة إلى كرسيّه في إِدارة المدرسة البصرية وتوجيهها. وكان له –كما كان لأستاذه من قبل– عقلية علمية ناضجة، وذهن متوقد صاف، يدلنا على ذلك إلمامه بمختلف العلوم ومسائل الفكر، غير أنه نبغ في الدرس اللغوي الذي بلغ قمته في مؤلفه الموسوم بالكتاب.

إن من المسلم به أن الخليل بن أحمد كان صاحب فكرة الترتيب الصوتي للحروف، ولكن من المسلم به أيضاً أن سيبويه، الذي أخذ عن أستاذه هذه الفكرة، لم يكن مجرد ناقل أو ناسخ، وإنما كان، في كل ما أخذ، صاحب فكر وصاحب اتجاه، فقد أدخل على فكر أستاذه تعديلاً وتطويراً خالف فيهما رأي أستاذه في كثير من جزئيات هذا الترتيب، ويكفي أن

(١) مقدمة سر صناعة الاعراب. ١/ ١٧

نذكر -في هذا السياق- مخالفته لأستاذه في تصنيف الهمزة وتحديد مخرجها. فقد جعلها سيبويه أول الحروف وأعمقها مخرجاً، فابتدأ بها ترتيبه. ولقد كان -في عمله هذا- يتفق مع اتجاهات الدرس الصوتي الحديث، الذي يقرر أن صوت الهمزة هو أول الأصوات العربية مخرجاً. وليس يسوغ للخليل رأيه في موقع الهمزة، ما قاله ابن كيسان من أنه سمع من يذكر عن الخليل أنه قال: لم أبدأ بالهمزة، لأنها يلحقها النقص والتغيير والحذف.(١)

لقد كان تطوير سيبويه لعمل استاذه المرجع الأساسي، الذي أفاد منه علماء العربية، في مجال الدرس الصوتي. ولم يقتصر أَخْذُ اللغويين عن هذا الشيخ، على المادة والفكر العميق الذي ملأ جنبات الكتاب، وإنما تعداه -أيضاً- إلى المنهج الذي سلكه في كتابه والمصطلحات والتعريفات، التي كان يستعملها ويضعها معالم لفكره الثاقب وعلمه الغزير، "بل حتى أولئك المشهورون من شرّاح كتاب سيبويه أمثال السيرافي والرّماني ، كانوا يقنعون في شرحهم للأصوات اللغوية بذكر ألفاظ سيبويه وعباراته ومصطلحاته كما هي . ويبدو أن العلماء، الذين جاءوا بعد سيبويه، كانوا يعتزون بكل ما ورد عنه إلى حد يكاد يبلغ القداسة، فيقال لنا إنَّ بعضاً منهم كانوا يحفظون كتابه عن ظهر قلب،

(١) السيوطي: المزهر. ١/ ٩٠

وحين نحسن الظن بهم نرى أنهم ربما تحرجوا من أي تغيير في كلام معلمهم الأول، واكتفوا من أجل هذا بترديد ألفاظه. فإذا قال عن الصوت المجهور (هو حرف أشبع الاعتماد في موضعه ومنع النفس أن يجري معه حتى ينقضي الاعتماد ويجري الصوت) لا تكاد ترد في كتبهم إلا نفس الألفاظ التي عبر بها سيبويه، فلا يستبدلون بكلمة "أشبع"، أو كلمة " الاعتماد " لفظاً آخر، ولو مرادفا لهاتين الكلمتين، وهكذا كان شأنهم في باقي كلمات التعريف"(١)

وقد جاءت دراستنا لفكر سيبويه الصوتي مكونة من مقدمة، وتمهيد، وثلاثة أبواب:

التمهيد: وتحدثنا فيه -على نحو موجز- عن سيبويه من حيث نشأته، وحياته، والشيوخ الذين أخذ عنهم، والتلاميذ الذين تلقوا عليه، ورحلته المشهورة إلى بغداد، ومناظرته للكسائي. ثم تحدثنا -على نحو موجز أيضاً- عن كتابه من حيث مادته، ومنهجه الذي سار عليه في عرض موضوعاته، فضلاً عن مكانة هذا الكتاب وقيمته في ميدان الدرس اللغوي.

---

(١) د. ابراهيم أنيس: الأصوات اللغوية. ص: ١٠٥- ١٠٦

الباب الأول: وخصصناه لدراسة الحروف العربية. وقد قسمناه إلى أربعة فصول. درسنا في أولها حروف العربية من حيث عددها الأصلي، وعددها الفرعي المستحسن، وغير المستحسن.

ودرسنا، في ثانيها، حروف العربية من حيث مخارجها التي تنتمي إليها. وناقشنا، في ثالثها، حروف العربية من حيث الصفات والملامح التي تتسم بها، كالجهر والهمس، والشدة والرخاوة، والاطباق والانفتاح... إلخ. أما الفصل الأخير فقد خصصناه لدراسة ما طرأ على بعض الأصوات العربية من تطور، في التصنيف الحديث، بالقياس إلى وضعها الذي وصفه القدماء، وعلى رأسهم شيخهم سيبويه.

الباب الثاني: وخصصناه لدراسة موضوع الإدغام. وقد جاء هذا الباب في فصلين: درسنا في أولهما موضوع الإدغام في الحرفين المثلين المنفصلين، وغير المنفصلين. أما الفصل الأخير فقد ناقشنا فيه موضوع الإدغام في الحرفين غير المثلين.

الباب الثالث: وخصصناه لدراسة موضوع الإدغام في حروف طرف اللسان والثنايا. وقد جاء هذا الباب في ثلاثة فصول؛ درسنا، في أولها، إدغام هذه الحروف في حالة الانفصال، ودرسنا، في ثانيها، إدغام هذه الحروف في حالة الاتصال. أما الفصل الأخير فقد عرضنا فيه بعض الظواهر الصوتية، التي تتعرض لها بعض البنى، كالمماثلة والحذف.

وكنا نختم بعض الفصول والأبواب بذكر بعض النتائج والملحوظات، التي أمكننا استخلاصها، من خلال عرض آراء سيبويه الصوتية. كما حاولنا -جاهدين- أن نزيل الغموض الذي اتّسمت به لغة سيبويه في أثناء عرضه لآرائه وأفكاره الصوتية.

ونودُّ الإشارة - في هذه المقدمة - إلى أننا حاولنا عقد بعض المقارنات بين ما وصل إليه بعض لغويينا القدامى، وعلى رأسهم شيخهم سيبويه، في ميدان الدرس الصوتي، وما وصلت إليه الدراسات الصوتية الحديثة في هذا الميدان.

وبعد، فقد حاولنا في هذه الدراسة أن نكشف عن بعض تلك الجهود الهائلة التي بذلها أجدادنا في ميدان الدرس الصوتي الذي كانوا فيه - حسب اعتراف اللغويين المعاصرين- روّاداً وقادة . قال برجشتراسر G. Bergstrasser : "ولم يسبق الغربيين في هذا العلم (يقصد علم الأصوات) إلا قومان من أقوام الشرق، وهما أهل الهند، يعني البراهمة، والعرب ."(١) وقال فيرث : "لقد نشأت الدراسات الصوتية ونمت في أحضان لغتين مقدستين : العربية والسنسكريتية"(٢)

---

(١) برجشتراسر: التطور النحوي للغة العربية، أخرجه وصحَّحه وعلَّق عليه الدكتور رمضان عبد التواب، ص: ١١

(٢) د. كمال بشر: دراسات في علم اللغة. ص: ٦٧

ومع ذلك، فإننا نؤمن بأن دراسة هذا الجانب اللغوي، من فكر هذا العالم العبقري، مازال بحاجة إلى مزيد من الدرس والتمحيص، كما أننا نؤمن أيضاً، بأنّ ما قمنا به، في هذه الدراسة، لا يعدو أن يكون محاولة، أو مجرد محاولة، نرجو لها أن تحقق ما صبونا إليه.

والله نسأل أن يجعل عملنا هذا خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به، فسبحانه بيده الخير، ومنه العون والتوفيق.

الدكتور محمد جواد النوري

تمهيــد

سيبويـه وكتابـه

سيبويـــه وكتابـــه

أولاً: سيبويه[1] :

هو عمرو بن عثمان بن قَنْبَر، بفتح القاف وسكون النون، مولى بني الحارث ابن كعب، ثم مولى آل الربيع بن زياد الحارثي. وقد اختلفت كتب التاريخ والتراجم في ضبط اسم جده "قنبر"، فقيل هو "قُنْبَر" بضم وفتح، وقيل هو "قُنْبُرة" كقُنْفُذة، وقيل "قُبَّرة" كحُمَّرة، ولكن الراجح هو ضبط "قَنْبَر" بفتح وسكون على نحو ما أشرنا، ومما يؤيد ذلك ورود

---

(١) يُنظر ترجمة سيبويه في: وفيات الأعيان لابن خلكان ٣/ ٤٦٣-٤٦٥، ومعجم الأدباء لياقوت الحموي ١٦/ ١١٤- ١٢٧، والفهرست لابن النديم ٧٦، ومراتب النحويين لابي الطيب اللغوي ص: ١٠٦، وبغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي ٢/ ٢٢٩-٢٣٠، وطبقات النحويين واللغويين للزبيدي ص:٦٦، وأخبار النحويين البصريين للسيرافي ص: ٤٨، وإنباه الرواة على أنباه النحاة، للقفطي ٢/ ٣٤٦، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١٢/ ١٩٥، وخزانة الأدب لعبد القادر البغدادي ١/ ٨، وكتاب سيبويه إمام النحاة لعلي النجدي ناصف. وغيرها.

اسم جده -مع اسمه واسم ابيه- على هذا النحو من الضبط في شعر للزمخشري يمجده فيه ويترحَّم عليه:

ألا صلى الإله صلاة صدق على عمرو بن عثمان بن قَنْبَر
فإن كتابه لم يغن عنه بنو قلم ولا أصحاب منبر

أما كنيته فهي "أبو بشر"، و"أبو الحسين" و"أبو عثمان" ولكن كنيته "أبو بشر" كانت أكثر استعمالا ودورانا على الألسنة من كنيتيه الأخريين.

وأما اللَّقب الذي عرف به وهو "سيبويه"، فقد غلب على اسمه "عمرو"، وعلى كناه المختلفة، فضلاً عن أنه كان أول من حمل هذا اللقب واشتهر به.(١) وقد اختلفت الآراء حول تلقيبه بهذا اللقب، وإن كانت

---

(١) تذكر كتب الأدب واللغة والتراجم والطبقات، أن هناك أكثر من عالم في اللغة والنحو عرف بلقب "سيبويه" بعد شيخنا هذا، ويرجع السبب في ذلك -على ما يبدو- إلى تشبههم بهذا العالم من حيث البراعة في النحو، وهؤلاء العلماء هم :

أ- سيبويه، أبو بكر محمد بن موسى بن عبد العزيز الكندي المصري المتوفى سنة ٣٥٨هـ.

ب- سيبويه، أبو نصر محمد بن عبد العزيز بن محمد التيمي الأصبهاني المتوفى سنة ٣٩٥هـ.

ت- سيبويه، أبو الحسن علي بن عبد الله بن ابراهيم الكوفي المغربي المالكي المتوفى سنة ٦٦٧هـ.

تلك الآراء –رغم اختلافها– تلتقي حول مدلول عام يشي بما كان يتَّسم به هذا العالم من خصائص خَلْقية وخُلُقية مميزة. وحسبنا أن نذكر من تلك الآراء ما كان منها قريباً من شخصية هذا الشيخ، وما أُثر عنه من معالم وسمات:

١) من ذلك أن كلمة "سيبويه" تعني "رائحة التفاح"، وكان منطلق أصحاب هذا الرأي، أن "سيبويه" لقب فارسي، وهو مركب من كلمتين هما: "سيب" ومعناها "التفاح"، و"ويه" ومعناها "رائحة"، واستند أصحاب هذا الرأي، في اطلاقهم "سيبويه" على هذا العالم، إلى أن سيبويه كان يحبُ شمَّ رائحة التفاح، وأن هذه العادة كانت سمة معروفة فيه، فلُقِّب باسمها ومدلولها.

٢) وهناك رأي آخر، ذكر فيه أصحابه أنه كانت لسيبويه رائحة يتطيب بها، وأن تلك الرائحة كانت تشبه رائحة التفاح، فلقب لذلك بها، ويروي ياقوت الحموي عن ابن خالويه قوله: "كان سيبويه لا يزال من يلقاه يشم منه رائحة الطيب فسمِّي سيبويه، ومعنى "سي" ثلاثون و"بَوَيْ" الرائحة، فكأنه رأى ثلاثين رائحة طيب."(١)

(١) ياقوت الحموي: معجم الأدباء. ١٦/ ١١٥

٣) وعزا بعضهم تلقيبه بهذا اللقب إلى أن سيبويه كان جميلاً، وأن وجنتيه كانتا كأنهما تفاحتان.[١]

٤) وذكر ياقوت، إضافة إلى ما نقله عن ابن خالويه، أن أمه -أي أم سيبويه - " كانت ترقصه بذلك في صغره".[٢] فلازمه اللقب -فيما يبدو- في كبره.

٥) وذهب آخرون إلى أن الرجل لم يكن -كما ذكرت بعض المصادر- يحب شمَّ التفاح، أو كانت له رائحة يتطيب بها تشبه رائحة التفاح. وأن المسألة كلها لا تعدو أن تكون من قبيل المجاز أو التجوُّز. فقد كان هذا العالم - كما عرفه المقربون منه- شابا أنيقا، ظريفاً، جميلاً، وديعاً، سمحاً، طموحاً، حسن الظن بالناس، فلقب بذلك لظرفه وجماله ولطفه.

مولده ونشأته: ومثلما كان اسم جده، وسبب تلقيبه بسيبويه، موضع خلاف بين القدماء، كذلك كان تاريخ ميلاده، وتاريخ وفاته ومكانها أيضاً، موضع خلاف بين الدارسين. وليس من همنا - في هذا المقام - أن نخوض في سرد الآراء المختلفة التي قيلت حول هذه الجوانب

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان. ٣/ ٤٦٥

(٢) ياقوت الحموي: معجم الأدباء. ١٦/ ١١٤-١١٥

من حياة هذا الشيخ، أو مناقشتها، وإنما يعنينا منها ما كان أقرب إلى الصواب والدقة.

٦)ويبدو أن مولد سيبويه كان – على أرجح الآراء – سنة ١٤٠ هـ، أو قبلها بقليل. وأن ذلك قد تمَّ في إحدى مدن فارس القريبة من شيراز، واسمها "البيضاء"، التي اشتهرت –كما ذكر ياقوت الحموي في معجم البلدان– بوفرة علمائها وفقهائها وقرّائها الذين كان منهم "الحلاج" الصوفي المشهور، والقاضي "البيضاوي" المفسر المعروف.

أما وفاته، فيبدو أنها كانت – على أرجح الآراء– سنة ١٨٠هـ وعمره آنذاك نيف وأربعون سنة [١]، وأن ذلك قد كان–على الأرجح–في مدينة شيراز. قال الأصمعي: قرأت على قبر سيبويه بشيراز هذه الأبيات، وهي لسليمان بن يزيد العدوي[٢]:

ذهب الأحبة بعد طول تزاور ونأى المزار فأسلموك وأقشعوا
تركوك أوحش ما تكون بقفرة لم يؤنسوك وكربة لم يدفعوا
قضى القضاء وصرت صاحب عنك الأحبة أعرضوا

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان. ٣/ ٤٦٤. وكذلك:
ياقوت الحموي: معجم الأدباء. ١٦/ ١١٥.

(٢) ياقوت الحموي: معجم الأدباء. ١٦/ ١١٥–١١٦

وواضح من تاريخ حياة هذا العالم، أنه ولد في أوائل الخلافة العباسية، وتوفي في عهد الخليفة الرشيد، الذي كان يمثل -بحق- العصر الذهبي للعبقرية العربية الإسلامية في جميع الميادين الفكرية والعلمية، التي ورثها أجدادنا عن حضارات سابقيهم من فرس ورومان، بعد أن تم استيعابها وتمثلها وصياغتها من جديد، ثم تقديمها للإنسانية على نحو مبتكر طريف.

ترك سيبويه موطنه ومسقط رأسه "البيضاء" وهو ما يزال غلاماً حديث السن، ويمَّم وجهه شطر البصرة، التي كانت -ومثلها الكوفة وبغداد- إحدى عواصم الفكر الإسلامي، حيث العلم ومجالس العلماء، وطفق سيبويه يطلب العلم في البصرة، وطمحت نفسه -في البداية- للاستزادة من العلوم الدينية، فلزم مجلس شيخ أهل البصرة وإمامها، حماد بن سلمة بن دينار (ت ١٦٧هـ)، الذي كان إماماً، فاضلاً، تقياً، صالحاً، حجة، ثقة، فصيحاً. وتُحدثنا المصادر أن سيبويه كان -ذات مرة- يستملي على حماد، "فقال حماد: قال رسول الله-ﷺ-: "ما من أحد من أصحابي إلا من لو شئت لأخذت عنه علماً ليس أبا الدرداء". فقال سيبويه: ليس أبو الدرداء. فقال له حماد: لحنت يا سيبويه، ليس أبا

الدرداء. فقال: لا جرم لأطلبنَّ علماً لا تلحِّنني فيه أبدا، فطلب النحو، ولزم الخليل"[1]

لقد كانت هذه الحادثة - ومعها حوادث أخرى تذكرها كتب التراجم- الحافز الذي حرك في نفس سيبويه وعقله أيضاً الرغبة والشهوة الجامحة في تعلم النحو، والعناية بمسائله، فأقبل على درسه، والتحق بحلقات النحويين واللغويين، إلى أن استقامت له القناة، فبلغ -فيما أراد- القمة السامقة والغاية المنشودة.

شيوخ سيبويه وتلاميذه:

تتلمذ سيبويه، في بداية رحلته في طلب العلم، كما ذكرنا قبل قليل، على شيخ أهل البصرة وإمامها حماد بن سلمة. ولكن نهم هذا الفتى الوافد على البصرة لم يكن لتشبعه حلقة واحدة، أو الاكتفاء في التلقي على عالم واحد، ولذلك فقد كان لا يبرح يرتاد حلقات كبار الشيوخ والأئمة، يصقل فيها موهبته المشرئبة، ويستكمل بما ينهل من معينها، علمه المتنامي. ومن أشهر أولئك العلماء الذين تتلمذ عليهم سيبويه:

١. عيسى بن عمر الثقفي، المتوفى سنة ١٤٩هـ، الذي كان -كما وصفه ياقوت- عالماً بالنحو والعربية والقراءة، وتنسب له كتب التراجم

(١) ياقوت الحموي: معجم الأدباء. ١٠/ ٢٥٥

والطبقات كتابين في النحو هما : الإكمال أو المكمِّل، والجامع . وفيهما يقول تلميذه الخليل بن أحمد[1]:

بطل النحو جميعا كله   غير ما أحدث عيسى بنُ عمرْ
ذاك إكمال وهذا جامع   فهما للناس شمس وقمرْ

٢. الأخفش الأكبر، وهو أبو الخطاب عبد الحميد بن عبد المجيد، المتوفى سنة ١٧٧هـ، الذي كان - إضافة إلى ورعه وثقته - إماماً في العربية.

٣. يونس بن حبيب الضبي، المتوفى سنة ١٨٢هـ، الذي كان إمام نحاة البصرة في عصره، ومرجع الأدباء والنحويين في المشكلات. وكانت حلقته مجمع فصحاء الأعراب وأهل العلم والأدب[2].

٤. أبو زيد سعيد بن أوس الأنصاري المتوفى سنة ٢١٥هـ. الذي كان نحوياً لغوياً أديباً، وقد غلبت عليه اللغة والغريب والنوادر، فانفرد بذلك، وكان سيبويه إذا قال سمعت الثقة، يريد به أبا زيد الأنصاري[3]. ويروى عن أبي زيد قوله: " كان سيبويه يأتي مجلسي وله ذؤابتان، قال: فإذا

---

(١) ياقوت الحموي: معجم الأدباء. ١٦/ ١٤٧.

(٢) السابق. ٢٠/ ٦٤

(٣) السابق. ١١/ ٢١٣، ٢١٥

سمعته يقول: "حدثني من أثق بعربيته"، فإنما يريدني."[1]

٥. أما أشهر شيوخه، على الاطلاق، فقد كان الخليل بن أحمد، المتوفى سنة ١٧٥هـ، صاحب معجم العين المشهور، وواضع علم العروض. ويعد سيبويه مديناً، في كثير من مسائل كتابه، إلى أستاذه الخليل ابن أحمد، وكان يعنيه في كتابه ويقصده عندما يقول: "وسألته" أو "قال" من غير أن يذكر قائله، فهو الخليل"[2].

وكان الخليل يكرمه ويجله ويفسح له صدره، ويرى فيه طالباً واعداً، وقد حدَّث ابن النَّطَّاح فقال: كنت عند الخليل بن أحمد فأقبل سيبويه فقال الخليل: مرحبا بزائر لا يملّ. قال: وكان كثير المجالسة للخليل، وما سمعت الخليل يقولها لغيره، قال: وكان شاباً جميلاً نظيفاً[3].

أما تلاميذه فقد عرف منهم واشتهر ثلاثة، وهم:

١) الأخفش الأوسط، وهو أبو الحسن سعيد بن مسعدة، المتوفى سنة ٢١٥هـ، على بعض الآراء، الذي كان أحد أئمة النحاة من البصريين، وممن شهدوا مولد "الكتاب" ونشأته، وكان كثير المخالطة لسيبويه، وعالماً

---

(١) أبو الطيب اللغوي: مراتب النحويين. ص: ٧٤

(٢) السيرافي: أخبار النحويين البصريين. ص: ٤٠.

(٣) ياقوت الحموي: معجم الأدباء. ١٦/ ١١٨

بأسرار كتابه، وله الفضل في نشره وإذاعته[1] .

٢) قطرب، وهو أبو علي محمد بن المستنير، المتوفى سنة ٢٠٦هـ، كان يلازم سيبويه، ويبكر إليه للأخذ عنه، فإذا خرج سيبويه سَحَرا رآه على بابه فقال له يوماً: ما أنّْتَ إلا قطرب ليل، والقطرب: دويَّبَةَ تَدِبُّ ولا تفتر، فلقب بذلك، وهو أحد أئمة النحو و اللغة[2].

٣) الناشئ، قال المبرد: أحفظ من أخذ عن سيبويه الأخفش، ثم الناشئ، ثم قطرب[3]، وجاء في مراتب النحويين: "وكان ممن أخذ عن سيبويه والأخفش رجل يعرف بالناشئ، ووضع كتباً في النحو مات قبل أن يستتمها وتؤخذ عنه، فأخبرنا محمد بن يحيى قال : سمعت محمد بن يزيد يقول : لو خرج علم الناشئ إلى الناس لما تقدمه أحد."[4]

٤) وإذا كانت ذاكرة التاريخ لم تعِ لنا من أسماء تلاميذه إلا النزر اليسير، فإن الأجيال، التي جاءت بعده، كانت في علمها، وما زالت، عالة على ما خطّه هذا العالم، في حنايا كتابه، من قضايا نحوية، وصرفية، وصوتية، على اتساع المكان، وامتداد الزمان.

---

(١) ياقوت الحموي:معجم الأدباء. ١١/ ٢٢٤ وما بعدها.

(٢) السابق ١٩/ ٥٢-٥٣.

(٣) السابق. ١١/ ٢٢٩-٢٣٠

(٤) أبو الطيب اللغوي: مراتب النحويين. ص: ١٣٧

رحلته إلى بغداد ومناظرته الكسائي:

بقي سيبويه في البصرة منذ دخولها، إلى أن صار فيها إماماً متألق النجم، مقدَّما على من سواه، ثم حدث أن ترك البصرة متوجهاً إلى بغداد، طامحاً إلى الشهرة في حاضرة الدولة، وكان ذلك في خلافة الرشيد، ووزارة يحيى بن خالد البرمكي. وتذكر المصادر أن سيبويه سأل الوزير يحيى البرمكي أن يجمع بينه وبين شيخ المدرسة الكوفية الكسائي، فنصحه الوزير ألا يفعل ذلك، قائلاً: إنه –أي الكسائي– شيخ مدينة السلام وقارئها، ومؤدب ولد أمير المؤمنين، وكل من في المصر له ومعه، ولكن سيبويه أبى إلا أن يجمع بينهما، فكان له ما أراد. وتقول الروايات إن سيبويه قد اجتمع بالكسائي في دار يحيى البرمكي، وقيل بل في دار الرشيد. ويقال إنه لقيه، قبل الكسائي، بعض أصحابه ومنهم الأحمر، والفراء وهشام بن معاوية، ومحمد بن سعدان: فساءلوه بهدف إضعاف عزيمته، وكسر شوكته، ثم ما لبث أن التقى صاحبهم الكسائي، الذي تعرض له بالسؤال في المسألة المعروفة "بالمسألة الزنبورية". وتروى كتب الطبقات قصة هذه المناظرة على الوجه الآتي:

جاء الكسائي في ناس من العرب، فقال لصاحبه سيبويه: تسألني أو أسألك؟ فقال سيبويه: بل تسألني أنت. قال الكسائي: كيف تقول:

قد كنت أظن أن العقرب أشد لسعة من الزنبور، فإذا هو هي، أو فإذا هو إيَّاها بعينها؟ فقال سيبويه: فإذا هو هي، ولا يجوز النصب. ثم سأله عن مسائل أخرى من نفس القبيل ومنها سؤاله: كيف تقول: خرجت وإذا زيد قائم؟ قال: خرجت وإذا زيد قائم، قال: فيجوز أن تقول: خرجت فإذا زيد قائماً، قال: لا، فقال الكسائي: لحنت، وخطَّأه الجميع، وقال الكسائي: العرب ترفع ذلك كلَّه وتنصبه، فدفع سيبويه قوله، وطال بينهما الجدال. فقال يحيى بن خالد: قد اختلفتما وأنتما رئيسا بلديكما فمن يحكم بينكما، وهذا موضع مشكل؟ فقال الكسائي: هذه العرب ببابك، قد جمعتهم من كل أَوْب، ووفدت عليك من كل صُقْع، وهم فصحاء الناس، وقد قنع بهم أهل المِصْرين وسمع أهل الكوفة والبصرة منهم فيُحضرون ويُسألون، فقال يحيى وجعفر: قد أنصفت، وأمر بإحضارهم، فدخلوا وفيهم أبو فَقْعَس، وأبو دِثار، وأبو ثَرْوان، فسُئلوا عن المسائل التي جرت بينهما فتابعوا الكسائي. فأقبل يحيى على سيبويه فقال: قد تسمع أيها الرجل؟ فانصرف المجلس على سيبويه، وأعطاه يحيى عشرة آلاف درهم وصرفه فخرج وصرف وجهه تلقاء فارس، وأقام هناك حتى مات غما بالذَّرب، ولم يلبث إلا يسيراً، ولم يعد إلى البصرة.(١)

(١) ياقوت الحموي: معجم الأدباء. ١٦/ ١١٩-١٢٠. وكذلك:
القفطي: إنباه الرواة : ٢/ ٣٥٨-٣٥٩

وتجمع الروايات على أن أولئك المحكمين من الأعراب الحطمية كانوا على صلة بأنصار الكسائي، وأنهم كانوا قد أُعدّوا من قبل ليسهموا في دعم موقف شيخهم، والدليل على ذلك، أن الحق كان في جانب سيبويه، وليس الكسائي، فقد جاء موقفه، كما جاءت إجاباته، موافقة النمط القرآني السليم، وما يقتضيه القياس في هذا الموضع من طرد للرفع قوله تعالى: ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾[1]، وفي قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴾[2].

لقد كان وقع الهزيمة على نفس سيبويه شديداً موجعاً، فخرج من بغداد محزوناً، كاسف البال، مريضاً. وعقد العزم على الرحيل إلى خراسان، راغباً في الهدوء والعطاء في كنف طلحة بن طاهر ابن الحسين والي خراسان، ولكن وطأة المرض اشتدت عليه، فعاجلته المنية في شيراز، ودفن فيها - كما ذكرنا سابقاً - سنة ١٨٠هـ، على أرجح الأقوال. وكان سيبويه ينشد، وهو يجود بنفسه، قائلاً[3]:

يؤمِّل دنيا لتبقى له فمات المؤمِّل قبل الأملْ
حثيثاً يروّي أُصول النخيل فعاش الفسيل ومات الرجلْ

---

(١) الأعراف: ١٠٧-١٠٨

(٢) يس: ٢٩

(٣) ياقوت الحموي: معجم الأدباء. ١٦/ ١٢١

ثانياً – الكتاب :

عُرف هذا المؤلَّف النحوي، الذي ينسب إلى سيبويه، باسم "الكتاب"، أو باسم "كتاب سيبويه" فقط. ويبدو أن هذه التسمية لم تكن من صنع صاحب الكتاب نفسه، فقد مات الرجل – فيما يظن– قبل أن يسمّيه. ويبدو أنه كان ينوي العودة إلى كتابه مرة ثانية لمراجعته، وإعادة النظر في ترتيب أبوابه وتوضيح مسائله، ولكن المنية عاجلته قبل أن ينفذ تلك الرغبة. ولعل خلو الكتاب من مدخل أَو مقدمة، وخلوه أيضاً من خاتمة، يدعم هذا الاعتقاد.

ومع ذلك، فقد اصطلح معاصرو سيبويه، ومن جاء بعدهم من العلماء، على تسمية هذا السفر النفيس باسم "الكتاب"، وكان قول الواحد منهم "قرأت الكتاب"، أو "قال صاحب الكتاب"، لا يعني شيئاً سوى هذا المؤلَّف، وصاحبه.

ويجمع الباحثون على أن سيبويه قد ألف كتابه بعد وفاة شيخه وأستاذه الخليل بن أحمد، ويستدلون على ذلك بتعقيبات سيبويه على أقوال الخليل، التي ضمنها كتابه، بعبارة "رحمه الله"، فضلاً عن هذا النص، الذي ورد في مقدمة نسخة الكتاب التي حققها الأستاذ عبد

السلام هارون، "قال: وسمعت نصرا يحكي عن أبيه قال: قال لي سيبويه حين أراد أن يضع كتابه: تعال حتى نتعاون على إحياء علم الخليل"[1].

ولقد ظل هذا الكتاب مجهولاً، فترة من الزمان، إلى أن قُيِّضَ له مَن أذاعه ونشره بين الناس، وكان ذلك على يد تلميذ سيبويه أبي الحسن الأخفش الأوسط، سعيد بن مسعدة، الذي شهد - كما ذكرنا سابقاً- مولد الكتاب ونشأته. وقد طعن بعض القدماء في نسبة الكتاب إلى سيبويه، وذهبوا -ظناً منهم - إلى أنه من صنع جماعة من الناس بلغت عدتها اثنين وأربعين إنساناً من بينهم سيبويه.[2] كما ذهبوا أيضاً إلى أن سيبويه قد أخذ أصول كتابه ومسائله من الخليل، واقتبس الفروع والشروح من عيسى بن عمر، ويونس بن حبيب وغيرهم من علماء البصرة. ولكننا لا نرى هذا الرأي ولا نميل إليه؛ فالكتاب -كما توضح القراءة الداخلية له- يجري تأليفه على نسق واحد، وطريقة واحدة في التصنيف والتبويب ، فضلاً عن أن سمات الأسلوب وخواصه ، تشير، بكل جلاء ووضوح، إلى وحدة المؤلَّف وعدم توزعه.

ولا يعني هذا الكلام، بحال من الأحول، أن سيبويه لم ينتفع بجهود سابقيه من النحاة وعلماء اللغة، "إذ لا يعقل أن يبتدع سيبويه هذا

(١) مقدمة كتاب سيبويه ١/ ٢٤.

(٢) ابن النديم: الفهرست. ص: ٧٦

العلم المتكامل دون أن يفيد من تلك الجهود الأصيلة التي رسمت كثيراً من أصول النحو ومسائله ومقاييسه وعلله."[1]

ولقد أشار سيبويه نفسه إلى ذلك في أثناء اقتباساته المتناثرة في أرجاء كتابه، ولكن علمه في كتابه لم يقتصر على النقل والاقتباس، وإنما تعدَّى ذلك إلى الجمع والاستقراء والتنسيق والتحليل والتعليل ووضع الأسس والقواعد.

مادة الكتاب ومنهجه:

يعد كتاب سيبويه، أول كتاب لغوي جمع، بين دفتيه، مختلف القضايا النحوية، والصرفية، والصوتية للغة العربية، فضلاً عن اشتماله على بعض الإشارات واللمحات البلاغية، التي تناثرت في أثناء الكتاب وحناياه. وليس من الصواب أن يُنْعَتَ هذا الكتاب بأنه كتاب نحو فحسب، فهو - بالإضافة إلى تضمنه قدراً كبيراً من نحو العربية وقواعدها - يشتمل على المبادئ الأساسية للصرف العربي ، والنظرات العبقرية لعلم الأصوات في العربية. ولكن هذه الموضوعات، التي ملأت الكتاب، جاءت مختلطة فيما بينها في كثير من الأحوال، دونما تنظيم أو تبويب، على النحو، الذي كنا نأمله ونرجوه من كتاب رائد عملاق كهذا.

---

(١) الكتاب: مقدمة المحقق ١/ ٢٤-٢٥.

وقد استقى سيبويه مادة كتابه الأساسية من القرآن الكريم، الذي أكثر من الاستشهاد به، والاقتباس منه، وكان يشير في بعض الحالات إلى بعض القراءات القرآنية التي اعتمد عليها في تقعيد بعض قواعده. أما الحديث الشريف، فقد كان قليل الاقتباس منه والاستدلال به على ما يذهب إليه من قضايا ومسائل.

وإضافة إلى ذلك، فقد استشهد سيبويه كثيراً بالشعر الجاهلي، وشعر المخضرمين وصدر الإسلام، وكان كثير من الشواهد المنسوبة في الكتاب "من نسبة أبي عمر الجرمي."[١]

أما بالنسبة للنثر، فقد كان المعين الأساسي لسيبويه، فمنه أخذ واستقى مادة غزيرة، كما أنه أشار إلى اللهجات العربية وتباينها في الاستعمال اللغوي.

وكان سيبويه يهتم – في جمعه لمادته وتحليله اللغوي – بالطريقة التسجيلية، فقد كان يسجل كل ما يعرف، أو يسمع، أو يروي، ثم يتبع ذلك بالشواهد المختلفة، أو بالإحالة إلى أساتذته أو رواته، وكانت عنايته تتجه – في المقام الأول– إلى المنطوق اللغوي، وما يمكن أن يطرأ عليه من اختلافات مردها البيئة، أو الحالة الاجتماعية والثقافية.

---

(١) الكتاب. ١/ ٣٣

وعلى الرغم من الصعوبة ، التي اتسم بها هذا الكتاب حتى على بعض القدماء[1]، فإن " كلمات عبارته متلاحمة مستوية ، لا قلق فيها ولا نتوء، وفقراتها متواصلة يجذب بعضها بعضاً، وتأخذ فيها الهوادي بالتوالي ، فإذا هي تمر بين يديك في أكثر الأمر تباعاً متداركة ، لا تكاد تنقطع أو تنقسم، حتى تتم مسائل الباب كله، أو مرحلة من مراحله"[2]، ومع ذلك ، فقد جاءت "عبارة الكتاب تتفاوت وضوحاً وغموضاً، فربما وضحت حتى تصير كفلق الصبح سفوراً وإشراقاً، تستبق إلى الفهم ألفاظه ومعانيه، وربما غمضت واستغلقت حتى تكون كالأحاجي والطلسمات، يحار فيها الفهم، ويرتد عنها القارئ عجزاً وكلالاً، وبين هذين الحدين مراتب من الوضوح والغموض لا تكاد تحصى كثرة"[3]

وعلى أي حال، فإن كتاب سيبويه يعد دستور العربية الأول، وسفرها النفيس الخالد على مر الزمن. ولقد سماه الناس قديما "قرآن النحو"[4]، فأثنوا عليه وعلى صاحبه، " قال الجاحظ: أردت الخروج إلى

---

(١) ومن الأمثلة على ذلك، أن أبا العباس المبرد كان يقول لمن أراد أن يقرأ عليه كتاب سيبويه : هل ركبت البحر؟ انظر بغية الوعاة. ٢/ ٢٢٩.

(٢) علي النجدي ناصف: سيبويه إمام النحاة. ص: ١٥٩.

(٣) السابق نفسه.

(٤) أبو الطيب اللغوي: مراتب النحويين. ص: ١٠٦

محمد بن عبد الملك[١]، ففكرت في شيء أهديه له فلم أجد شيئاً أشرف من كتاب سيبويه، وقلت له: أردت أن أهدي لك شيئاً، ففكرت فإذا كل شيء عندك، فلم أرَ أشرف من هذا الكتاب، وهذا الكتاب اشتريته من ميراث الفرَّاء. قال: والله ما أهديتَ إِليَّ شيئاً أحبّ إليّ منه[٢]

وسنخصص هذه الدراسة لإلقاء الضوء على الفكر الصوتي لسيبويه، وذلك من خلال استعراض آرائه الصوتية التي سجلها في نهاية مؤلفه الخالد "الكتاب". ومن المعلوم أن سيبويه - شأنه شأن من جاء بعده من اللغويين- قد عالج القضايا الصوتية للغة العربية تحت باب الإدغام. والإدغام -كما هو معروف- قضية صرفية صوتية.

ويبدو أن سيبويه قد أدرك أن معالجة بعض المسائل الصوتية ضرورية لفهم موضوعات الإدغام ومسائله، ولهذا فقد جاء ترتيب الموضوعات في الكتاب على النحو الآتي: نحو، ثم صرف، ثم أصوات وكان الأولى بهذا العالم أن يعكس هذا الترتيب بحيث يستهل كتابه بمعالجة القضايا الصوتية للغة العربية، ثم يناقش -بعد ذلك- قضايا الصرف وموضوعاته، ثم يبسط الحديث -في النهاية- في النحو ومسائله

---

(١) هو محمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم.

(٢) ياقوت الحموي: معجم الأدباء. ١٦/ ١٢٣.

المختلفة، من منطلق كون الدرس الصوتي يمهد للصرف، وعلى اعتبارهما معا وسيلة ضرورية لفهم النحو وقضاياه المختلفة.

ومن الجدير بالذكر، أن الدرس الصوتي "السيبويهي" لم يكن محصوراً في باب الإدغام فحسب، بل إن موضوعات الإدغام ذاتها لم تعالج برمتها في هذا الباب المخصص للإدغام. وإنما نجد هذه القضايا الصوتية والصرفية مبثوثة في تضاعيف الكتاب بأجزائه المختلفة، ولهذا فإننا –وعلى الرغم من حصر دراستنا في باب الإدغام– سنجد أنفسنا مضطرين إلى الخروج –في بعض الحالات– عن دائرة باب الإدغام، إلى أبواب أخرى. وذلك من أجل مناقشة، أو استكمال مناقشة، بعض القضايا الصوتية أو الصرفية ذات العلاقة بدراستنا.

ونودُّ أن نذكر، في ختام هذا التمهيد، ما سبق لنا أن ألمحنا إليه في المقدمة، وهو أن جُلَّ اللغويين، الذين جاءوا بعد سيبويه، كانوا مدينين له في معظم ما أودعوه بطون كتبهم ومؤلفاتهم. فقد ترسموا خطى سيبويه في كل ما ذهبوا إليه من درس نحوي وصرفي بعامة، وصوتي بخاصة. ولا يجد المرء كبير عناء في التعرف إلى مدى التأثير الكبير الذي خلفه هذا الشيخ الرائد في عقول أولئك العلماء وفكرهم.

إن جولة خاطفة في الجانب الصوتي لمؤلفات ابن جني، والزمخشري، وابن يعيش، والزجاجي، وابن الحاجب، والرضي،

والسيوطي وغيرهم كثير، تُطلعنا على الحضور الواضح لسيبويه في تلك المؤلفات. بل إن أصحاب تلك المؤلفات كانوا يستعملون لغة سيبويه في التعريف، والتحليل، والتعليل، والتقعيد لكل ما كانوا يذهبون إليه.

ولقد اعتمدنا –في هذه الدراسة– على طبعة الكتاب، التي توفر على تحقيقها وإخراجها شيخ المحققين العرب أستاذنا الجليل عبد السلام هارون، وقد جاءت هذه الطبعة الحديثة الموثقة في خمسة أجزاء، خصص آخرها للفهارس. وقد صدرت هذه الطبعة، التي اعتمدنا عليها، وهي الطبعة الثالثة، عن عالم الكتب في بيروت سنة ١٩٨٣م.

الباب الأول

حـروف العربيـة

- الفصل الأول: حروف العربية من حيث العدد.
- الفصل الثاني: حروف العربية من حيث المخارج.
- الفصل الثالث: حروف العربية من حيث الصفات.
- الفصل الرابع: التطور التاريخي لبعض أصوات العربية.

الفصل الأول

حروف العربية من حيث العدد

١. الحروف العربية الأصول.

٢. الحروف العربية الفروع المستحسنة.

٣. الحروف العربية غير المستحسنة.

حروف العربية من حيث العدد

عدَّ سيبويه أصل حروف العربية تسعة وعشرين حرفاً هي: الهمزة، والألف، والهاء، والعين، والحاء، والغين، والخاء، والكاف، والقاف، والضاد، والجيم، والشين، والياء، واللام، والراء، والنون، والطاء، والدال، والتاء، والصاد، والزاي، والسين، والظاء، والذال، والثاء، والفاء، والباء، والميم، والواو.[١]

غير أنها من الممكن أن تصبح – كما يقول هذا العالم– "خمسة وثلاثين حرفاً بحروف هن فروع، وأصلها من التسعة والعشرين، وهي كثيرة يؤخذ بها، وتستحسن في قراءة القرآن والأشعار، وهي:" النون الخفيفة، والهمزة التي بَيْنَ بَيْن، والألف التي تمال إمالة شديدة، والشين التي كالجيم، والصاد التي تكون كالزاي، وألف التفخيم يُعْنَى بلغة أهل الحجاز في قولهم: الصلاة، والزكاة، والحياة."[٢]

وقد يرتفع هذا العدد فيصبح "اثنين وأربعين حرفاً بحروف غير مستحسنةٍ ولا كثيرةٍ في لغة من ترتضى عربيته، ولا تستحسن في قراءة القرآن ولا في الشعر؛ وهي: الكاف التي بين الجيم والكاف، والجيم التي

(١) سيبويه: الكتاب. ٤/ ٤٣١

(٢) السابق ٤/ ٤٣٢

كالكاف، والجيم التي كالشين، والضاد الضعيفة، والصاد التي كالسين، والطاء التي كالتاء، والظاء التي كالثاء، والباء التي كالفاء."(١)

ثم يعلق سيبويه على هذا التصنيف، الذي قدمه للأصوات العربية بقوله: " هذه الحروف التي تمَّمْتها اثنين وأربعين جيدها ورديئها أصلها التسعة والعشرون، لا تُتبيَّن إلا بالمشافهة"(٢)

ويتضح لنا، من هذا التصنيف الصوتي، الذي قدمه سيبويه، أن تصور هذا العالم للأصوات العربية يتوزع في ثلاثة أقسام هي:

١. حروف عربية أصلية، وعددها -كما مرَّ معنا- تسعة وعشرون حرفاً.

٢. حروف عربية فرعية مستحسنة، وعددها -كما سبق أن ذكرنا- ستة أحرف.

٣. حروف عربية فرعية غير مستحسنة، وعددها -كما يمكن فهمه- سبعة أحرف.

وسنحاول - فيما يأتي- إلقاء بعض الأضواء التوضيحية على تصورات سيبويه وتصنيفاته الصوتية، التي أرسى قواعدها وأسسها منذ

---

(١) الكتاب. ٤/ ٤٣٢

(٢) السابق. ٤/ ٤٣٢

بدء فجر الحركة العلمية والفكرية عند العرب والمسلمين، وترسَّم خطاه في ذلك جلُّ من جاء بعده من العلماء اللغويين.

أولاً: الحروف العربية الأصول :

يقصد سيبويه بالحروف التسعة والعشرين، التي عدّها أصل حروف العربية –فيما يبدو لنا– فونيمات اللغة العربية من صوامت Consonants(١)، وحركات Vowels(٢)، وأنصاف صوامت، أو

---

(١) يقصد بالصامت Consonant، من وجهة نظر علم الأصوات، "صوت كلامي ينتج بتأثير إعاقة، أو انسداد لمرور الهواء عند موضع ما من الممر الصوتي الواقع فوق المزمار Glottis، وتشمل الصوامت في العربية جميع الأصوات باستثناء الحركات، وأنصاف الحركات." يُنظر:

R.R.K. Hartmann and F.C. Stork: Dictionary of Language and Linguistics. P. 49

(٢) تعرّف الحركات Vowel، من وجهة نظر علم الأصوات أيضاً، بأنها الصوت الذي يتم انتاجه دون أن يحدث انسداد أو تضييق في مجرى الهواء في الفم، ولذلك فإنه لا يصاحب انتاج الحركة أي احتكاك مسموع.

ويعرف Daniel Jones الحركة بأنها صوت مجهور يخرج الهواء، في أثناء تشكله، في تيار متتابع مستمر، من خلال الحلق والفم، دون أن يتعرض لتدخل يمنع خروجه، أو يسبب له احتكاكاً مسموعاً.

يُنظر كتابه : An outline of English Phonetics. PP: 22-23.

أنصاف حركات كما تسمى Semi Consonants/ Vowels(١).

إن اشتمال الجدول الصوتي، عند سيبويه، على أحرف الألف، والواو، والياء، يوحي بأن هذا الجدول يتضمن - إضافة إلى الصوامت- نوعين آخرين من الأصوات هما: الحركات، وأنصاف الحركات. فالواو والياء، اللتان وردتا في هذا الجدول، لهما -في التفكير الصوتي العربي- جانبان:

أولهما: عدّهما صامتين، أو ما يمكن تسميته بأَنصاف حركات، وذلك مثل الواو والياء، في كلمتي: "وعد"، و"يعد".

وثانيهما: عدّهما حركتين طويلتين، وذلك مثل الواو والياء، في كلمتي: "ذهبوا"، و "لم تذهبي".

ولكن كل صوت من هذين الصوتين قد توحَّد في جانبيه المذكورين – في تاريخ الكتابة العربية- برسم واحد، الأمر الذي أدى إلى

---

(١) يقصد بأنصاف الصوامت، أو أنصاف الحركات، تلك الأصوات الكلامية التي لها بعض ملامح الحركات، وبعض ملامح الصوامت. فهي أصوات تتقارب، في أثناء انتاجها، أعضاء النطق المنتجة لها تقارباً كبيراً. ويكون الاحتكاك الناتج ضئيلاً للغاية ولكنها -أي هذه الأصوات- لا تقوم بدور نواة مقطع. يُنظر:

Hartmann and Stork, Dictionary of Language and Linguistics. PP 205-206.

حدوث لبس في دلالتهما على هذين الجانبين. وبوسعنا أن نجد الدليل على ذلك في مواقع متفرقة من "الكتاب". إلا أننا نودُّ التمثيل له من موضع قريب مما نحن بصدد الحديث عنه. يقول سيبويه: "وإذا كانت الواو قبلها ضمة، والياء قبلها كسرة، فإن واحدة منهما لا تدغم إذا كان مثلها بعدها، وذلك قولك: ظلموا واقدا، واظلمي ياسراً، ويغزو واقداً، وهذا قاضي ياسر"[١].

فهو - في هذا النص- يوحِّد بين حركة الضمة الطويلة، التي سماها واواً، والواو، التي هي صامت أو نصف حركة، والتي سماها واواً أيضاً. كما أنه يوحِّد -في هذا النص أيضاً- بين حركة الكسرة الطويلة التي سماها ياء، والياء التي هي صامت أو نصف حركة، والتي سماها ياء أيضاً.

إن الرسم الموحد للواو والياء في حالتي كونهما حركتين طويلتين أو نصفي حركة، كان وراء اللبس في تصور هذين الصوتين، واعتبار كل منهما -من ثمَّ- صوتاً واحد.

وإذا ضممنا إلى صوتي الواو والياء -باعتبارهما حركتين طويلتين- الألف، أصبح لدينا - في مستوى التصنيف الصوتي- ثلاث حركات طويلة هي : الألف ، والواو، والياء ، وهي التي أطلق عليها

---

(١) الكتاب. ٤/ ٤٤٢

علماؤنا القدامى مصطلح حروف المد أو اللين "فما يسمى بألف المد هي في الحقيقة فتحة طويلة، وما يسمى بياء المد ليست إلا كسرة طويلة، وكذلك واو المدِّ تعد من الناحية الصوتية ضمة طويلة."(١)

ولهذه الحركات الطويلة، أي الألف، والياء، والواو، مقابلات قصيرة هي: الفتحة، والكسرة، والضمة على التوالي. ولا تختلف هذه الحركات القصيرة عن تلك الحركات الطويلة إلا في الطول Length أو الكمية Duration. "فكيفية النطق بالفتحة، وموضع اللسان معهما، يماثل كل المماثلة كيفية النطق بما يسمى ألف المد، مع ملاحظة فرق الكمية بينهما."(٢)

ولكن الذي يلفت الانتباه في قائمة هذه الحروف التسعة والعشرين، التي قدمها سيبويه، هو اشتمالها على الألف بوصفها حرفاً – أو لنقل فونيماً– مستقلاً إلى جانب الهمزة، ونسبة هذين الحرفين –مع أصوات أخرى– إلى المخرج الحلقي. والحقيقة، التي نود التأكيد عليها مرة أخرى، هي أن الألف لا تعد –بحال من الأحوال– حرفاً من الحروف الصامتة، كما أنها لا تنتمي إلى المخرج الحلقي. فهي – في التصنيف الصوتي الحديث، الذي يعدها فتحة طويلة– تنتمي، مع

---

(١) د. ابراهيم أنيس: الأصوات اللغوية. ص: ٣٨.

(٢) السابق. ص: ٣٨.

الكسرة والضمة، إلى مجموعة الأصوات المسماة حركات Vowels ويتم النطق بها عندما يكون اللسان مستوياً في قاع الفم، وبعيداً عن الغار، أو الحنك الصلب Hart Palate كما يسمى.

ويبدو أن اللغويين، الذين جاءوا بعد سيبويه، قد أدركوا وجود نوع من الخلط بين حرفي الهمزة والألف؛ فابن جني –على سبيل المثال– يوضح ذلك بقوله: "اعلم أن الألف التي في أول حروف المعجم هي صورة الهمزة في الحقيقة ، وإنما كتبت الهمزة واواً مرة، وياء أخرى، على مذهب أهل الحجاز في التخفيف، ولو أريد تحقيقها البتة، لوجب أن تكتب ألفاً على كل حال"[1]. فكأن الألف –في رأي ابن جني– عبارة عن رمز كتابي، أو وحدة خطية جرافيم Grapheme [2] أما الهمزة فإنها تمثل الجانب النطقي لها. وقد حاول ابن جني توضيح ذلك بقوله: "إن كل حرف سميته ففي أول حروف تسميته لفظه بعينه، ألا ترى أنك إذا قلت " جيم "، فأول حروف الحرف "جيم"، وإذا قلت " دال "، فأول حروف الحرف "دال"، وإذا قلت "حاء"، فأول ما لفظت به حاء،

---

(١) ابن جني: سر صناعة الإعراب. ١/ ٤١ .

(٢) يُراجع، في هذا الشأن، كتاب الدكتورة فاطمة محجوب: دراسات في علم اللغة. ص:١٠٧، وما بعدها.

وكذلك إذا قلت "ألف"، فأول الحروف التي نطقت بها همزة. فهذه دلالة أخرى غريبة على كون صورة الهمزة مع التحقيق ألفاً"[١].

ولعل ابن جني كان يدرك أن هناك فارقاً بين الألف -أي الفتحة الطويلة، والهمزة. فهو يقول: "فأما الألف المدة التي في نحو سار وقام وكتاب وحمار، فصورتها أيضاً صورة الهمزة المحققة التي في أحمد وإبراهيم وأُتْرجّة، إلا أن هذه الألف لا تكون إلا ساكنة، فصورتها وصورة الهمزة المتحركة واحدة وإن اختلف مخرجاهما"[٢] .

ولكن ابن جني لم يطبق آراءه تلك عندما أقدم على وضع الألف -على غرار ما فعل شيخه وأستاذه سيبويه- إلى جانب الهمزة، وذلك في أثناء تصنيفه للأصوات، وتحديده لمخارجها، كما أنه لم يتحدث عن مخرج الألف التي نصَّ -كما مرَّ معنا قبل قليل- على أن لها مخرجها المختلف عن مخرج الهمزة.

وقد حاول بعض اللغويين توجيه رأي سيبويه على نحو آخر اعتبروا فيه الألف، التي ذكرها شيخهم بعد الهمزة، مرادفة للهمزة، أو مفسرة للمقصود بها، وخاصة أن المعنى الاصطلاحي للهمزة لم يكن في ذلك الوقت قد استقر في الميدان اللغوي بعامة، والصوتي بخاصة. ويقدم

(١) ابن جني، سر صناعة الإعراب. ١/ ٤٢.

(٢) السابق. ١/ ٤٢- ٤٣

اللغويون دليلاً أنَّعلى ذلك تلك الرواية التي تقول إنَّ أحد اللغويين سأل رجلاً من قريش قائلاً:" أَتَهْمِزُ الفأرة"؟ فلم يفهم القرشي السؤال وأجاب ساخراً " إنما يهمزها القط" وكان اللغوي يهدف من سؤاله هذا ما إذا كان القرشيون يلتزمون تحقيق الهمزة في كلامهم.

فابن يعيش –على سبيل المثال– ينص على ذلك بقوله: "اعلم أن أصل حروف المعجم عند الجماعة تسعة وعشرون حرفاً على ما هو المشهور من عددها، أولها الهمزة ويقال لها الألف، وإنما سموها ألفاً لأنها تصور بصورة الألف ... والصواب ما ذكره سيبويه وأصحابه من أن حروف المعجم تسعة وعشرون حرفاً أولها الهمزة، وهي الألف التي في أول حروف المعجم، وهذه الألف هي صورتها على الحقيقة ..."(١)

ولكن التوجيهات المختلفة التي تقدم لرأي سيبويه بشأن الألف والهمزة، لا تنفي اعتباره للألف حرفاً مستقلاً عن الهمزة. ولعلنا نلتمس الدليل على ذلك في أن سيبويه –ومعه غيره من العلماء الذين جاءوا بعده– قد أفردوا الهمزة عن الألف في أثناء معالجاتهم وتصنيفاتهم للأصوات العربية في مختلف المستويات الوصفية والملمحية.

ويبدو لنا أن مشكلة رسم الهمزة والألف، واختلاطهما معاً –في بعض مواقع الرسم الكتابي من جهة، ومشكلة نطق هذين الحرفين

---

(١) ابن يعيش، شرح المفصل. ١٠/ ١٢٦

واختلاطهما معا- في بعض مواقع النطق الكلامي من جهة أخرى، قد أوحت -لهذا العالم ومن ترسّم خطاه من العلماء- بهذا الخلط بين هذين الحرفين، وعدِّهما، مع أحرف أخرى، من أحرف الحلق.

وتجدر الإشارة إلى أن القائمة التي قدمها سيبويه للحروف العربية، والتي بلغ عددها -عنده- تسعة وعشرين حرفاً ، لا تستغرق "فونيمات[1] اللغة العربية الفصيحة جميعاً والتي يبلغ عددها أربعة وثلاثين فونيماً. فهي لا تذكر الحركات القصيرة الثلاث، كما أنها تدمج نصفي الحركة، الواو والياء، مع حركتي الضمة والكسرة الطويلتين"[2].

---

(١) يقصد بالفونيم وحدة الكلام الصغرى التي من شأنها أن تميز منطوقاً من آخر في كل التنوعات، أو التشكلات التي تتجلى بوساطتها في كلام شخص ما، أو في لهجة واحدة. أو هو "صوت كلامي، أو مجموعة من الأصوات الكلامية المتماثلة المترابطة التي تقوم بوظيفة متشابهة في لغة ما. وتُمثل في العادة بحرف واحد بعينه في الكتابة". يُنظر:

Mario pei, Glossary of Linguistic Terminology P:200

يُنظر كذلك:

Mario Pei, and Frank Gynor, Dictionary of Linguistics. P: 167.

(٢) أشار سيبويه -في مواقع متفرقة من كتابه- إلى وجود ارتباط بين نوعي الحركات الطويلة والقصيرة. فهو يقول -على سبيل المثال- "وإن كان ما قبلها (يقصد الهمزة) مكسوراً أبدلت مكانها ياء، كما أبدلت مكانها واواً إذا كان ما قبلها مضموماً، وألفاً إذا كان ما قبلها مفتوحاً... فأبدلوا هذه الحروف التي منها الحركات=

ثانياً- الحروف العربية الفروع المستحسنة:

عرض سيبويه- بعد الحروف التسعة والعشرين السابقة التي سماها أصل حروف العربية- ستة أحرف أخرى اعتبرها متفرعة من بعض تلك الحروف الأصول. وهذه الأحرف هي:

١- النون الخفيفة:

يقصد سيبويه بالنون الخفيفة، تلك النون الساكنة التي تنطق من الأنف على شكل غُنّة، وتظهر في قراءة القرآن الكريم في حالة ما يسمَّى بالإخفاء، الذي هو حكم النون الساكنة إذا وقعت قبل خمسة عشر صوتاً هي: (ت، ث، ج، د، ذ، ز، س، ش، ص، ض، ط، ظ، ف، ق، ك)، وتنطق النون، في هذه الحالة، من الأنف مع وضع اللسان في مخرج الصوت التالي لها.

ولقد انفرد سيبويه -فيما يظهر- بوصف هذه النون بأنها خفيفة، وكأن السكون الطارئ عليها في بعض السياقات النطقية أدى إلى تخفيفها

=(لأنها اخوات، وهي أمهات البدل والزوائد) ، وليس حرف يخلو منها أو من، بعضها وبعضُها ، حركاتُها" الكتاب٣/ ٥٤٤ - ويقول في موضع آخر: " وإنما الضمتان من الواوين، فكما تكره الواوان كذلك تكره الضمتان لأن الضمة من الواو، ... وكذلك الكسرتان تكرهان عند هؤلاء كما تكره الياءان في مواضع، وإنما الكسرة من الياء..." يُنظر: الكتاب ٤/ ١١٤-١١٥.

مما أدى بالتالي إلى جعلها أنفية خالصة، والدليل على ذلك "أنك لو أمسكت بأنفك، ثم نطقت بها لوجدتها مختلَّة"[1] .

أما من جاء بعد سيبويه من اللغويين –وهم في الحقيقة والواقع تلاميذ في مدرسته اللغوية– فكثيراً ما كانوا يصفون هذه النون بأنها "خفية"؛ فابن جني، الذي ترسَّم في معالجاته الصوتية خطى سيبويه، ينص، في معرض حديثه عن هذه النون، على أن "من الخياشيم مخرج النون الخفية، ويقال الخفيفة، أي الساكنة"[2] . فكأنه يرجح تسميتها بالخفية على تسمية شيخه لها بالخفيفة، وإلى ذلك ذهب كثير من اللغويين، كالزمخشري وشارح مفصله ابن يعيش، وابن عصفور، والرضيّ في شرحه لشافية ابن الحاجب وغيرهم.

ولا شك في أن وصف هؤلاء اللغويين لهذه النون بالخفاء، أدق من وصف سيبويه لها بالخفة. إذ من "المعروف أن النون الخفية غير النون الخفيفة، فالخفيَّة هي نون الإخفاء قبل حروف الفم، وهي التاء والثاء...

---

(١) ابن جني، سر صناعة الإعراب ١/ ٤٨. وكذلك:

ابن يعيش، شرح المفصل. ١٠/ ١٢٦.

(٢) ابن جني، سر صناعة الإعراب. ١/ ٤٨.

وأما الخفيفة فهي إحدى نوني التوكيد، ولها أحكام في الوقف تفردها بطابع خاص حيث تصير في الوقف ألفاً"[1].

وعلى أي حال، فإن هذه النون، التي تحدث عنها سيبويه، وعدَّها من الحروف المستحسنة، التي يُؤخذ بها، ما هي -في الواقع- سوى تنوع صوتي، أو لنقل صورة صوتية (ألوفونية) متفرعة سياقياً عن الوحدة الصوتية الأساسية (الفونيم)، التي أطلق عليها سيبويه مصطلح الحرف. فالنون "اصطلاح شامل يدخل تحته عدد من الأصوات كالذي في بداية "نحن"، والذي قبل الثاء في "إن ثاب"، وقبل الظاء في "إن ظهر"، وقبل الشين في "إن شاء"، وقبل القاف في "إن قال" مع اختلاف واضح بين هذه الأصوات في المخرج"[2].

٢- <u>الهمزة التي بَيْنَ بَيْن:</u>

وضَّح ابن جني مقصود سيبويه بهذه الهمزة بقوله: "هي بين الهمزة وبين الحرف الذي منه حركتها إن كانت مفتوحة، فهي بين الهمزة والألف، وإن كانت مكسورة فهي بين الهمزة والياء، وإن كانت مضمومة فهي بين الهمزة والواو، إلا أنها ليس لها تمكن الهمزة المحققة وهي، مع ما

---

(١) د. تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها. ص: ٥٣.

(٢) د. تمام حسان: مناهج البحث في اللغة. ص: ١٢٥. وكذلك:

د. محمود السعران: علم اللغة، مقدمة للقارئ العربي. ص: ٢١٢-٢١٣

ذكرنا من أمرها، في ضعفها وقلة تمكنها، بزنة المحققة... فالمفتوحة نحو قولك في سأل: سَاَل، والمكسورة نحو قولك في سئم: سَيِم، والمضمومة نحو قولك في لؤم: لَوُم"[1] .

والواقع أن هذه الهمزة، التي تحدث عنها سيبويه، هي الهمزة التي وصفها السيوطي بأنها مسهَّلة، أي ضعيفة ليس لها تمكن المحققة ولا خلوص الحرف الذي منه حركتها. وهي، مع ذلك، تبقى – كما قال السيوطي أيضاً- فرع الهمزة المحققة[2]. ويعود السبب في تسهيل هذه الهمزة وضعفها إلى عدم إقفال الوترين الصوتيين وانطباقهما في أثناء النطق بها، كما هو الحال مع الهمزة المحققة.

وتعد هذه الهمزة، التي وصفها القدماء بأنها فرع الهمزة المحققة، تنوعاً صوتياً للوحدة الصوتية (الهمزة)، التي أوردها سيبويه ضمن الحروف التسعة والعشرين التي أطلق عليها "أصل حروف العربية".

٣- الألف التي تمال إمالة شديدة : ويقصد بها الألف التي يُنْحى بها نحو الياء، أو تلك الألف التي نجدها –كما قال ابن جني- بين الألف والياء، نحو قولك في عالم وخاتم عالِم خاتِم[3].

---

(١) ابن جني: سر صناعة الإعراب. ١/ ٤٨

(٢) السيوطي: همع الهوامع. ٢/ ٢٢٩

(٣) ابن جني: سر صناعة الإعراب. ١/ ٥٠. وكذلك: ابن يعيش: شرح المفصل. ١٢٧/١٠

وقد نصَّ سيبويه –في موضع آخر من كتابه– على أن "الألف تمال إذا كان بعدها حرف مكسور، وذلك قولك عابِدٌ، وعالِمٌ، ومساجدُ ومفاتيحُ، وعذافر، وهابيل، وإنما أمالوها للكسرة التي بعدها، أرادوا أن يقربوها –أي الألف– منها–أي من الكسرة–"[1] .

وتقع الألف الممالة –في قراءة أبي عمرو بن العلاء– قبل الراء المكسورة في مثل: (النار، الأبرار، الابصار ، الأنصار)، كما ترتبط بالألف ذات الأصل اليائي في مثل ما نقرأ في قوله تعالى: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِاهَا وَمُرْسَاهَا ﴾[2] بإمالة ألف (مجراها) لتصبح (مجريها) بالكسرة التي ترسم صوتياً (e) –أي كسرة ممالة– لا (i) وهي الكسرة الخالصة[3] .

ويبدو أن الذي أحدث الإمالة في الألف، هو –كما يفهم من كلام سيبويه– إحداث نوع من المماثلة بين الأصوات المتجاورة ، فوقوعها قبل كسرة خالصة، أدى إلى تأثير الألف بهذه الكسرة تأثيراً رجعياً فحولت بدورها إلى حركة طويلة تقع نطقياً – كما لمح ابن جني– بين منطقتي نطق الألف والياء.

(١) الكتاب. ٤/ ١١٧.

(٢) هود:٤١

(٣) د. عبد الصبور شاهين: في التطور اللغوي. ص: ٢١١.

ومن المعلوم أن نطق هاتين الحركتين -أي الألف، أو ما يُسمى بالفتحة قصيرة وطويلة، والكسرة- يرتبط بالجزء الأمامي من اللسان ونسبة ارتفاعه أو انخفاضه في منطقة الغار، أو ما يُسمى بالحنك الصلب، وقد ذهب سيبويه إلى أن "الألف قد تشبه الياء، فأرادوا ان يقربوها منها"[1]. ولعل هذا الشبه، الذي نص عليه شيخنا، شبه فرضه السياق النطقي، الذي وقعت فيه الألف مجاورة لياء أو كسرة، مما أدَّى إلى تأثر الألف بالياء أو الكسرة، وتحويلها إلى حركة وسيطة يرتفع، في أثناء النطق بها، مقدم اللسان تجاه الغار، ولكن بنسبة أقل من ارتفاعه مع الكسرة الخالصة، وبنسبة أكبر من ارتفاعه مع الفتحة الخالصة.

وعلى هذا، فإن هذه الألف، التي نص عليها سيبويه، وعدَّها من الحروف المستحسنة، ما هي إلا تنوع صوتي (ألوفوني) للوحدة الصوتية (الفونيمية) المسماة ألفاً، أو فتحة طويلة كما تسمى.

٤- الشين التي كالجيم:

ويقصد بهذا الصوت، الذي عده سيبويه حرفاً مستحسناً، صوت الشين المهموس، الذي يمكن أن يقع، في بعض السياقات النطقية، ساكناً، ومتلواً بصوت مجهور. ومن شأن هذا أن يؤدي إلى تأثر

(١) الكتاب. ٤/ ١١٧

صوت الشين بالصوت المجهور التالي له مباشرة، تأثراً رجعياً Regressive، فيطرأ عليه –بناء على ذلك– نوع من التجهير Voicednessفيجعله صوتاً قريباً –في نطقه– من الجيم الشامية المعطشة.

والهدف من ذلك هو إحداث نوع من المماثلة بين الأصوات المتجاورة، لأن "الفرار من المتنافيين مستحسن، والفرار من المثلين مستهجن"[1].

ويقدم سيبويه واللغويون، الذين جاءوا بعده وتأثروا به، لهذه الظاهرة مثالاً بالفعل "أشدق" الذي يصبح في نطقهم، أو في نطق بعضهم، كأنه "أجدق". ويقدم ابن يعيش تعليلاً صوتياً موفقاً لهذه الظاهرة بقوله: "لأن الدال حرف مجهور شديد، والجيم مجهور شديد، والشين مهموس رخو فهي ضد الدال بالهمس والرخاوة، فقربوها من لفظ الجيم لأن الجيم قريبة من مخرجها موافقة الدال في الشدة والجهر"[2].

ويقدم الرضي تفسيراً قريباً من هذا عندما ذهب إلى أن سيبويه قد "استحسن الشين المشربة صوت الجيم، لأنه إنما يفعل ذلك بها إذا كانت الشين ساكنة قبل الدال، والدال مجهورة شديدة والشين مهموسة رخوة

---

(١) الرضي: شرح شافية ابن الحاجب. ٣/ ٢٥٦.

(٢) ابن يعيش: شرح المفصل. ١٠/ ١٢٧.

تنافي جوهر الدال، ولا سيما إذا كانت ساكنة، لأن الحركة تخرج الحرف عن جوهره فتشرب الشين صوت الجيم، التي هي مجهورة شديدة كالدال لتناسب الصوت، فلا جرم استحسن"(١).

والواقع أن صوت الشين، الذي يشبه صوت الجيم، والذي صنّفه سيبويه -ومن جاء بعده من اللغويين- ضمن الحروف المستحسنة، هو صورة صوتية سياقية متفرعة عن الوحدة الصوتية الأصلية وهي فونيم (الشين) بسبب الموقع السياقي النطقي الذي وقعت فيه. وهذا يعني، كما يمكن أن يفهم من كلام شارح الشافية آنف الذكر، أن وقوع صوت الشين في كلمة " أَشدق " متسماً بملامح وصفات ضعف تتمثل بالهمس، والاحتكاك ، والوقوع ساكناً في نهاية مقطع، قبل صوت الدال المتسم بصفات قوة تتمثل بالجهر، والانفجار، والوقوع متحركاً في بداية مقطع، كان السبب في إحداث تأثير رجعي Regressive أدى إلى طروء الجهر ، أو ، بعبارة أدق ، التجهير على صوت الشين ، ومن المعلوم أن المقابل المجهور لصوت الشين هو صوت الجيم الشامية ، أو الجيم المعطشة كما تُسمَّى.

وفي رأينا أن الموقعية الخاصة، التي ذكرها أولئك اللغويون لهذا الصوت، ليست هي الوحيدة التي من شأنها إحداث هذه الظاهرة. فهذا

(١) الرضي: شرح شافية ابن الحاجب. ٣/ ٢٥٥-٢٥٦.

الصوت؛ أي الشين، يتعرض إلى التجهير -أيضاً- في نطقنا، أو في النطق المعاصر لمعظمنا على الأقل، إذا وقع ساكنا قبل صوتي الغين والجيم المجهورين أيضاً، وذلك في مثل نطقنا للكلمات التالية: أشغال ومشغول، وأشجار التي تصبح كأنها: أجْغال، ومجْغول، وأجَّار، على التوالي.

٥- الصاد التي تكون كالزاي:

يقصد بالصاد، التي تكون كالزاي، تلك الصاد التي قد تتعرض، في بعض السياقات النطقية، إلى التجهير، بسبب مجاورتها لأحد الأصوات المجهورة. ولقد نص ابن جني على أن هذه الصاد "المجهَّرة" "يقل -بسبب مجاورتها لصوت مجهور- همسها قليلاً، ويحدث فيها ضرب من الجهر لمضارعتها الزاي" [١]. ومن الأمثلة، التي قدمها سيبويه واللغويون على ذلك، كلمات مثل: مصْدر، وأصْدر، ويصْدر وتصْدر، وأصْدق، ويصْدق... وغيرها. ويلاحظ على هذه الكلمات، التي مثّلوا بها لهذه الظاهرة، أنها تشتمل على الصاد الساكنة المهموسة مجاورة الدال المتحركة المجهورة. ولقد جعل سيبويه سكون الصاد المتلوة بالدال شرطاً لتجهيرها[٢]. وقد نص ابن جني على ذلك صراحة عندما قال: "فإن

(١) ابن جني: سر صناعة الاعراب. ١/ ٥٠.

(٢) الكتاب. ٢/ ٤٧٧-٤٧٨.

تحركت الصاد لم يجز فيها البدل وذلك نحو: صَدَرَ، وصَدَفَ، لا تقول فيه: زَدَرَ، ولا زَدف، وذلك أن الحركة قوَّت الحرف وحصَّنته فأبعدته من الانقلاب، بل يجوز فيها إذا تحركت اشمامها رائحة الزاي، فأمَّا أن تُخلص وهي متحركة زاياً كما تخلص وهي ساكنة، فلا. وإنما تقلب الصاد زاياً أو تشم رائحتها إذا وقعت قبل الدال، فإن وقعت قبل غيرها لم يجز ذلك فيها"[1].

ولقد أورد بعض اللغويين أمثلة لهذه الظاهرة دون أن يتحقق فيها هذان الشرطان، وذلك مثل قولهم الصراط المستقيم بإشمام الصاد الزاي[2]، وقولهم الصقر بالزاي، " قال الأصمعي: اختلف رجلان في الصقر؛ فقال أحدهما: بالصاد، وقال الآخر: بالسين؛ فتراضيا بأَوَّلِ واردٍ عليهما ، فحكيا له ما هما فيه؛ فقال: لا أقول كما قلتما ، إنما هو الزَّقرْ" [3] .

وتجدر الإشارة إلى أن هذه الصاد، التي تتعرض في بعض السياقات النطقية، إلى التجهير والقلب إلى صوت كالزاي، لم تفقد خاصة التفخيم أو الاطباق التي تتسم بها وتميزها. ولهذا فإن الصورة الصوتية للصاد هنا ليست زاياً خالصة، وإنما هي زاي مطبقة، قريبة الشبه من نطق

---

(١) ابن جني: سر صناعة الإعراب. ١/ ٥١.

(٢) ابن يعيش: شرح المفصل. ١/ ١٢٧.

(٣) السيوطي: المزهر. ١/ ٢٦٣.

صوت الظاء في مثل كلمة "ظالم"، في معظم العاميات العربية. ولقد نص سيبويه على ذلك بقوله:" ولم يبدلوها –أي الصاد– زاياً خالصة كراهية الاجحاف بها للاطباق"[1].

وعلى أي حال، فإنَّ هذا الصوت، الذي يتحدث عنه سيبويه هنا، هو عبارة عن تنوع صوتي (ألوفوني) للوحدة الصوتية الأساسية (الفونيمية) الصاد، وليس تنوعاً صوتياً أو فرعاً للزاي كما ذكر السيوطي[2] .

٦– ألف التفخيم:

يراد بها الألف التي ينحو بها الناطق نحو الواو، أو تلك الألف التي تجدها –كما قال ابن جني– بين الألف وبين الواو[3]، على عكس الألف الممالة التي ينحو بها الناطق نحو الياء، أو توجد بين الألف والياء. ويصحب نطق هذه الألف استدارة الشفتين قليلاً مع اتساع الفم نتيجة لحركة الفك الأسفل ويرتفع مؤخر اللسان قليلاً، فيصير الفم في مجموعه

(١) الكتاب. ٤/ ٤٧٨.

(٢) السيوطي: همع الهوامع. ٢/ ٢٢٩.

(٣) ابن جني: سر صناعة الإعراب. ١/ ٥٠، وكذلك:

ابن يعيش: شرح المفصل. ١٠/ ١٢٧.

حجرة رنين صالحة لإنتاج القيمة الصوتية التي نسميها التفخيم على لغة أهل الحجاز[1] .

ويبدو لنا، من الأمثلة، التي قدمها سيبويه لهذا الصوت، مثل: الصلاة، والزكاة، والحياة، أن هذه الظاهرة الصوتية، التي كانت خاصة بالناطقين من أَهل الحجاز، على حدَّ قوله، لم تكن مرتبطة بسياقات نطقية تتطلب تفخيماً، ولهذا فقد حرَص الكُتَّاب في الماضي، وخاصة كُتَّاب القرآن الكريم، على إظهار خاصة التفخيم بهذه الألف بوساطة رسمها واواً للإيحاء بخصيصة الاطباق فيها.

ونود الإشارة إلى أننا لا نستطيع عدَّ هذا الصوت، الذي اعتبره سيبويه خاصاً بلهجة من اللهجات العربية، وهي لهجة أهل الحجاز، تنوعاً صوتياً ألوفونياً للوحدة الصوتية الأصلية وهي الألف، وإنما هو تنوع ديافوني لهجي Diaphone لتلك الوحدة الصوتية؛ أي الألف.

ثالثاً- الحروف العربية الفروع غير المستحسنة:

أضاف سيبويه إلى الأحرف الستة الفرعية السابقة، سبعة أحرف أخرى متفرعة من بعض تلك الحروف العربية الأصول، غير أن هذه الأحرف الفرعية تختلف -في نظر هذا العالم- عن سابقتها في كونها "غير

(١) د. تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها. ص: ٥٣.

مستحسنة، ولا كثيرة في لغة من ترتضى عربيته، ولا تستحسن في قراءة القرآن ولا في الشعر"[١]. وهذه الأحرف هي:

١. الكاف التي بين الجيم والكاف ، والجيم التي كالكاف:

لم يشرح سيبويه المقصود بصوت الكاف التي بين الجيم والكاف، وصوت الجيم التي كالكاف، كما أنه لم يمثل لهما أيضاً. ويبدو أن كلا الصوتين يدل في النهاية على صوت واحد، وإن كان الخط التطوري، الذي سلكه كل واحد منهما، يختلف عن الخط التطوري الذي سلكه الآخر.

فسيبويه – من ناحية- جعل الحروف العربية الخمسة والثلاثين اثنين وأربعين حرفاً، وذلك بإضافة أحرف وصفها بأنها غير مستحسنة، وعدد هذه الأحرف المضافة لا يمكن أن يكون إلا سبعة أحرف حتى يكتمل بها عدد الحروف الخمسة والثلاثين اثنين وأربعين.

ومن ناحية أخرى، فإن وصفه للكاف، التي بين الجيم والكاف، والجيم التي كالكاف، يدل -فيما نرى- على وصف واحد، فصوت الكاف الطبقي الانفجاري المهموس، يتخذ، عندما يتقدم مخرجه إلى الأمام، حيث مخرج الجيم الغاري، صفة الجيم، وهي الصفة المركبة من

(١) الكتاب. ٤/ ٤٣٢.

الدال الانفجارية، والجيم المعطشة، مع احتفاظه ببعض خصائصه، ولا سيما خاصة الهمس. فإذا نطقت الكاف على هيئة الجيم، واحتفظت – بالإضافة إلى خاصة التركيب– بخاصتها المهموسة، فإنها من الممكن أن تتحول إلى صوت مركب مهموس Affricate يصفه اللغويون بالكشكشة، وهو صوت شبيه بالصوت الإنجليزي (Ch) في كلمة مثل Chair بمعنى كرسي.

أما الصوت الذي وصفه سيبويه بأنه (جيم كالكاف)، فهو – فيما يبدو– صوت الجيم، وقد تعرض للتهميس Voicelessness وفقدان صفة الجهر، مع احتفاظه بخاصة التركيب، عندئذ فإنه يتحول أيضاً إلى صوت مركب مهموس هو صوت الكشكشة الشبيه بالصوت الإنجليزي السابق (Ch).

وعلى هذا، فإن هذين الصوتين هما، في النهاية، صورة صوتية واحدة أو متقاربة لأصلين صوتيين مختلفين؛ أولهما: كاف تحولت إلى صورة صوتية بين الجيم والكاف، وثانيهما: جيم تحولت إلى صورة صوتية تشبه الكاف. ويبدو أن القدماء –أو بعضهم على الأقل– قد لمحوا هذا الذي نعتقده، غير أنهم لم يولوا ذلك مزيداً من الجلاء والتوضيح. فابن يعيش –على سبيل المثال– يذيِّلُ حديثه عن هذين الصوتين، بقوله:" ...

وهما جميعاً شيء واحد، إلا أن أصل أحدهما الجيم، وأصل الأخرى الكاف، ثم يقلبونهما إلى هذا الحرف الذي بينهما"[1].

وربما كان ابن عصفور يوحي بذلك عندما استهل حديثه عن الصوت الثاني –وهو الجيم التي كالكاف– بقوله: "وهي بمنزلة ذلك"[2]. فكأن اسم الإشارة "ذلك" يشير إلى الصوت الأول –وهو الكاف التي كالجيم– فيكون المعنى، بناء على ذلك، على النحو الآتي : إن هذين الصوتين الناتجين بمنزلة واحدة، ولكن بعض اللغويين القدامى والمحدثين[3] عدوا هذين الصوتين منفصلين وعدوا كلَّ واحد منهما دالاًّ على صوت مستقل، فجعلوا –بذلك– عدد الحروف العربية ثلاثة وأربعين حرفاً، وليس اثنين وأربعين حرفا، كما نص سيبويه، فقد ذهب السيوطي، وابن عصفور وغيرهما، إلى أن الصوت الأول –هو الكاف

---

(١) ابن يعيش: شرح المفصل. ١٠/ ١٢٧.

(٢) ابن عصفور: الممتع في التصريف. ٢/ ٦٦٦.

(٣) د. تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها. ص:٥١-٥٦. وينظر كذلك:

ابن جني: سر صناعة الإعراب ١/ ٤٦.

ابن يعيش: شرح المفصل. ١٠/ ١٢٧.

التي بين الجيم والكاف- يعد- كما يروى عن ابن دريد- لغة في اليمن يقولون في " كمل "، " جمل "[1].

ولكن ابن يعيش ينقل الرواية عن ابن دريد على نحو آخر، فهو يقول: "فأما الكاف التي بين الجيم والكاف" فقال ابن دريد هي لغة في اليمن يقولون في جمل كمل، وفي رجل ركل.

أما الصوت الثاني – وهو الجيم التي كالكاف- فيمثل له السيوطي، وابن عصفور بكلمة "رجل" التي تتحول إلى "ركل"[2].

ولكن لماذا اعتبر سيبويه هذا الصوت غير مستحسن في قراءة القرآن ولا في الشعر؟ والجواب عن ذلك يكمن –فيما نعتقد- في كون هذا الصوت لا يمثل تنوعاً صوتياً سياقياً عاماً في نطق أبناء العربية، وإنما هو نطق محلي عامي، أو نطق لهجي، أو نطق فردي ناجم عن عيب عضوي لم يبلغ مرحلة النطق العام عند الناطقين بالعربية، ويعزز هذا ما أومأ إليه سيبويه نفسه من أن هذا الحرف –ومعه بقية الأحرف الأخرى غير المستحسنة- غير كثير في لغة من ترتضى عربيته. فقوله هذا يعني –في رأينا- ما ذهبنا إليه قبل قليل – أن نطق هذا الصوت لم يبلغ مرحلة

---

(١) السيوطي: همع الهوامع. ٢/ ٢٢٩. وكذلك:
ابن عصفور: الممتع في التصريف. ٢/ ٦٦٥

(٢) ابن يعيش: شرح المفصل. ١٠/ ١٢٧

الشمول والعموم السياقي الذي تتخذه التنوعات الصوتية، أو الصور الصوتية للوحدة الصوتية الأساسية. ولعلنا نلتمس الدليل، على رأينا هذا، فيما أشار إليه بعض القدماء أيضاً من أن هذا الصوت كان شائعاً في نطق عوام بغداد، وأنه شبيه باللثغة[1].

٢. الجيم التي كالشين:

قدم سيبويه لهذا الصوت مثالاً بكلمة "أجدر" التي تصبح في نطق بعضهم "أشدر"[2]. ولكن اللغويين، الذين جاءوا بعده، قدموا له بعض الأمثلة المشفوعة ببعض التعليلات الصوتية، ومن هذه الأمثلة التي قدموها قولهم في "اجتمعوا"، و"اجترّ"، و"الأجدر"، "اشتمعوا" و"اشترَّ" و"الأشدر"، حيث كانوا ينطقون الجيم، في هذه الأمثلة، - وأشباهها- شيناً أو صوتاً قريباً من الشين. وكانوا يمزجون، في أثناء نقاشهم وتعليلهم، بين هذا الصوت، الذي عده شيخهم – وعدوه معه أيضاً- مستهجناً، وصوت الشين التي كالجيم الذي عده جميعهم مستحسناً.

(١) ابن عصفور: الممتع في التصريف. ٢/ ٦٦٥، وكذلك:
ابن يعيش: شرح المفصل. ١٠/ ١٢٧.

(٢) الكتاب. ٤/ ٤٧٩.

وقد علل القدماء استهجان سيبويه، واستهجانهم أيضاً، لهذا الصوت في أنه لا يوجد بين صوت الجيم والصوت التالي له، وهو – في هذه الأمثلة– التاء، والدال، تباين يوجب قلب الجيم إلى شين، فكلا الصوتين المتجاورين شديد، وعلى هذا فإن "الفرار من المثلين مستهجن"[1]. كما عللوا قلب الشين إلى جيم –في مجموعة الحروف السابقة– بسبب وجود تباين بين صوت الشين والصوت التالي له –وهو صوت الدال في الأمثلة التي قدموها– في الرخاوة والشدة، والهمس والجهر، "فقربوها –أي الشين– من لفظ الجيم، لأن الجيم قريبة من مخرجها موافقة الدال في الشدة والجهر"[2]. وكانوا يستندون، في تعليلهم لذلك، من منطلق أن "الفرار من المتنافيين مستحسن"[3].

وفي رأينا أن السبب الذي أدى إلى تحويل صوت الجيم إلى صوت الشين، أو إلى صوت قريب منه، في الأمثلة التي قدمها علماؤنا المتقدمون، يعود إلى سببين:

---

(١) الرضي: شرح الشافية. ٣/ ٢٥٦.

(٢) ابن يعيش: شرح المفصل. ١٠/ ١٢٧

(٣) الرضي: شرح الشافية. ٣/ ٢٥٦.

أولهما : قانون المماثلة Assimilation : الذي يقضي بإحداث نوع من التوافق والإنسجام بين الأصوات المتنافرة في المخارج أو في الصفات. ففي الأفعال: اجتمع، واجتهد، واجتر... وغيرها، التقى صوت الجيم المجهور الشديد (حسب التصنيف القديم) الذي ضعف بموقعه ساكناً في نهاية مقطع مع صوت التاء المهموس الاحتكاكي الذي قوي بموقعه متحصناً بالحركة في بداية مقطع، مما أدى إلى تأثر الصوت الأول – وهو صوت الجيم – بالصوت الثاني – وهو صوت التاء – تأثرا رجعياً، فطرأ عليه –بسبب هذا التأثر– التهميس وانقلب إلى مقابله المهموس الاحتكاكي وهو صوت الشين، فأصبحت تلك الكلمات تنطق هكذا: اشتمع، اشتهد، اشترَّ.

وثانيهما: قانون المخالفة Dissimilation : الذي يسير في اتجاه معاكس للقانون السابق، ويقضي هذا القانون "بتعديل الصوت الموجود في سلسلة الكلام بتأثير صوت مجاور ولكنه تعديل عكسي يؤدي إلى زيادة مدى الخلاف بين الصوتين المتجاورين"(١).

ففي المثال الذي قدمه سيبويه، واللغويون العرب في هذا المجال، وهو الكلمة (الأجدر)، نجد أن صوت الجيم المجهور الشديد (حسب التصنيف القديم) قد تجاور مع صوت الدال المجهور الشديد أيضاً،

(1) Brosnahan, and Malmberg, Introduction to Phonetics. P:134

ولكن طرأ تعديل على نطق الصوت الأول –وهو صوت الجيم– بسبب إحداث نوع من المخالفة الصوتية بين الصوتين المتجاورين، فانقلب صوت الجيم إلى مقابله المهموس الاحتكاكي، وهو صوت الشين، فأصبحت الكلمة تنطق –كما وصف القدماء– الأشدر.

ولكن لماذا أدرج سيبويه الجيم التي كالشين ضمن الأصوات غير المستحسنة، في حين وجدناه يدرج الشين، التي كالجيم، ضمن الأصوات المستحسنة، مع أن كلا الصوتين يخضع، في تطوره وتحوله إلى الصوت المقابل له، لظروف صوتية واحدة أو متقاربة؟ وللإجابة عن هذا، فإننا نجد أنفسنا أمام أمرين:

أولهما: أن قلب الجيم في مثل: اجتمعوا، واجتهد، واجتر، وغيرها، إلى شين، أو إلى صوت قريب من الشين، أمر يسوغه السياق النطقي الذي يقضي بوجود تأثير متبادل بين الأصوات المتجاورة غير المتجانسة، أو المتماثلة في المخرج أو الصفة. فصوت الجيم المجهور "الشديد" وقع في السياق النطقي –في هذه الأمثلة– ساكناً قبل صوت مهموس احتكاكي هو صوت التاء. ومن شأن هذا ألا يحقق الانسجام النطقي المطلوب بين الأصوات المتجاورة، مما يؤدي إلى إحساس الناطق بمشقة نطقية تدفعه –لا شعورياً– إلى تبديل صوت بآخر، أو إلى إحداث

نوع من التغيير في بعض صفات الصوت، وذلك من أجل توفير قدر أكبر من الانسجام في أصوات الكلام، ولجعلها أسهل في النطق.

وعلى هذا، فإن الوحدة الصوتية التي أصابها التغيير في تلك الأمثلة، وهي "الجيم"، قد تعرضت في السياق النطقي إلى شيء من التهميس، حوَّلها إلى المقابل المهموس لها، وهو صوت الشين، وهذا الصوت الجديد الناتج ما هو في الواقع إلا صورة صوتية، أو تنوع صوتي ألوفوني، فرضه السياق على تلك الوحدة الصوتية الأساسية. ومن هذا المنطلق، فإننا لا نكاد نحس بأن هذه الصورة الصوتية السياقية الناتجة تختلف، في حقيقة وجودها، وظروف نشأتها، عن صوت "الشين التي كالجيم"، الذي عَدَّه سيبويه صوتاً مستحسناً. فكلاهما تنوع صوتي، لوحدة صوتية أساسية، فرضه السياق والتجاور بين الأصوات.

وثانيهما: أن قلب الجيم في مثل (الأجدر) إلى صوت الشين، أمر لا يسوغه السياق النطقي. ذلك أننا –في المثال الذي قدمه علماؤنا– أمام صوتين متجاورين متماثلين إلى حد كبير، فكلاهما صوت مجهور شديد. وهذا يعني، أن بين هذين الصوتين المتجاورين قدراً من التجانس الصوتي بحيث يسمح بالنطق دونما تعسر أو تعقيد، ولهذا فإن قلب الجيم إلى شين من شأنه –في هذا المثال وأشباهه– أن يؤدي إلى إحداث تخالف

صوتي بين الأصوات المتجاورة. وقد نصَّ علماؤنا القدامى على أن "الفرار من المثلين مستهجن"(١).

لذلك فإننا نعد هذا الصوت، من خلال هذا المثال، وما كان على شاكلته، صوتا -كما وصفه سيبويه، ومن جاء بعده من اللغويين والمريدين- غير مستحسن.

٣. الضاد الضعيفة:

لم يقدم سيبويه لهذا الصوت تمثيلاً، وإنما قدم له وصفاً بيَّن فيه معنى الضعف الذي يعتوره، والمتمثل في أنه يُتكلف من الجانب الأيمن، أو الجانب الأيسر، وأن ملمح الاطباق فيه قد أزيل عن موضعه، وأنه من حافة اللسان لا من أول حافته، كما هو الحال مع الضاد الفصيحة القديمة، ويبدو أن هذه العوامل معاً، هي التي دفعت هذا العالم إلى تصنيف هذا الصوت ضمن قائمة الأصوات غير المستحسنة.

غير أن وصف سيبويه لهذا الصوت بالضعف، يوحي بأنه المقابل غير المستحسن لصوت الضاد (القوي) المستحسن. فما هي الضاد القوية إذن؟ وما الذي يمكن أن يطرأ على نطقها حتى تستحيل إلى ضاد ضعيفة غير مستحسنة؟

---

(١) الرضي: شرح الشافية. ٣/ ٢٥٦.

وصف سيبويه مخرج الضاد بقوله: إنه "من بين أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس"(١)، ثم وصف طريقة نطقها، في أثناء حديثه عن الأصوات المطبقة أو المخففة، فقال: "إذا وضعت لسانك في مواضعهن انطبق لسانك من مواضعهن إلى ما حاذى الحنك الأعلى من اللسان ترفعه إلى الحنك، فإذا وضعت لسانك، فالصوت محصور فيما بين اللسان والحنك إلى موضع الحروف"(٢).

وهذا يعني أن النطق بهذا الصوت، يتمُّ عندما يحتك تيار الهواء الصادر من الرئتين، عبر القصبة الهوائية، وتجاويف الحنجرة والحلق، والفم، بجانب اللسان والأضراس المقابلة لهذا الجانب، فهو -بالإضافة إلى خاصة الاطباق فيه- صوت احتكاكي مثله في ذلك مثل الثاء، ومن هنا وجدنا بعض العرب حين ينطقون كلمة تشتمل على صوت الثاء، متلواً بصوت مفخم مجهور يحدث في نطق الثاء شيء من عدوى التفخيم والجهر الضعيفة، فتصير الثاء بذلك ضاداً ضعيفة، وقد مثل لها ابن عصفور بقولهم في " اثْرُدْ لَهُ" اضْرُدْ لَهُ"(٣).

---

(١) الكتاب. ٤/ ٤٣٣.

(٢) السابق. ٤/ ٤٣٦.

(٣) ابن عصفور: الممتع في التصريف. ٢/ ٦٦٦. وكذلك:

د. تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها. ص: ٥٥.

أما الضاد الضعيفة، فيبدو أنها كانت صوتاً قريب الشبه بصوت الظاء، وكان الناطقون بها "يخرجونها من طرف اللسان وأطراف الثنايا، وربما راموا إخراجها من مخرجها فلم يتأت لهم فخرجت بين الضاد والظاء"[١]. أو أن أولئك الناطقين بها كانوا -كما روى السيوطي عن أبي علي- لا يشبعون مخرجها، ولا يعتمدون عليه، وإنما تخفف وتختلس فيضعف إطباقها[٢]. وقد وردت - في كتب اللغة والأدب- بعض الروايات التي تتحدث عن الخلط الذي كان يحدثه بعض الناس في أثناء نطقهم لبعض الكلمات المشتملة على ضاد وظاء، فقد روى أبو علي القالي أن رجلا " قال لعمر بن الخطاب، رضي الله تعالى عنه: يا أمير المؤمنين، أيضحّى بضبي؟ قال: وما عليك لو قلت بظبي ! قال إنها لغة، قال: انقطع العتاب ولا يضحى بشي من الوحش"[٣]. وأورد الجاحظ لهذه الظاهرة قصة طريفة قال فيها:" وزعم يزيد مولى ابن عون، قال: كان رجل بالبصرة له جارية تسمى ظمياء، فكان إذا دعاها، قال: يا ضمياء،

---

(١) ابن يعيش: شرح المفصل. ١٠/ ١٢٧- ١٢٨.

(٢) السيوطي: همع الهوامع. ٢/ ٢٣٠

(٣) القالي: ذيل الأمالي والنوادر. ٢/ ١٤٢

بالضاد، فقال ابن المقفع: قل: يا ظمياء ... فناداها: يا ضمياء. فلما غيَّر عليه ابن المقفع، مرتين أو ثلاثاً، قال له: هي جاريتي أو جاريتك؟!"[١].

وقد سجل السيوطي أمثلة كثيرة لظاهرة الخلط بين هذين الصوتين يمكن الرجوع إليها[٢].

وعلى هذا فإن النطق بهذا الصوت ناجم -فيما نظن- عن حالات نطق فردية أو بيئية فيها تكلف يؤدي إلى ضعف النطق بها[٣]، بحيث يخالف المألوف في نطق الضاد الفصيحة. ويبدو لنا أن هذه المخالفة ليست سياقية أو موقعية، وإنما هي مخالفة ناتجة عن "لغة قوم ليس في لغتهم ضاد"[٤]، أو هي -على حد قول ابن عصفور- " في لغة قوم ليس في أصل حروفهم الضاد "[٥]، أو هي لغة بعض القبائل العربية كما ذكر السيوطي[٦]. ولهذا فقد عدَّ سيبويه هذا الصوت غير مستحسن في قراءة القرآن ولا في الشعر.

---

(١) الجاحظ: البيان والتبيين. ٢/ ٢١١.

(٢) المزهر. ٢/ ٥٦١-٥٦٣

(٣) ابن عصفور: الممتع في التصريف. ٢/ ٦٦٦.

(٤) الرضي: شرح الشافية. ٣/ ٢٥٦.

(٥) ابن عصفور: الممتع في التصريف. ٢/ ٦٦٦.

(٦) السيوطي:المزهر ٢/ ٥٦١-٥٦٣.

٤. الصاد التي كالسين:

لم يمثل سيبويه لهذا الصوت أيضاً، وإن كان بوسعنا أن نتصور كيف كان ينطق. فصوت السين هو المقابل المستفل، أو المرقق لصوت الصاد، وباستثناء هذا الخلاف بين الصوتين، نجد أن هذين الصوتين يشتركان في الملامح الأخرى المميزة لهما وهي ملامح المخرج، والاحتكاك، والهمس، والصفير.

وقد مثل بعض اللغويين لهذا الصوت بكلمة "صبغ" التي تصبح "سبغ"، وكلمة "صابر" التي تصبح "سابر"، وكلمة "صائر" التي تصبح "سابر"(١). ويبدو أن النطق بهذا الصوت، كان خصيصة نطقية، لغير العرب ممن تخلو لغتهم الأصلية من الأصوات المفخمة، أو لعله كان ناشئا عن نطق بعض الطبقات الاجتماعية العربية التي اتسمت حياة أبنائها –ولا سيما النساء– بالدَّعة والرفاهية، كما هو الحال في كثير من المجتمعات العربية المعاصرة. ولعل هذا النمط من النطق بهذا

---

(١) ابن يعيش: شرح المفصل. ١٠/ ١٢٨. وكذلك:

السيوطي: همع الهوامع. ٢/ ٢٣٠.

ابن عصفور: الممتع في التصريف. ٢/ ٦٦٦.

الصوت، وما كان على شاكلته، يقترب، أو يتفق، مع ما يُطلق عليه الدرسُ الصوتي الحديث مصطلح " ڤـاريفون " Variphone [(١)].

وربما عد سيبويه النطق بهذا الصوت غير مستحسن "لأن الصاد أصفى في السمع من السين، وأصفر في الفم"[(٢)].

٥. الطاء التي كالتاء:

لم يمثل سيبويه لهذا الصوت أيضاً. ونحن نعتقد أن المقصود به، هو صوت ينطق بين الطاء والتاء، أو هو صوت الطاء (القديم) وقد تعرض لفقدان ملمح الجهر"[(٣)]، أو لفقدان ملمحي الجهر والتفخيم معاً، فأصبح ينطق تاء.

وقد مثل بعض اللغويين لهذا الصوت بكلمة "طالب" التي تصبح "تالب"، وكلمة "طال" التي تصبح "تال"[(٤)]. ونصّوا على أن هذا

---

(١) د. أحمد مختار عمر : دراسة الصوت الصوتي ، ص: ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٩٣.

(٢) ابن يعيش: شرح المفصل ١٠/ ١٢٨.

(٣) عد القدماء صوت الطاء صوتاً مجهوراً، خلافاً للتصنيف الصوتي الحديث الذي يعدُّ هذا الصوت مهموساً.

(٤) السيوطي: همع الهوامع. ٢/ ٢٣٠، وكذلك:

- ابن يعيش: شرح المفصل. ١٠/ ١٢٧.
- ابن عصفور: الممتع في التصريف. ٢/ ٦٦٦.

الصوت كان يسمع كثيراً في نطق عجم أهل المشرق "لأن الطاء في أصل لغتهم معدومة، فإذا نطقوا بها تكلَّفوا ما ليس في لغتهم" [1].

ويبدو لنا أن هذا هو السبب الذي دفع سيبويه إلى عد هذا الصوت ضمن مجموعة الأصوات غير المستحسنة؛ فهو لا يمثل تنوعاً صوتياً، متفرعاً عن وحدة صوتية، أدى إلى وجوده السياق النطقي. وإنما هو – كما وضَّح أولئك اللغويون- انحراف نطقي ناشيء عن عدم الألفة لنطق أصوات التفخيم العربية.

ويلجأ بعض الناطقين العرب، وخاصة الفتيات من أبناء الطبقات الاجتماعية المترفة –في عصرنا الحاضر- إلى إزالة صفة التفخيم في أثناء نطقهم لصوت الطاء، حيث نسمع هذا الصوت على ألسنتهم كأنه صوت التاء، أو هو صوت التاء عينه. ولا شك في أن هذا النطق – كما وصفه سيبويه- غير مستحسن، ومجافياً لمعايير الفصاحة.

٦. الظاء التي كالثاء:

لم يمثل سيبويه في كتابه لهذا الصوت أيضاً. ومن المعلوم أن صوتي الظاء والثاء يتوحدان في ملمح المخرج، وهو المخرج الأسناني،

(١) الرضي: شرح الشافية. ٣/ ٢٥٦.

غير أنهما يختلفان في ملمحي الجهر والتفخيم الخاصين بالظاء، والهمس والترقيق الخاصين بالثاء.

ولكن ما حقيقة هذا الصوت، الذي وصفه سيبويه بأنه ظاء كالثاء وعدَّه – مع غيره من الأصوات– غير مستحسن؟

لقد نص سيبويه على أن هذا الصوت شبيه بالثاء. فهل هذا يعني أن صوت الظاء قد تعرض للتهميس فقط، فانقلب إلى مقابله المهموس، وهو صوت الثاء، أو صوت قريب منه. وعلى فرض حدوث هذا، فهل حافظت الثاء على خاصة التفخيم التي للظاء، وإذا حدث هذا –على الرغم من صعوبة تصوره– فما هو صوت الثاء المفخم؟ وكيف ينطق؟

إنَّ المقابل المفخم لصوت الذال هو صوت الظاء، ولو أن شيخنا وصف هذا الصوت بأنه ظاء كالذال، لكان تصورنا للأمر شبيهاً بتصورنا للصوتين السابقين، حيث يتلخص الأمر بانقلاب صوت الظاء المجهور المفخم إلى مقابله صوت الذال المجهور المرقق. ولكن سيبويه وصف لنا هذا الصوت بأنه ظاء كالثاء. فهل هذا يشير إلى أن سيبويه يريد أن يقول بأن الظاء هنا قد تعرضت لفقدان ملمحي الجهر والتفخيم في آن واحد ، فانقلبت إلى هذا الصوت، الذي تحدث لنا عنه، والذي مثَّل له اللغويون بكلمة "ظلم"، التي تصبح "ثلم"، وكلمة "ظالم" التي تصبح "ثالم".

لعله كان يقصد ذلك فجاء هذا الصوت على هذه الصورة المشوهة التي لا تليق إلا بمرضى النطق"[١].

٧. <u>الباء التي كالفاء:</u>

يبدو أن هذا الصوت –الذي أورده سيبويه ضمن مجموعة الأصوات غير المستحسنة– هو صوت الباء العربية، وقد أصابه شيء من الهمس فأَصبح يُنطق على نحو قريب من صوت الباء الفارسية، الذي يكتب بثلاث نقط من أَسفل (پ) تمييزاً له من صوت الباء العربية الذي يكتب بنقطة واحدة من أسفل هكذا (ب).

وقد وضَّح ابن دريد المقصود بهذا الصوت عندما قال في مقدمة جمهرته: "الحرف الذي بين (الباء والفاء) مثل: (پــور)، إذا اضطروا إليه قالوا (فور)"[٢]. والمعروف أن العرب كانوا يعرِّبون هذه الباء بقلبها فاء، ومن ثمَّ أصبحت كلمة "برزده" عند تعريبها "فرزدق" وكلمة "بالوزه" فالوذج[٣].

---

(١) د. عبد الصبور شاهين: في التطور اللغوي. ص: ٢٢٣.

(٢) ابن دريد: جمهرة اللغة، المقدمة.

(٣) د. تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها. ص: ٥٦.

ويبدو لنا أن النطق بهذا الصوت كان خاصاً بالفرس الذين دخلوا الإسلام، ومعهم لغتهم حية منطوقة، أو كان نطقه يجري على ألسنة بعض العرب ممن تأثروا بالفرس حضارة وحياة اجتماعية. ولهذا فقد عدَّ سيبويه هذا الصوت، الذي ليس له نظير في العربية، صوتاً غير مستحسن.

وواضح من كلام هذا العالم أنه قد اعتمد – في وصفه وتصنيفه للأصوات العربية – على تقرير الواقع اللغوي المنطوق المعاصر له. ولهذا فقد جاءت نظراته ومعالجاته اللغوية بعامة، والصوتية بخاصة، مبنية على الدرس الصوتي المتكئ -بدوره-على المباشرة الذاتية والملاحظة الشخصية، حيث كان -كما يفهم من كلامه- يشافه الناطقين باللغة من مختلف المستويات، كما كان يقف منهم -في الوقت نفسه- موقف المتأمل الفاحص، والناقد المصنِّف، مما مكَّنه -فيما نرى- من تصنيف الأصوات العربية إلى ثلاث مجموعات:

أ. المجموعة الأولى: وتتألف من تسعة وعشرين حرفاً. ويرى سيبويه أن حروف هذه المجموعة تمثل "أصل حروف العربية".

ب. المجموعة الثانية: وتتألف من ستة أحرف هي: النون الخفيفة، والهمزة التي بين بين... إلخ. ويرى سيبويه أن أحرف هذه المجموعة تمثل تنوعات صوتية فرعية لبعض الحروف التسعة والعشرين

الأصلية. ويرى -من جهة أخرى- أن هذه الأحرف " كثيرة يؤخذ بها وتستحسن في قراءة القرآن والأشعار "[١].

ت. المجموعة الثالثة: وتتألف من سبعة أحرف هي: "الكاف التي بين الجيم والكاف، والجيم التي كالشين، والضاد الضعيفة، والصاد التي كالسين، والطاء التي كالتاء، والظاء التي كالثاء، والباء التي كالفاء"[٢]. ويرى سيبويه أن أحرف هذه المجموعة تمثل -كسابقتها- تنوعات صوتية فرعية لبعض الحروف التسعة والعشرين الأصلية، غير أنها -من جهة أخرى- أحرف يقول عنها سيبويه- "إنها غير مستحسنة، ولا كثيرة في لغة من ترتضى عربيته، ولا تستحسن في قراءة القرآن ولا في الشعر"[٣].

ويكمن الخلاف بين حروف المجموعتين الأخيرتين -فيما نرجح- في أنَّ أحرف المجموعة الأولى ، التي وصفها سيبويه بأنها " كثيرة يؤخذ بها وتستحسن في قراءة القرآن والأشعار"، عبارة عن تنوعات صوتية، أو صور صوتية سياقية " ألوفونات" لبعض الوحدات الصوتية

---

(١) الكتاب. ٤/ ٤٣٢.

(٢) السابق. ٤/ ٤٣٢

(٣) السابق. ٤/ ٤٣٢

الأصلية "الفونيمية" التسعة والعشرين . فكأن وصفه لها بالكثرة والأخذ بها يعني اطّراد ورودها في أثناء النطق بها في السياق الصوتي المعين الذي ترد فيه، أما قوله بأنها "تستحسن في قراءة القرآن والأشعار" فإنه يضفي عليها صفة الشرعية اللغوية ويبعدها عن الركاكة والاسفاف والنطق الفردي أو اللهجي.

أما أحرف المجموعة الثانية التي وصفها سيبويه بأنها: "حروف غير مستحسنة، ولا كثيرة في لغة من ترتضى عربيته، ولا تستحسن في قراءة القرآن ولا في الشعر"، فهي -في اعتقادنا- طرائق نطقية غير فصيحة ولا صحيحة لبعض الأصوات الأصلية التسعة والعشرين، بسبب بيئي لهجي " ديافونات "، أو اجتماعي، أو فردي "فاريفونات"[1].

---

(١) يقصد "بالديافون" صوت كلامي في لهجة يختلف في لهجة أخرى، ضمن اللغة نفسها، من ناحية صوتية، ويطابقه من ناحية وظيفية مثل /a/ الأمريكية و /o/ البريطانية عند لفظ كلمة "dog". يُنظر:

-معجم علم اللغة النظري، للدكتور محمد علي الخولي. ص: ٧٤.

وعرفه ماريوباي، بأنه عبارة عن تنوعات الفونيم التي ترد في كل منطوقات المتكلمين بأية لغة. أو هو عبارة عن فونيم لهجة ما يقابل فونيم لهجة أخرى، بيد أنهما مختلفان من ناحية "فوناتيكية" صوتية، ومن أمثلة ذلك، الخلاف في نطق الإنجليز والأمريكان، لكل من /o/ في كلمات=

ولعلنا نلتمس الدليل على ذلك من تعقيب معظم اللغويين القدامى على هذه الأصوات؛ فابن يعيش يختتم حديثه عنها بقوله "وكأن الذين تكلموا بهذه الحروف المسترذلة قوم من العرب خالطوا العجم فتكلموا بلغاتهم"(١).

ويبدو أن سيبويه قد انطلق، في تصميمه لهذه المجموعات، التي وزَّع فيها تصوره للحروف العربية، من منطلقين أساسين، هما:

= من مثل" not, lot, pot" و /r/ في كلمة "very": يُنظر:

Pie, M: Glossary of Linguistic Termononlogy. Doubleda, - Anchor. Garden City, New York. 1966, p.65.

Jones, D.: The Phoneme: Its Nature and Use. Heffer. Cambridge. 1967. Pp, 195-196.

أما الـڤـــاريفون- وهو مصطلح اقترحه اللغوي الإنجليزي "دانيال جونز" فيقصد به، تلك الأصوات غير الثابتة، والقابلة للتنوع مستقلة عن سياقها الصوتي". المرجع السابق ص:٢٠٥وما بعدها.فالناطق العادي قد يستعمل الصوت الواحد بتنوعات نطقية مختلفة، دون وعي أو إدراك منه لهذه التنوعات، وقد يعود السبب في ذلك إلى نوعية البيئة الاجتماعية، والنفسية، والإقليمية التي يتفاعل معها المتكلم في لحظة ممارسته للاتصال اللغوي.

(١) ابن يعيش: شرح المفصل. ١٠/ ١٢٨. وكذلك:

- الرضي: شرح الشافية. ٣/ ٢٥٦.
- السيوطي: همع الهوامع. ٢/ ٢٣٠.
- ابن عصفور : الممتع في التصريف ٢/ ٦٦٧.

أ. حروف العربية بوصفها وحدات خطية Graphemes، أو أشكالاً كتابية تعتمد عليها اللغة المكتوبة. ويشمل ذلك حروف المجموعة الأولى التسعة والعشرين، التي نص عليها سيبويه وعدها "أصل حروف العربية"

ب. حروف العربية بوصفها وحدات صوتية Phonemes، لها -في مستوى النطق- صور صوتية متنوعة ألوفونية Allophones، أو: ديافونية Diaphones، أو: فاريفونية Variphones .

وتعد الوحدات الخطية، أو الكتابية، المادة الخام، أو الأصل لكل ما يتفرع عنها من تنوعات صوتية، أو صور فرعية. ويكمن الفرق بين هذين النوعين، من الوحدات اللغوية، في كون الوحدات الصوتية وصورها المختلفة لا تظهر تنوعاتها وحالاتها المختلفة إلا في المستوى النطقي السياقي، أو اللهجي، أو الاجتماعي والفردي. ولقد تمكن سيبويه من أن يلمح هذا، الذي يذهب إليه اللغويون المحدثون، ويقرره بكل بساطة ويسر عندما قال: "هذه الحروف التي تمَّمْتها اثنين وأربعين جيدها ورديئها أصلها التسعة والعشرون، لا تُبَيَّنُ إلاّ بالمشافهة"[1].

---

(١) الكتاب. ٤/ ٤٣٢.

الفصل الثاني

حروف العربية من حيث المخارج

حروف العربية من حيث المخارج

قسم سيبويه مخارج الحروف العربية إلى ستة عشر مخرجاً، وهذه المخارج هي:

١. من أقصى الحلق تنسب له الهمزة، والهاء، والألف.

٢. من أوسط الحلق تنسب له العين، والحاء.

٣. من أدنى الحلق تنسب له الغين، والخاء.

٤. من أقصى اللسان وما فوقه من الحنك الأعلى تنسب له القاف.

٥. من أسفل من موضع القاف من اللسان قليلاً، وما يليه من الحنك الأعلى تنسب له الكاف.

٦. من وسط اللسان بينه وبين وسط الحنك الأعلى تنسب له الجيم والشين، والياء.

٧. من أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس تنسب له الضاد.

٨. من حافة اللسان إلى الطرف وما فوقهما تنسب له اللام[١]

---

(١) لم توضح النسخة التي حققها الأستاذ عبد السلام هارون مخرج اللام، وقد اعتمدنا في التعرف إلى مخرجها، على نسخ أخرى، منها النسخة التي أصدرتها مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت- لبنان، الطبعة الثانية. سنة ١٩٦٧م.

٩. ومن حافة اللسان، من أدناها إلى منتهى طرف اللسان ما بينها وبين ما يليها من الحنك الأعلى وما فويق الثنايا تنسب له النون.

١٠. ومن مخرج النون غير أنه أدخل في ظهر اللسان قليلاً لانحرافه إلى اللام تنسب له الراء.

١١. مما بين طرف اللسان وأصول الثنايا تنسب له الطاء، والدال، والتاء.

١٢. مما بين طرف اللسان وفويق الثنايا تنسب له الزاي، والسين، والصاد.

١٣. مما بين طرف اللسان وأطراف الثنايا تنسب له الظاء، والذال، والثاء.

١٤. من باطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا العلى تنسب له الفاء.

١٥. مما بين الشفتين تنسب له الباء، والميم، والواو.

١٦. من الخياشيم تنسب له النون الخفيفة.

ويلتقي هذا التقسيم، الذي قدمه سيبويه لمخارج الحروف العربية، مع التقسيم الحديث لها في بعض النواحي، التي لا يمكن الاستهانة بها، ويختلف معه – في الوقت نفسه– في أمور أخرى قد تعود، أو يعود بعضها بالفعل، إلى حدوث تطور صوتي طرأ على نطقنا المعاصر

لبعض الأصوات بالقياس إلى نطق أولئك الأجداد لها قبل مئات السنين، إضافة إلى افتقار علمائنا القدامى إلى وسائل البحث العلمي وآلاته المعاصرة التي يعتمد عليها الآن دارس الأصوات، وهو بصدد وصفها وتصنيفها.

ونودُّ أن نشير، في البداية، إلى بعض الجوانب المشتركة، أو شبه المشتركة، بين تصورات ذلك العالم، وتصورات الدرس الحديث لأصوات العربية:

١) الجمع بين بعض الأصوات ونسبتها معاً إلى مخرج معين:

جمع سيبويه بين بعض الأصوات في حزمة واحدة، ونسبها معاً إلى مخرج واحد. ومن الأمثلة على ذلك، جمعه بين أصوات الجيم، والشين، والياء، ونسبتها معاً إلى مخرج من وسط اللسان بينه وبين وسط الحنك الأعلى، وجمعه بين أصوات الباء والميم والواو، ونسبتها معاً إلى مخرج ما بين الشفتين. ويتفق هذا مع الدرس الصوتي الحديث الذي يصنف مجموعة الأصوات الأولى معاً وينسبها إلى المخرج الغاري، ويصنف مجموعة الأصوات الأخيرة معاً وينسبها إلى المخرج الشفوي.

وقد وُفِّق هذا العالم في الجمع بين أصوات أخرى ونسبتها معاً إلى مخرج واحد. غير أن الحظ لم يحالفه في نسبتها إلى مخارجها التي اصطلح عليها التصنيف الحديث لعلم الأصوات. ومن الأمثلة على ذلك جمعه بين صوتي الهمزة والهاء، ونسبتهما معاً إلى أقصى الحلق وجمعه بين صوتي العين والحاء، ونسبتهما معاً إلى أدنى الحلق، وجمعه أيضاً بين أصوات الطاء والدال والتاء، ونسبتها معاً إلى مخرج خاص بها، ومختلف عن المخرج الذي نسب إليه مجموعة أصوات الزاي والسين والصاد، وإضافة إلى ذلك، فقد جاء تصنيف سيبويه لبعض الأصوات ونسبتها إلى مخرجها مطابقا تماماً لما يقرره الدرس الصوتي الحديث، ومن الأمثلة على ذلك نسبة صوت الفاء إلى مخرج باطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا العليا.

٢) صنف سيبويه صوت الهمزة في بداية سلسلة الأصوات العربية من حيث المخرج.

وهو – في هذا- يتفق مع التصنيف الحديث، الذي يعد هذا الصوت أول الأصوات العربية مخرجاً. غير أن الخلاف بين التصنيفين يكمن في تسمية المخرج الذي ينتمي له هذا الصوت، فقد عزا سيبويه الهمزة إلى مخرج أطلق عليه اسم أقصى الحلق، أما الدرس الصوتي الحديث فينسبه إلى الحنجرة.

٣) ويمكننا أن نلحظ دقة وصف هذا العالم وحدسه لمخارج الأصوات العربية.

عندما تحدث عن مخارج اللام والنون والراء، التي وردت في تصنيفه متتابعة مخرجياً، والتي ينسبها التصنيف الصوتي الحديث معاً إلى المخرج اللثوي؛ فلا يوجد فرق – فيما نرى- بين الوصفين أو التصنيفين إلا بالعموم الذي يتسم به الوصف الحديث ، ودقة الوصف الذي حاول سيبويه -ببراعة- اضفاءه على كل صوت من هذه الأصوات الثلاثة.

أما فيما يتعلق بجوانب الخلاف بين تصنيف سيبويه وترتيبه للأصوات العربية، والتصنيف الحديث لها، فيعود بعضها، أو معظمها، إلى خلافات شكلية مردها عدم توحد المصطلحات لدى الطرفين، واحتمال حدوث تطور في نطق بعض هذه الأصوات، فضلاً عن اختلاف الجانبين في وسائل البحث والدرس التي كانا يستعملانها في عملية الوصف والتصنيف:

١. إنَّ أول ما يلفت الانتباه في التوزيع المخرجي، الذي قدمه سيبويه، للأصوات العربية، هو أنَّ هذا العالم قد حذا حذو شيخه وأستاذه الرائد، الخليل بن أحمد، في ترتيب الأصوات ومخارجها ترتيباً تصاعدياً، حيث بدأ -كما فعل أستاذه- بالحلق وانتهى بالشفتين. ويبدو

أن هذا الترتيب، الذي بدأه الخليل، وطبقه –من بعده– تلميذه سيبويه، ظلَّ موضع محاكاة وتقليد لدى جلِّ اللغويين الذين جاءوا فيما بعد.

أما الدرس الصوتي الحديث، فيدأب على ترتيب الأصوات العربية ومخارجها ترتيباً تنازلياً، حيث يبدأ –في العادة– بالشفتين، وينتهي بالحلق فالحنجرة .

٢. ولعل من أبرز نقاط الخلاف، بين التصنيف المخرجي الذي قدمه سيبويه للأصوات العربية، والتصنيف الحديث لها، هو مفهوم الحلق لدى الطرفين؛ فالحلق لدى سيبويه –ولدى أستاذه الخليل من قبلُ، ولدى معظم اللغويين الذين جاءوا من بعدُ – يعد موضع الإخراج الأول (من الداخل) .

وينسب سيبويه – ومعه معظم اللغويين أيضاً[١] – إلى هذا المخرج الأحرف التالية: الهمزة والهاء والألف، والعين والحاء، والغين والخاء. ويبدو أن سيبويه قد أحس بطول هذه المنطقة التي سماها الحلق، فعمد إلى تقسيمها إلى ثلاثة أقسام، هي: أقصى الحلق، وأوسطه، وأدناه. ثم عزا إلى كل قسم من هذه الأقسام الثلاثة صوتين اثنين، باستثناء أقصى

---

(١) لم يصنف الخليل بن أحمد – على سبيل المثال. الهمزة ضمن الأصوات الحلقية، وإنما صنفها، مع الواو والألف والياء، واعتبرها جميعاً أحرفاً هوائية تصدر من الجوف.

الحلق الذي عزا له ثلاثة أصوات هي؛ الهمزة والهاء والألف، ولقد ناقشنا موضوع الألف ونسبتها إلى هذا المخرج في موضع سابق[1]، وبيَّنا رأي العلماء القدامى، ورأينا في هذا الأمر. وعلى هذا فإن المشهور، لدى معظم اللغويين السابقين، هو اعتبار الحروف الحلقية ستة أحرف جمعها قول شاعرهم:

همزة فهاء ثم عين حاء مهملتان ثم غين خاء

أما الدرس الصوتي الحديث فإنه يوزع هذه الأصوات الستة على ثلاثة مخارج مختلفة، هي:

أ. الحنجرة - Larynx: وهي عبارة عن حجرة متسعة نوعاً ما، تقع في المنطقة الواقعة بين أسفل التجويف الحلقي، وأعلى القصبة الهوائية. ويبدو لنا أن هذا الموضع، أو المخرج، يناظر ما أطلق عليه سيبويه مصطلح أقصى الحلق. ويتم في هذا المخرج انتاج صوتي الهمزة والهاء.

ب. الحلق-Pharynx: وهو عبارة عن تجويف يقع بين الحنجرة وأقصى الحنك. ويبدو لنا أن هذا الموضع، أو المخرج، يناظر ما أطلق عليه سيبويه مصطلح أوسط الحلق. ويتم في هذا المخرج انتاج

---

(١) ينظر ص: ٢٩-٣٣ من هذه الدراسة .

صوتي العين والحاء.

ت. الطبق، أو ما يسمى بأقصى الحنك أو الحنك اللين: Soft Palate/Velum ويبدو أن هذا الموضع يناظر ما أطلق عليه سيبويه مصطلح أدنى الحلق. ويتم في هذا المخرج انتاج صوتي الغين والخاء، كما ذكر سيبويه، إضافة إلى صوتي الكاف والواو كما يصنفها الدرس الصوتي الحديث للأصوات العربية.

وعلى هذا، فإنّ الحلق، أو المخرج الحلقي، لا يشكل من تلك المنطقة الكبيرة، التي سماها سيبويه "الحلق" سوى موضع محدود يقع بين الحنجرة التي تحده من أسفل، وأقصى الحنك واللهاة التي تحده من أعلى. ولا ينسب إلى هذه المنطقة -كما ذكرنا سابقاً- سوى صوتين اثنين، هما: العين والحاء.

ولعل السبب، أو الأسباب، التي دفعت سيبويه إلى نسبة الأصوات الستة -أو السبعة- إلى هذه المنطقة التي سماها "حلقاً" تعود إلى:

١- عدم معرفته الدقيقة لتلك المنطقة الداخلية من جهاز النطق، وخاصة منطقة الحنجرة، وما تشتمل عليه من مكونات عضلية وغضروفية، وأوتار صوتية تتطلب معرفتها الاستعانة بمعلومات تشريحية، فضلاً عن ضرورة الاستعانة، لهذا الغرض، ببعض الآلات

والأجهزة الحديثة المعينة على ذلك. وقد ذهب إلى هذا المستشرق الألماني "شاده" في أثناء تعليقه على تقسيم سيبويه للمخارج، حيث قال: "وأما الحنجرة وأجزاؤها وعملها فتقتضي ملاحظتها إلى التشريح، وما أظن سيبويه يجترئ عليه، أو إلى بعض الآلات الفنية كمنظار الحنجرة، أو الأشعة المجهولة، ولم يكن مثل هذه الآلات بين يديه، وكفى بذلك عذراً يعتذر به سيبويه، لعدم معرفته بالحنجرة وعملها"(١).

٢- اشتراك هذه الأصوات التي سموها حلقية، دون غيرها من الأصوات العربية، ببعض الخصائص الصوتية والصرفية(٢)، الأمر الذي دفع سيبويه -ودفع غيره من اللغويين أيضاً- إلى الجمع بينها ونسبتها معاً إلى مخرج واحد. ولما كان الحلق، أو منطقة الحلق، هي المنطقة الداخلية المعروفة آنذاك، فقد عمد سيبويه إلى تصنيف هذه الأصوات معاً ونسبتها إلى تلك المنطقة.

ويبدو لنا أن هذا العالم كان يدرك، بحسه المرهف، وجود تباين مخرجي دقيق بين هذه الأصوات التي نسبها إلى الحلق؛ فعمد – من أجل ذلك – إلى تقسيم الحلق إلى ثلاث مناطق متمايزة في أقصاه، وأوسطه ،

---

(١) شاده: علم الأصوات عند سيبويه وعندنا. ص: ٥.

(٢) من ذلك -على سبيل المثال- إيثارها حركة الفتح في عين الفعل الثلاثي ماضياً ومضارعا.

وأدناه. ثم نسب إلى كل منطقة من هذه المناطق مجموعة صوتية بين عناصرها ائتلاف مخرجي يقرره علم الأصوات الحديث.

٣- صنف سيبويه صوت القاف - من حيث المخرج- بعد صوتي الغين والخاء[١]، في حين يرد هذا الصوت -في التصنيف الصوتي الحديث- قبل هذين الصوتين. ويرى سيبويه أن هذا الصوت -أي صوت القاف- يتم انتاجه من منطقة أقصى اللسان وما فوقه من الحنك الأعلى. أما الوصف الصوتي الحديث لهذا الصوت فهو أنه صوت يتم النطق به عندما يرتفع أقصى اللسان حتى يلتقي بأدنى الحلق واللهاة.

وهنا نتساءل: لماذا قدم سيبويه صوتي الغين والخاء -مخرجياً- على صوت القاف؟

وللإجابة عن هذا التساؤل، فإننا نعتقد بأن سيبويه، كان، في سلوكه هذا، منطلقاً من أحد التصورين الآتيين، أو منهما معاً:

أ- إن اشتراك الغين والخاء، مع أصوات الحلق والحنجرة، ببعض الخصائص الصوتية المميزة لها من غيرها من الأصوات العربية، قد دفع هذا العالم إلى ضمّ هذين الصوتين إلى أصوات الحلق والحنجرة، الأمر الذي أدى إلى تقديم الحديث عن هذين الصوتين اللاحقين مخرجياً

---

(١) جاء صوت القاف -من حيث الترتيب عند سيبويه- بعد صوت الكاف، يُنظر: الكتاب. ٤/ ٤٣١.

لصوت القاف. وفي المقابل، فلعل اشتراك القاف مع الكاف، ببعض الخصائص الصوتية، يكون مسئولاً عن تناول هذين الصوتين معاً بوصفهما مشتركين بمخرج عام واحد أو مخرجين متقاربين. وربما يفسر ذلك ويوضحه ما فعله سيبويه نفسه عندما وضع صوت الكاف قبل صوت القاف في أثناء ترتيبه لحروف العربية، وعندما وضع صوت القاف قبل صوت الكاف في أثناء حديثه عن مخارج تلك الحروف.

ب- لعل القاف التي تحدث عنها سيبويه ووصفها، في كتابه، بأنها صوت شديد مجهور، لم تكن كالقاف المعاصرة التي ننطقها اليوم شديدة مهموسة؛ فقد تكون تلك القاف صوتاً شبيهاً، أو قريب الشبه، من صوت الجيم القاهرية، فيكون مخرجها -بناء على ذلك- من أقصى الفم وفي هذا يقول ابن دريد:" فأما بنو تميم فإنهم يلحقون القاف بالكاف فتغلظ جداً "، فيقولون: الـــــگوم، يريدون: القوم، فتكون القاف بين الكاف والقاف. وهذه لغة معروفة في بني تميم، قال الشاعر[1]:

ولا أگول لـگدر الـگوم گـد نضجت ولا أگـول لباب الدار مـگـفول

ومن هذا المنطلق، فإنَّ هذه القاف تكون مشتركة مع الغين والخاء والكاف في المخرج ، أو تكون شديدة القرب المخرجي منها ، غير

---

(١) ابن دريد: جمهرة اللغة. ١/ ٥

أن سيبويه قد قام – لاعتبارات صوتية معينة – بعزل صوتي الغين والخاء عن صوتي القاف والكاف، وأَلْحَقَ الصوتين الأولين بأَصوات الحلق والحنجرة، في حين أبقى على الصوتين الأخيرين معاً، وناقشهما بوصفهما صوتين متقاربين جداً.

٤- وضع سيبويه أصوات الطاء، والدال، والتاء في مجموعة صوتية مستقلة مخرجياً عن مجموعة أصوات الزاي، والسين، والصاد. وقد نسب أصوات المجموعة الأولى إلى مخرج يقع بين طرف اللسان وأصول الثنايا، ونسب أصوات المجموعة الثانية إلى مخرج يقع بين طرف اللسان وفويق الثنايا.

أما الدرس الصوتي الحديث؛ فيميل – بوجه عام – إلى تصنيف هذه الأصوات الستة، ومعها صوت الضاد[١] ، معاً وينسبها إلى مخرج واحد هو المخرج الأسناني اللثوي. وفي هذا المخرج يتم انتاج الأصوات السبعة السابقة عندما يعتمد طرف اللسان على باطن الثنايا العليا، ومقدمه على اللثة. ولكن سيبويه –فيما يبدو لنا من كلامه– قسم هذا المخرج إلى قسمين:

أولهما– أسناني: وقد نسب إليه أصوات الطاء، والدال، والتاء.

---

(١) سوف نناقش هذا الصوت مخرجاً وصفة في موضع لاحق. يُنظر، ص: ١٥٠ من هذه الدراسة.

وثانيهما- لثوي: وقد نسب إليه أصوات الزاي، والسين والصاد. ولعل السبب الذي دفع هذا العالم، إلى هذا السلوك، يكمن في ملاحظته أن هناك بعض الفروق القائمة بين هاتين المجموعتين الصوتيتين؛ فأصوات المجموعة الأولى -وهي الطاء والدال والتاء- يجمعها ملمح الشدة أو الانفجار، في حين يجمع أصوات المجموعة الثانية ملمح الرخاوة أو الاحتكاك. وإضافة إلى ذلك، فإن بين أصوات كل مجموعة من هاتين المجموعتين شبكة من التناظرات والتقابلات، في ملامح الجهر والهمس، والتفخيم والترقيق تؤيد ما ذهب إليه سيبويه من تصنيفهما مستقلتين إحداهما عن الأخرى.

وربما كان سيبويه يحس بوحدة المخرج، أو بشدة قرب المخرج، بين هاتين المجموعتين الصوتيتين، ولكنه، بدافع الدقة العلمية، وبسبب الاعتبارات التي سجلناها في السطور السابقة، فضّل توزيع أصوات هاتين المجموعتين على مخرجين مستقلين. ولعلنا نلتمس الدليل على ذلك في وصفه لمخرج كل مجموعة منهما؛ فقد وحَّد سيبويه وصفه لكلا المخرجين باستثناء قوله في وصف المجموعة الأولى بأنها مما بين طرف اللسان، وأصول الثنايا، وقوله في وصف المجموعة الثانية بأنها مما بين طرف اللسان، وفويق الثنايا. فقوله: " فويق الثنايا " في وصفه لأصوات المجموعة الثانية، وقوله:" أصول الثنايا " في وصفه لأصوات المجموعة

الأولى، يوحيان بدقة هذا العالم واحساسه بالتوحُّد المخرجي، أو التقارب المخرجي الشديد، بين أصوات هاتين المجموعتين.

أما فيما يتعلق بالمخرج الأخير، وهو الخياشيم، الذي نسب له سيبويه النون الخفيفة، فإننا لا نعده مخرجاً أساسياً، ونعد النون، التي تحدث عنها في هذا المخرج، تنوعاً صوتياً للنون التي تحدَّث عنها في المخرج التاسع.

الفصل الثالث

حروف العربية من حيث الصفات

حروف العربية من حيث الصفات

قسم سيبويه الأصوات العربية، من حيث الصفات والملامح التي تتسم بها، إلى أقسام، بعضها عام: كالجهر والهمس، والشدة والرخاوة، وبعضها خاص بمجموعات صغيرة من الأصوات كالاطباق والانفتاح، وبعضها الآخر خاص بأصوات مفردة كالانحراف والتكرار... وغيرها.

وسنحاول – في الصفحات الآتية- الحديث عن هذه الصفات كما عرضها هذا العالم، ونبين –ما أمكن- وجهة نظر علم الأصوات الحديث في ذلك .

أولاً- الجهر والهمس:

وصف سيبويه الصوت المجهور بأنه "حرف أشبع الاعتماد في موضعه، ومنع النفس أن يجري معه حتى ينقضي الاعتماد (عليه) ويجري الصوت. فهذه حال المجهورة في الحلق والفم، إلا أنَّ النون والميم قد يعتمد لهما في الفم والخياشيم فتصير فيهما غُنَّة... وأما المهموس فحرف أضعف الاعتماد في موضعه حتى جري النفس معه..."[١]

---

(١) الكتاب. ٤/ ٤٣٤.

ولا يجد المرء، لدى قدماء اللغويين العرب، تفسيراً واضح المعالم لهذين التعريفين اللذين وضعهما سيبويه للمجهور والمهموس من الأصوات، وإنما يجدهما واردين لدى أولئك العلماء على النحو الذي أورده شيخهم، دون أن يجرؤوا، أو يجرؤ أحدهم، على المساس بهما بحذف، أو إضافة، أو حتى بتفسير من شأنه أن يوضح بعض الجوانب الغامضة التي أحاطت بهما؛ فتعاملوا معهما – من هذا المنطلق- وكأنهما قانونان مقدسان لا يجوز مناقشتهما.

أما بعض المحدثين من اللغويين فيتشككون في وضوح دلالة تعريف سيبويه للمجهور والمهموس، ويذهبون إلى أن هذا التعريف "يثير كثيراً من الشُّبَهِ التي لم تجد لها حلا معقولا حتى الآن"[1]، فضلاً عن وجود تداخل والتباس بين مفهومي الجهر والهمس من جهة، ومفهومي الشدة والرخاوة من جهة أخرى لدى هذا العالم[2].

غير أننا وجدنا لغويين آخرين، حاولوا تلمس حلول معينة لتعريفي سيبويه السابقين، وذلك من خلال الربط بين تصورات هذا العالم وحدوسه من جهة، وما وصل إليه علم الأصوات الحديث من حقائق علمية، ومعلومات جلية من جهة أخرى.

---

(١) د. رمضان عبد التواب، المدخل إلى علم اللغة. ص: ٣٨.

(٢) د. محمد المبارك، فقه اللغة. ص: ٥١.

فالدكتور إبراهيم أنيس يرى أن معنى "اشباع الاعتماد" هو اتصاف " المجهور بأنه صوت متمكن مشبع، فيه وضوح وفيه قوة، وتلك هي الصفة التي يشير إليها الأوروبيون بقولهم "Sonority". فالمجهور أوضح في السمع من نظيره المهموس، لا نزاع في هذا، وليس للاعتماد معنى في كلام سيبويه سوى عملية اصدار الصوت، تلك العملية التي تلازم النَّفَسَ منذ خروجه من الرئتين إلى انطلاقه إلى الهواء الخارجي"(١) غير أننا لا نلمح في كلام سيبويه ما يؤيد هذا التصور الذي ذهب إليه الدكتور أنيس ، بل إن سيبويه نفسه حين يتحدث عن خاصة الوضوح السمعي التي يطلق عليها مصطلح "أندى في السمع"(٢)، نجده يطلق هذه الخاصة على الصاد، والسين والزاي، أو ما يسميه حروف الصفير، وذلك في مقابل أصوات لا تتمتع بهذه الصفة كأصوات الظاء، والثاء، والذال، ومن المعلوم أن الصوتين الأولين – وهما الصاد والسين– مهموسان لا مجهوران .

ومن جهة أخرى، فإنّ الدراسة الصوتية الحديثة، تبحث قضية الوضوح السمعي من زاوية غير زاوية الجهر والهمس، التي انطلق منها

---

(١) د. ابراهيم أنيس: الأصوات اللغوية. ص: ١٢٣-١٢٤.

(٢) الكتاب. ٤/ ٤٦٤

الدكتور أنيس؛ فتصنيف الملامح التمييزية الأولية[١]، Primary distinctive features – على سبيل المثال- ينظر إلى قضية الوضوح السمعي من ناحية أكوستيكية[٢]، أي من ناحية كمية الطاقة الأكوستيكية التي تقترن بصوت ما . وعلى ذلك، فإن هذا التصنيف، يعد أصوات اللام، والميم، والنون، والراء، فضلا عن الحركات، أصواتاً ذات وضوح سمعي[٣]. أما تصنيف تشومسكي وهال Chomsky and hall للملامح التمييزية، فإنه يتناول هذه المسألة –أي مسألة الوضوح السمعي- من ناحية فسيولوجية، ويحصر هذه الصفة في بعض الأصوات أمثال الحركات، وأنصاف الحركات، والأصوات الأنفية، والجانبية[٤].

---

(١) يقصد بالملامح التمييزية الأولية مجموعة من الخصائص الصوتية التي يعتمد على قياس قيمها النسبية في وصف الأصوات الكلامية. وقد تكون هذه الملامح ثنائية القيم، أو متعددتها. ويبلغ عددها –عند لادفوجد Ladefoged –عشرين ملمحاً. ومن أمثلتها: ملمح الجهر، والأنفية، والطبقية، وغيرها، يُنظر:

Peter Ladefoged, A Course in Phonetics P: 264

(٢) يقصد بالناحية الأكوستيكية Acoustic، ذلك الجانب من علم الأصوات الذي يهتم بدراسة الخصائص الفيزيائية للصوت بعد صدوره من الفم وانتقاله في الهواء.

(3) Ladefoged, Acourse in Phonetics, P: 264

(4) Ibid, P: 248

ومن الجدير بالذكر، أن بعض الدراسات الصوتية ترى أن الأصوات المهموسة -أو بعضها- أشد وضوحاً سمعياً من مقابلاتها المجهورة، ومن ذلك، ما ذهب إليه "لادفوجد" Ladefoged، من أن صوت الزاي -وهو صوت مجهور- في كلمة Vase أقل شدة من صوت السين، وهو صوت مهموس في كلمة Face[١].

ويرى الدكتور أنيس، أن علاقة المجهور بالنفس عند سيبويه تعني الشعور " مع المجهور باقتراب الوترين الصوتيين، أحدهما من الآخر، حتى ليكادان يسدان طريق التنفس"[٢]. ولا شك أن الدكتور أنيس يحاول أن يُحمِّلَ كلام سيبويه، في تعريفه للمجهور والمهموس أكثر مما يحتمل، وذلك حين يفسر ظاهرة منع النفس المقترنة بالصوت المجهور، بأنها -على حد قوله - الشعور مع المجهور باقتراب الوترين الصوتيين أحدهما من الاخر؛ فسيبويه لم يكن على علم، أو معرفة بالأوتار الصوتية، ودورها الذي قرره المحدثون في انتاج الأصوات المجهورة ، وليس في فكرة "الاعتماد" عند سيبويه – كما شرحها الدكتور أنيس- ما يشي بهذا التصور أو يؤيده. فموضع الاعتماد مثلاً عند الدكتور

(1) Ladefoged, Acourse in Phonetics, P: 179.

(٢) د. ابراهيم أنيس: الأصوات اللغوية. ص: ١٢٤.

أنيس هو مجرى الصوت كله منذ صدوره من الرئتين إلى انطلاقه إلى الهواء الخارجي، وليس الحنجرة وما فيها من أوتار صوتية.

أما الدكتور عبد الصبور شاهين، فيرى -من خلال نصوص يوردها لسيبويه- أن هذا العالم " يقصد باشباع الاعتماد، أن للمجهور موضعين: موضعاً في الفم هو مخرج الحرف، وموضعاً في الصدر هو مخرج الجهر، ولذا كان المجهور مشبعاً لقوة اعتماده بازدواجه، على حين كان المهموس ضعيفاً لما أنه معتمد على موضع واحد هو مخرج الفم، والنفس جار معه دون احتباس"(١).

وهذا يوحي بأن الدكتور شاهين يميز بين الجهر والهمس- كما ورد عند سيبويه- باعتبار أن النفس مع الأصوات المهموسة يحظى بدرجة لا بأس بها من الطاقة التي تعطيها الرئتان، في حين أن هذه الطاقة تنحصر في الجانب الصوتي وحده في أثناء انتاج الأصوات المجهورة، وهذا يعني أن هذه الطاقة في حالة الأصوات المجهورة لا تسهم في عملية التنفس الطبيعي، خلافاً للوضع في أثناء انتاج الأصوات المهموسة كما سلف الحديث عنه، ويحاول الدكتور شاهين - كسابقه الدكتور أنيس- أن يضفي بعض الاتجاهات الحديثة بشأن دور الرئتين في انتاج الأصوات، وذلك في أثناء محاولته تفسير رأي سيبويه بشأن الأصوات

---

(١) د. عبد الصبور شاهين: في التطور اللغوي. ص: ٢٣٣.

المجهورة، فهو قد اعتمد في تفسيره -فيما يبدو لنا- على النظرية الميكانيكية التي تردُّ الظواهر الصوتية إلى نظرية ديناميكا الغازات -أي الهواء- الخارجة من الرئتين، في حين أغفل وجهة النظر المقابلة التي ينادي بها بعض علماء الأصوات المحدثين من أمثال جارد Garde وهسن Husson، والتي تنسب أوضاع الوترين الصوتيين إلى توجيه الدِّماغ من خلال الاتصال العصبي بهما(١).

وعلى أي حال، فإن ما ذهب إليه الدكتور شاهين من إشباع الاعتماد المنتج للصوت المجهور، أمر يرتبط بموضعي الصدر والفم، وأنَّ ضعف الاعتماد المنتج للصوت المهموس يرتبط بأحادية المخرج في الفم، يعني أن الصوت المجهور يستمد خصائصه المخرجية من موضعين، هما: الصدر والفم، في حين يستمد الصوت المهموس خصائصه المخرجية من موضع واحد هو الفم، فالفارق بينهما يكمن في موضع الصدر الخاص بالصوت المجهور. ولقد فسر الدكتور إبراهيم أنيس موضع الصدر الذي هو مخرج الجهر تفسيراً موفقاً عندما قال: بأَنه يشير إلى "صدى الذبذبات التي تحدث في الوترين الصوتيين بالحنجرة، وهذا الصدى نحس به ولا شك في الصدر، كما نحس به حين نسدُّ الأذنين بالأصبع، أو حين نضع

(1) Brosnahan, L. F and Malmberg, B. Introduction to Phoneics P: 38

الكفة على الجبهة، فهو الرنين الذي نشعر به مع المجهورات، وسببه تلك الذبذبات التي في الحنجرة"[١].

أما الأصوات المهموسة، التي يعتمد لها في موضع الفم وحده، فإنها تخلو من صدى الذبذبات التي تصاحب الأصوات المجهورة، فتخرج من الفم وحده، على نحو ضعيف.

أما الدكتور تمام حسان، فيرى أن المقصود بالاعتماد، هو ضغط موضعه أو منشؤه الحجاب الحاجز -وليس الرئتين كما يرى الدكتور شاهين- الذي يضغط على الرئتين لإفراغ ما فيهما من هواء، وهذا الضغط يقع على مخرج الحرف -في الفم والخياشيم- أي المكان الذي يتم نطقه منه[٢].

وفيما يتعلق بكلمة "الموضع" التي وردت في تعريف سيبويه للمجهور والمهموس من الأصوات، فقد اختلفت آراء اللغويين السابقين في تفسيرها؛ فالدكتور أنيس يعد الموضع هو موضع الاعتماد، وهو يختلف عن المخرج Point of articulation ويقصد به -أي موضع الاعتماد- المجرى الصوتي كله منذ صدوره من الرئتين إلى انطلاقه إلى الهواء الخارجي. أما الدكتور حسان فيشبه الدكتور أنيس في اعتباره

---

(١) د. ابراهيم أنيس: الأصوات اللغوية. ص: ١٢٢.

(٢) د. تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها. ص: ٦١-٦٢

الموضع هو موضع الاعتماد أيضاً. وهو -عنده- مقابل للحجاب الحاجز. أما الدكتور شاهين، فيعد الموضع مكافئاً للمخرج، مع اختلاف مفهوم المخرج عنده عنه عند الاخرين، حيث يعتبر أن للمجهور موضعين، أو مخرجين: هما الصدر والفم، وللمهموس موضعاً واحداً، أو مخرجاً واحداً هو الفم.

غير أن الدارس للتراث اللغوي عند العرب لا يعدم الوقوع على إشارات قيمة توضح مفهومي الموضع والاعتماد اللذين أشار إليهما سيبويه؛ فابن درستويه -على سبيل المثال- يرى "أن الحروف كلها مقطعها هناك (يقصد بذلك أقصى الحلق) لأن الصوت كله إنما يخرج من الحلق، ثم يحصره المعتمد فيصيره حرفا"(١).

ومع ذلك، فإننا لا نجد سبباً معقولاً للتفرقة بين مفهومي الموضع والمخرج سوى بعض المحاولات التي يقدمها بعض الدارسين اللغويين المحدثين للربط بين المعارف الصوتية -عن دور الحنجرة ووتريها الصوتيين والجهاز الصوتي بوجه عام- في تفسير الظواهر الصوتية ومنها ظاهرتا الجهر والهمس، وتصورات القدماء -وعلى رأسهم سيبويه- لهاتين الظاهرتين. لذلك فإن مصطلح الموضع عند

---

(١) ابن درستويه: شرح الفصيح. ١/ ١٠٨. نقلاً عن د. رمضان عبد التواب: المدخل إلى علم اللغة. ص: ٣٨

سيبويه لا يعدو أن يكون -في نظرنا- مجرد اصطلاح مكافئ لمصطلح المخرج Point of articulation المعروف في الدراسات الصوتية الحديثة، بل إن سيبويه نفسه يكرر هذين المصطلحين ويستعملهما في أماكن مختلفة من "كتابه" لأداء معنى واحد بعينه، دون تمييز بينهما(١).

ومن المعلوم، أن الدراسات الصوتية الحديثة تتناول موضوع الجهر والهمس من زاوية الأوتار الصوتية Vocal Cords / bands، وما يطرأ عليها من اهتزاز أو عدم اهتزاز؛ فالأصوات التي يهتز معها الوتران الصوتيان ويتذبذبان، تكون أصواتاً مجهورة Voiced، أما تلك الأصوات، التي لا يهتز معها الوتران الصوتيان ولا يتذبذبان، فإنها تكون أصواتاً مهموسة Voiceless. ولكن سيبويه لم يكن -كما يقول شاده- يعرف الحنجرة، ولا أَجزاءها كالمزمار، والأوتار الصوتية"(٢).

والآن، وبعد أن استعرضنا ملحوظات هؤلاء العلماء، حول رأي سيبويه في المجهور والمهموس من الأصوات فإننا نتساءل: ماذا يعني سيبويه بكلا المصطلحين؟ وقبل أن نجيب عن هذا التساؤل، فإننا نرى ضرورة الإشارة إلى أن الغموض والتعقيد، اللذين يحيطان بتعريف سيبويه للمجهور والمهموس، قد لا يزيلها -نهائياً- تصور أو حدس،

(١) يُنظر -على سبيل المثال- الكتاب ٤/ ١٧٤، ٤٣٣، ٤٣٤.

(٢) شاده: علم الأصوات عند سيبويه وعندنا. ص: ٥.

وإن كانت التصورات والحدوس المختلفة، التي قدمت وتقدم، لإيضاح رأي سيبويه من شأنها أن تخفف من حدة الضّباب الذي يلفُّ لغة سيبويه في هذا المجال.

فالصوت المجهور -كما فهمنا من تعريفات سيبويه المختلفة له- هو صوت يحتاج -من أجل النطق به- إلى عمليتين متلازمتين: تتمثل أولاهما في الآلية العضوية المعينة، التي تتخذها بعض أعضاء النطق في أحد مخارج التجويف الحلقي، أو في أحد مخارج التجويف الفموي، من أجل انتاج الصوت المجهور. وتمثل هذه الآلية العضوية موضع النطق الرئيس الذي يتخذه صوت مجهور ما في أثناء النطق به.

أما العملية الثانية، فتتمثل فيما يصاحب العملية الأولى من ضغط للهواء في منطقة الحلق، الذي يشتمل، في تصور سيبويه، على مساحة واسعة تتضمن الحنجرة، التي تشتمل بدورها على الوترين الصوتيين - كما ذكر سيبويه في أثناء تعريفه للمجهور، أو في منطقة الصدر- كما ذكر سيبويه في أثناء تفريقه بين المجهور والمهموس من الأصوات.

ففي حالة ضغط الهواء في المنطقة الأولى، وهي منطقة الحلق، فإن تيار الهواء، الصادر من الرئتين، والمار بالقصبة الهوائية، يندفع عبر التجويف الحنجري، فيحدث رنيناً، أو صدى ناجماً عن تسرب تيار الهواء خلال الوترين الصوتيين المتقاربين وإحداث ذبذبة فيهما. فكأن هذه

الذبذبة المصاحبة للصوت المجهور، الذي يتم انتاجه في موضع ما من مواضع انتاج الأصوات، تكسب هذا الصوت تلك الخاصة، التي اصطلح سيبويه على تسميتها بالجهر.

أما بالنسبة للمنطقة الثانية، وهي منطقة الصدر، فلعل شيخنا كان يشير، بحديثه عنها، إلى الأثر الناتج عن ذبذبة الوترين الصوتيين المصاحبة في العادة للصوت المجهور، والذي نحس به -كما يقول الدكتور إبراهيم أنيس- ولا شك في الصدر...[1]

ولعلنا نلتمس الدليل، على ذلك، فيما ذهب إليه سيبويه من أن الهواء، المنتج للصوت المجهور، يقتصر عمله على عملية الانتاج الصوتي فقط، ولا يقوم - بالإضافة إليها- بعملية التنفس؛ فهو -في أثناء تمييزه المهموس من المجهور- يقول:"... وأنت تعرف ذلك إذا اعتبرت فرددت الحرف مع جري النفس، ولو أردت ذلك في المجهور لم تقدر عليه."[2]

أما الصوت المهموس -كما فهمنا من تعريفات سيبويه وتصوراته المختلفة -فهو صوت يحتاج- من أجل النطق به- إلى عملية رئيسة تتمثل في الآلية العضوية المعينة، التي تتخذها بعض أعضاء

---

(١) د. ابراهيم أنيس، الأصوات اللغوية. ص: ١٢٢

(٢) الكتاب. ٤/ ٤٣٤.

النطق، في أحد المخارج الصوتية، أمَّا تيار الهواء، فإنه يستمر في التدفق دونما حاجز أو تضييق، خلف منطقة الإخراج، يوقفه أو يحدّ من جريانه واندفاعه؛ فكأن وظيفة الهواء -مع الأصوات المهموسة- تقتصر- صوتياً- على إكساب الآلية العضوية جودها، الذي يتجسد على هيئة صوت اعتمد له في موضع واحد، دون أن يكون له في أي موضع آخر من القناة الصوتية تأثير يكسب الصوت قوة، على غرار ما كان مع الصوت المجهور. ولهذا، فإن الهواء – مع الأصوات المهموسة- يقوم – كما يفهم من كلام سيبويه السابق- بوظيفتين في آن واحد هما: التنفس، وانتاج الصوت. ولعل سيبويه كان يشير إلى هذا الذي نذهب إليه عندما قال:"وإنما فرق بين المجهور والمهموس أنك لا تصل إلى تبيين المجهور إلا أن تدخله الصوت الذي يخرج من الصدر، فالمجهورة كلها هكذا يخرج صوتهن من الصدر ويجري في الحلق... أما المهموسة فتخرج أصواتها من مخارجها، وذلك مما يزجي الصوت، ولم يعتمد عليه فيها كاعتمادهم في المجهور، فأخرج الصوت من الفم ضعيفاً"(١).

وهكذا، فإنه يتضح لنا بأن الاعتماد -مع الأصوات المجهورة- يكون مزدوجا، مما يكسب الصوت صفة الاشباع والقوة. في حين يكون

---

(١) د. إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية. ص: ١٢٠-١٢١.

الاعتماد -مع الأصوات المهموسة- أحادياً، مما يضفي على الصوت صفة الهمس أو الضعف.

ويبدو أن سيبويه قد أراد لهذه الصورة مزيداً من الجلاء والوضوح، عندما ذهب إلى أن تعطيل الاعتماد في منطقة الحلق أو الصدر، وهو الاعتماد المصاحب للآلية العضوية المنتجة للصوت المجهور، من شأنه أن يحول الصوت المجهور إلى مقابله المهموس. فهو يقول:" والدليل على ذلك أنك إذا أخفيت همست بهذه الحروف، ولا تصل إلى ذلك في المجهور، فإذا قلت "شخص" (وكل صوامتها مهموسة) فإن الذي أزجى هذه الحروف صوت الفم"[1].

ويلتقي تصنيف سيبويه للأصوات المجهورة والمهموسة مع التصنيف الصوتي الحديث لهذين النوعين من الأصوات، غير أن سيبويه – في تصنيفه للأصوات المجهورة– قد عدَّ أصوات القاف والطاء والهمزة أصواتاً مجهورة، في حين يعدّ الدرس الصوتي الحديث الصوتين الأَوَلَيْن صوتين مهموسين، والصوت الأخير صوتاً لا هو بالمجهور ولا بالمهموس على أرجح الآراء. وسنرجئ الحديث عن هذه الأصوات إلى موضع لاحق من هذه الدراسة[2].

---

(١) د. إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية. ص: ١٢١

(٢) يُنظر، ص: ١٣٠- ١٥٠. من هذه الدراسة.

ثانياً- الشدة والرخاوة:

عرف سيبويه الحرف الشديد؛ أي الانفجاري Plovise بأنه الحرف "الذي يمنع الصوت أن يجري فيه، وهو الهمزة، والقاف، والكاف... وذلك أنك لو قلت أَلْحَجَ ثم مددت صوتك لم يَجْرِ ذلك".

أما الحرف الرخو الاحتكاكي Fricative، فهو – كما يعرفه سيبويه- الحرف الذي يجري فيه الصوت، كالهاء، والحاء، والغين، والخاء،... وذلك إذا قلت الطَّسُّ، وانقَضْ وأشباه ذلك أجريت فيه الصوت إن شئت"[١].

ويبدو للوهلة الأولى، أن هناك -كما يقول بعض الدارسين- خلطاً وتداخلاً بين هذين التعريفين اللذين قدمهما سيبويه للشديد والرخو من الأصوات، وتعريفيه السابقين للمجهور والمهموس. ولكن الباحث المدقق في تعريفات هذا العالم لتلك الملامح المصاحبة للصوت يلاحظ أن سيبويه كان -فيما نرى- واضحاً مع نفسه، ودقيقاً -إلى حدٍّ ما- في استعمال اللغة المعبرة عن قصده وفكره.

فهو -في تعريفه للمجهور من الأصوات- يذكر بأن الذي يمنع من الجريان مع الحرف المجهور، الذي أشبع الاعتماد في موضعه، هو

(١) الكتاب. ٤/ ٤٣٤-٤٣٥.

النفس فقط في حين لا يمنع هذا النفس -كما يقول سيبويه- من الجريان مع الحرف المهموس، الذي أضعف الاعتماد في موضعه.

أما الصوت الشديد، فقد ذكر سيبويه، أن الذي يمنع من الجريان من أثناء انتاجه هو الصوت نفسه، وليس النفس فقط، في حين لا يمنع الصوت -كما يقول سيبويه- من الجريان في أثناء انتاج الأصوات المجهورة والمهموسة والنطق بهما.

فالصوت -مع المجهور والمهموس- يجري، ولا يتوقف، ولكن القضية الخلافية بين الجهر والهمس -لدى سيبويه- تكمن في جريان النفس في أثناء النطق بالصوت أو عدم جريانه معه؛ ففي حالة النطق بالأصوات المجهورة، يقوم الهواء، أو تيار الهواء الصادر من الرئتين، بوظيفة النطق، في حين يقوم هذا التيار، في حالة النطق بالأصوات المهموسة، بوظيفتي النطق والتنفس معاً.

أما في حالتي الشدة والرخاوة، فإنَّ القضية الخلافية بينهما تكمن في جريان الصوت والنفس معاً، أو عدم جريانهما.

ففي أثناء النطق بالأصوات الشديدة، فإنَّ الصوت -سواء أكان مجهوراً أم مهموساً- ومعه النفس بطبيعة الحال، يتوقف عن الجريان لفترة من الزمن، بسبب إغلاق المخرج الناتج عن التقاء عضوي نطق والتحامهما في موضع ما من مواضع النطق. أما في أثناء النطق بالأصوات

الرخوة، فإنَّ الصوت – سواء أَكان مجهوراً أم مهموساً- ومعه النفس أيضاً، لا يتوقف عن الجريان، وإنما يمكن النطق به بسبب اقتراب عضوي نطق –في موضع ما من مواضع النطق- من بعضهما اقتراباً يمكِّن تيار الهواء المنتج للصوت من المرور من خلال هذين العضوين المتقاربين.

ولعل المطّلع على الصورة الكاملة لحديث سيبويه، عن هذين النوعين من الأصوات، والأمثلة التوضيحية التي قدمها هذا العالم، يخرج بأن سيبويه قد اعتمد –في فهمه للأصوات الشديدة والرخوة- معيارين اثنين؛ هما:

١- عدم جريان الصوت، أو عدم مواصلة النطق به.

٢- لزوم عضو نطق ما موضع انتاج الصوت[1].

إنَّ معظم الأصوات، التي صنفها سيبويه في كتابه، في هذا المجال، هي من الأصوات التي أمكنه تطبيق المعيارين السابقين عليها معاً، بيد أنه اعتمد في تصنيفه لبعض الأصوات العربية معياراً واحداً فقط.

---

(١) ذكر ابن يعيش أن "الفرق بين المجهورة والشديدة، أن المجهورة يقوى الاعتماد فيها، والشديدة يشتد الاعتماد فيها بلزومها موضعها لا بشدة الوقع". يُنظر كتابه شرح المفصل. ١٠/ ١٢٩.

فاللام والنون والميم عنده -على سبيل المثال- من الأصوات التي لا ينطبق عليها المعيار الأول، إذ إن الصوت يجري فيها -كما يقول- في حين ينطبق عليها المعيار الثاني، وهو لزوم عضو النطق -وهو اللسان هنا- موضعه، وعدم تجافيه عنه، لذا نجده يعد هذه الأصوات الأخيرة من النوع الشديد، أما بالنسبة لصوت الراء، فيلاحظ، من كلام سيبويه، أنه يعده صوتاً شديداً يجري فيه الصوت بسبب خاص به وهو تكريره، وفي حالة عدم تكريره، لا يجري الصوت فيه كما يقول[1].

ويقابل مصطلحا سيبويه -الشدة والرخاوة- مصطلحي المحدثين من علماء الأصوات وهما الانفجار Plosive، والاحتكاك Fricative على التوالي. ويتحقق الانفجار في الصوت نتيجة التدخل بقطع عمود الهواء نتيجة الالتقاء المحكم بين عضوين من أعضاء النطق، فعند هذا الالتقاء، يحتبس الهواء خلف نقطة الالتقاء لفترة، ثم ينطلق بعد الاحتباس على هيئة انفجار، وذلك عندما يكون انفصال العضوين المشتركين في النطق مفاجئاً، وبهذه الطريقة يحدث الصوت الانفجاري.

أما الاحتكاك؛ فإنه يتحقق نتيجة التدخل بتضييق مجرى الهواء، وما ينشأ عنه من تقارب شديد بين عضوين من أعضاء النطق، ويترتب على هذا التقارب، أن جزئيات الهواء تتجمع لعبور المضيق، وتنشأ

---

(١) الكتاب. ٤/ ٤٣٥.

مجموعة من التداخلات مع احتكاك جزئيات الهواء بالأسطح الملامسة للأعضاء الناطقة، وبهذا ينشأ احتكاك مسموع نتيجة اندفاع الهواء في هذا المضيق.

وتجدر الإشارة إلى أن تصنيف سيبويه للأصوات الشديدة (الانفجارية) والرخوة (الاحتكاكية) يلتقي مع التصنيف الصوتي الحديث لهذين النوعين من الأصوات، غير أن سيبويه -في تصنيفه للأصوات الرخوة (الاحتكاكية) قد عدَّ صوت الضاد صوتاً رخواً، في حين تعدّه الدراسات الصوتية الحديثة صوتاً شديداً انفجارياً. وسنرجئ الحديث عن هذا الصوت إلى موضع لاحق من هذه الدراسة[1].

ومن ناحية أخرى، فقد أضاف سيبويه إلى صفتي الشدة (الانفجار) والرخاوة (الاحتكاك) آنفتي الذكر، صفة ثالثة نستطيع أن نسميها صفة الحياد -أو التوسط- بين الشدة والرخاوة، وعد صوت العين وحده متسماً بهذه الصفة، فهذا الصوت واقع -على حد قول سيبويه- " بين الرخوة والشديدة"[2] غير أن بعض اللغويين، الذين جاءوا بعده كابن الجزري – على سبيل المثال- أضافوا إلى هذا الصوت –

---

(١) يُنظر، ص: ١٥٠-١٦٥. من هذه الدراسة.

(٢) الكتاب ٤/ ٤٣٥.

الذي عدَّه سيبويه متوسطاً- أصوات اللام والميم والنون والراء[1]. وزاد بعضهم، على هذه الأصوات، الواو والياء والألف؛ وجمعوا الكل في اللفظ "لم يروعنا "[2]، وتؤيد الدراسات الصوتية الحديثة وجهة نظر ابن الجزري ، غير أن هذه الدراسات لا تعد هذه الأصوات –على نحو ما فعل اللغويون العرب- أصواتاً متوسطة بين الشدة والرخاوة، وإنما تعدّها مجموعة صوتية خاصة لا هي بالشديدة، ولا هي بالرخوة؛ فهي – من وجهة النظر الحديثة لعلم الأصوات- أصوات متوسطة بين الصوامت Consonants، والحركات Vowels، وليست متوسطة بين الشدة والرخاوة؛ لأنها تتسم –كما يقول الدكتور كمال بشر- بخواص الأصوات الصامتة، ولكنها، في الوقت نفسه، تبدي شبهاً معيناً بالحركات[3].

وعلى أي حال، فإن هذه المجموعة الصوتية، تمثل نوعاً مستقلاً من الأصوات، يطلق عليها الدرس الصوتي الحديث مصطلح الأصوات المائعة Liquids، أو الرنانة Resonants.

---

(١) ابن الجزري: النشر في القراءات العشر. ١/ ٢٠٢.

(٢) ابن جني: سر صناعة الاعراب. ١/ ٦١.

(٣) د. كمال بشر: علم اللغة العام. الأصوات. ص: ١٣١.

ثالثاً- تصنيفات أخرى:

لم يقتصر سيبويه، في تناوله للجانب الصوتي في اللغة، على التصنيفين السابقين للأصوات، وهما الجهر والهمس من جهة، والشدة والرخاوة من جهة اخرى. وإنما نجد عنده مناقشة ناضجة لمجموعات صوتية أخرى، استند، في تصنيفه لها، إلى معايير خاصة، وسنحاول، فيما يأتي، تبين أهم هذه المجموعات الصوتية لديه:

١) مجموعتا الأصوات المطبقة والمنفتحة: تنقسم

الأصوات جميعاً عنده إلى قسمين رئيسين، هما:

أ- مجموعة الأصوات المطبقة Velarization: وتشمل أصوات الصاد، والضاد، والطاء، والظاء، حيث يطبق -كما يذكر سيبويه- معهن اللسان برفعه إلى الحنك الأعلى -وهو الطبق- وانطباقه من مواضعهن إلى ما يحاذي الحنك الأعلى من اللسان، وبحيث يكون الصوت محصوراً فيما بين اللسان والحنك إلى موضع الحروف[١]. ثم يقارن سيبويه بين هذه الأصوات الأربعة، ونظائرها المرققة قائلاً:" فهذه الأربعة لها موضعان من اللسان، وقد بُيِّن ذلك بحصر الصوت، ولولا الاطباق لصارت الطاء دالاً، والصاد سيناً، والظاء ذالاً، ولخرجت

---

(١) الكتاب. ٤/ ٤٣٦.

الضاد من الكلام لأنه ليس شيء من موضعها غيرها[1].

وهو يقصد بكلامه هذا، أن اللسان، في حالة انتاج هذه الأصوات، ينطبق على سقف الحنك الأعلى في موضعين اثنين لا في موضع واحد، كما هو الحال في الأصوات غير المطبقة، مثل: الدال والزاي، حيث ينص سيبويه على أن هذين الصوتين –ونحوهما "ينحصر الصوت إذا وضعت لسانك في مواضعهن"[2] وهذان الموضعان، هما:

١. موضع الإخراج الأساسي: Primary Articulation:
وهو المخرج الأسناني في حالة انتاج صوت الظاء، والمخرج الأسناني اللثوي في حالة انتاج أصوات الصاد، والضاد، والطاء.

٢. موضع الإخراج الثانوي:Secondary Articulation[3]:
ويقصد به ارتفاع مؤخرة اللسان تجاه الطبق بحيث لا تتصل به.

ب- الأصوات المنفتحة: وتشمل – عند سيبويه – جميع الأصوات باستثناء الأصوات الأربعة المطبقة السابقة. وتمتاز هذه

---

(١) الكتاب. ٤/ ٤٣٦

(٢) السابق. ٤/ ٤٣٦.

(٣) يختلف المقصود بالإخراج الأساسي والثانوي عن المقصود بالإخراج المزدوج Double articulation الذي تتكافأ فيه أهمية موضعي الإخراج في عملية تحديد ماهية الصوت. يُنظر:
David Crystal, A First Dictionary of Linguistics and Phonetics. P: 33.

المجموعة من الأصوات، بأن اللسان –كما يذكر سيبويه – لا يطبق معها برفعه إلى الحنك الأعلى ، وإنما ينحصر الصوت عند وضع اللسان في مواضعهن.

ومن الجدير بالذكر أن سيبويه لم يقصر حديثه على صفة الاطباق، وإنما تناول –في موضع آخر من كتابه أيضاً–ما أطلق عليه صفة الاستعلاء التي تشمل –بالإضافة إلى أصوات الإطباق الأربعة السابقة – أصوات الغين، والقاف، والخاء[١]، حيث تشترك هذه الأصوات الأخيرة، مع الأصوات الأربعة المطبقة، التي نص على اطباقها سيبويه، في صفة التفخيم أو صفة الاستعلاء[٢]. وذلك في مقابل صفة الاستفال كما نص القدماء، غير أن الأصوات الأربعة المطبقة؛ وهي الصاد، والضاد،

---

(١) الكتاب. ٤/ ١٢٨- ١٢٩.

(٢) يميز بعض اللغويين بين الاستعلاء والاطباق، ويتمثل ذلك في أنّ أقصى اللسان في حالة الاستعلاء يرتفع إلى جهة الحنك الأعلى، سواء استعلى معه بقية اللسان أم لا، وأحرفه سبعة يجمعها "خص ضغط قظ". أما الاطباق – ومعناه في اللغة الالصاق- فيعني استعلاء أقصى اللسان ووسطه إلى جهة الحنك الأعلى، وانطباق الحنك على وسط اللسان بحيث ينحصر الصوت بينهما، وأحرفه أربعة، هي: الطاء، والظاء، والصاد، والضاد. يُنظر كتاب: اتحاف العباد لابن حمّاد. ص: ١٤.

والطاء، والظاء، أشد تفخيماً من الأصوات الثلاثة الأخيرة، بل إنَّ بعض المحدثين من اللغويين يطلق على الأصوات الأربعة صفة التفخيم من الدرجة الأولى Complete Velarization، ويطلق على الأصوات الثلاثة الأخيرة صفة التفخيم من الدرجة الثانية، أو أنها ذات تفخيم جزئي[١] Partial Velarization .

٢) <u>مجموعة الأصوات الصفيرية Sibilants</u>: ومن مجموعات الأصوات عند سيبويه، مجموعة أصوات أطلق عليها -هذا العالم- اسم "حروف الصفير" وتشتمل هذه المجموعة على أصوات الصاد ، والسين والزاي ، وهذه الأصوات - التي تمتاز بالصفير كما يوحي بذلك اسمها -"أندى في السمع"[٢]. ولعله أراد بقوله: "أندى في السمع" في وصف هذه المجموعة الصوتية، أنها شديدة الوضوح في السمع بالقياس إلى غيرها من الأصوات كالظاء، والثاء، والذال، حيث نص على أن أحرف الصفير، "لسن في السمع كهذه - يقصد الظاء والثاء والذال

---

(١) د. أحمد مختار عمر: دراسة الصوت اللغوي. ص: ٢٧٨-٢٧٩.

(٢) الكتاب. ٤/ ٤٦٤.

لخفائها"[1].

ومن الجدير بالذكر في هذا المجال، أن مفهوم سيبويه " لنداوة الصوت في السمع "، أو ما يمكن تسميته بالوضوح السمعي، يختلف عن مفهوم الوضوح السمعي المقابل للمصطلح الأجنبي Sonority، فهذا المصطلح الأخير يعيِّن كمية الطاقة الأكوسيتكية، التي تقترن بصوت ما، في حين يعيِّن الصفير Sibilant كمية طاقة الترددات العالية في الصوت[2]. وتؤيد الدراسات الصوتية الحديثة ما ذهب إليه سيبويه من اعتبار أصوات الزاي والسين والصاد مجموعة صوتية خاصة ، غير أن هذه الدراسات تضيف، إلى هذه المجموعة، صوتي الشين والجيم[3] (المعطشة، أو الشامية). وعلى أي حال، فإن الأصوات الصفيرية تمثل نوعا خاصاً من الأصوات الاحتكاكية التي يتم انتاجها بدفع تيار الهواء عبر فتحة أخدودية واقعة بين اللسان وسقف الحنك الأعلى[4].

٣) مجموعة الأصوات المنحرفة: تقتصر هذه المجموعة على حرف واحد هو اللام؛ وهو -كما وصفه سيبويه- "حرف شديد جرى فيه الصوت لانحراف اللسان مع الصوت، ولم

---

(١) الكتاب. ٤/ ٤٦٥.

(2) Peter Ladefoged, A Course in Phonetics Pp: 146, 264.
(3) Hartmann & Strok. Dictionary of Language and linguistics. P. 208
(4) Ibid P. 208.

يعترض على الصوت كاعتراض الحروف الشديدة ...، وإن شئت مددت فيها – أي اللام– الصوت، وليس كالرخوة؛ لأنَّ طرف اللسان لا يتجافى عن موضعه، وليس يخرج الصوت من موضع اللام، ولكن من ناحيَتَيْ مستدق اللسان فويق ذلك"(١).

ويعود السبب في تسمية سيبويه هذا الحرف بهذا الاسم، إلى أنَّ النفس قد انحرف عن طريقه، على الرغم من اتصال طرف اللسان باللثة اتصالاً محكماً، وجرى من أحد جانبي اللسان أو كليهما (٢).

وإذا كان المحدثون من اللغويين يطلقون مصطلح جانبي Lateral على هذا الصوت، فإن سيبويه لم يجانبه التوفيق في تسميته التي أوردها لهذا الصوت، حيث كان منطلقه في هذه التسمية هو ما يطرأ على تيار الهواء المتدفق من انحراف في الاتجاه والقصد. أما المحدثون – وهم على صواب في تسميتهم أيضاً– فقد كان منطلقهم، في تسمية هذا الصوت بالجانبي، هو الموضع الذي يخرج منه تيار الهواء في أثناء تدفقه لإنتاج هذا الصوت.

---

(١) الكتاب. ٤/ ٤٣٥.

(2)Crystal , p.204.

٤) <u>مجموعة الأصوات المكررة:</u> تقتصر هذه المجموعة - كسابقتها- على حرف واحد هو "الراء". وهو "حرف شديد يجري فيه الصوت لتكريره... ولو لم يكرر لم يجر الصوت فيه."(١)

ووصف سيبويه لهذا الصوت بالتكرير ناجم عن كون الصوت لا يجري في المخرج إذا لم يحدث هذا التكرير؛ أي أنه صفة ذاتية في الراء. وكلام هذا العالم عن صوت الراء واضح، ويقترب مما تقرِّره الدراسات الصوتية الحديثة.

بيد أن سيبويه -كما هو واضح جلي- يعد الراء العربية راء مكررة فحسب Rolled/ Trill؛ فهو يتحدث عنها في موضع آخر من كتابه قائلاً:" والراء إذا تكلمت بها خرجت كأنها مضاعفة، والوقف يزيدها إيضاحاً"(٢)، ويؤيد الدكتور إبراهيم أنيس وجهة نظر سيبويه في تكرارية هذا الصوت(٣)، في حين يفرِّق كثير من الدارسين اللغويين بين نوعين من الراء، أحدهما: تكرارية، أو مترددة، وهي التي تحدث عنها سيبويه، والثانية: لمسية متحركة غير مترددة Flap/ Tap.

---

(١) الكتاب ٤/ ٤٣٥.

(٢) السابق. ٤/ ١٣٦.

(٣) د. ابراهيم أنيس: الأصوات اللغوية. ص: ٦٦.

٥) **مجموعة الأصوات ذات الغنة:** تشمل هذه المجموعة صوتي النون والميم، وهما – كما وصفهما سيبويه- حرفان شديدان يجري معهما الصوت؛ "لأن ذلك الصوت غنة من الأنف، فإنما تخرجه من أنفك، واللسان لازم لموضع الحرف، لأنك لو أمسكت بأنفك لم يجرِ معه الصوت، وهو النون، وكذلك الميم"[١].

ويقصد بالغنَّة "أن أحد هذين الصوتين إذا جاور صوتاً آخر يؤثر فيه بالإخفاء، فإنه يختفي، ويترك مكانه غنة، أي صوتاً أنفياً يدل على وجوده"[٢]. ويعرف الدكتور ابراهيم أنيس الغنة بأنها "إطالة لصوت النون مع تردد موسيقي محبب فيها؛ فالزمن الذي يستغرقه النطق بالغنة هي في معظم الأحيان ضعف ما تحتاج إليه النون المظهرة... فالفرق بين النون المظهرة، ونون الغنة فرق في الكمية من ناحية، وتطور النون وميلها إلى مخرج الصوت المجاور من ناحية أخرى."[٣]

وعلى الرغم من دقة الشرح والتوضيح، الذي يقدمه المحدثون لمعنى الغُنَّة، فإننا نعتقد أن سيبويه كان يقصد بها مجرد تميز صوتي النون

---

(١) الكتاب. ٤/ ٤٣٥.

(٢) د. عبد الصبور شاهين: في التطور اللغوي. ص: ٢٤٣

(٣) د. ابراهيم أنيس: الأصوات اللغوية. ص: ٧٠

والميم بالصفة الأنفية، التي يتسمان بها، وتميزهما من غيرهما من الأصوات.

ويُفهم من كلام سيبويه، عن مجموعات الأصوات المنحرفة، والمكررة، وذات الغُنَّة، أنه يصنف أصوات اللام، والراء، والنون، والميم، من حيث المبدأ، في عداد الأصوات الشديدة، غير أنه -في أثناء مناقشته لهذه الأصوات ووصفه لآلية انتاجها- يذهب- فيما يبدو لنا- إلى أن هذه الأصوات ليست بالشديدة الصرفة، ولا بالرخوة الصريحة، وإنما فيها -كما يستشف من كلامه- من خصائص هذه وفيها أيضاً - من سمات تلك.

فالصوت -في أثناء النطق بهذه الحروف-يجري، خلافاً للأصوات الشديدة، التي يمنع الصوت من الجريان في أثناء النطق بها، كما أن عضو النطق في أثناء عملية النطق بهذه الحروف- يلزم موضعه، ولا يجافيه، خلافاً للأصوات الرخوة، التي تسمح للصوت -في أثناء النطق بها- بالجريان دونما مانع أو سدٍّ يحول دون ذلك.

ففي هذه الأصوات من خصائص الشدة المتمثلة بلزوم عضو النطق - وهو اللسان هنا- وعدم تجافيه لموضع النطق بالصوت، وفيها - إضافة إلى ذلك - من خصائص الرخاوة المتمثلة في عدم الاعتراض للصوت والسماح له بالجريان؛ ففي أثناء مناقشة سيبويه لصوت اللام -

على سبيل المثال- نجده يصفه - ابتداء - بالشدة، ثم ما يلبث أن يتبع وصفه هذا بقوله :" جرى فيه الصوت...، ولم يعترض (عليه) كاعتراض الحروف الشديدة". وبعد ذلك نجد سيبويه يقرر بأنَّ هذا الصوت "ليس كالرخوة لأن طرف اللسان لا يتجافى عن موضعه". فكأنَّ سيبويه يضع القاعدة، ثم يذكر- بعد ذلك - الظروف الخاصة التي تحيط بالصوت، والتي تُحدث فيه بعض الانعطاف أو الاستثناء؛ فاللام صوت شديد، ولكنه - لسمة مميزة له - يسمح للصوت بالجري، خلافاً لما هو عليه حال الأصوات الشديدة ، وهو - في الوقت نفسه - صوت لا يتجافى طرف اللسان عن موضع النطق به ، خلافاً لما هو عليه حال الأصوات الرخوة؛ فكأن سيبويه يريد أن يقول ببساطة ووضوح: إنَّ هذا الصوت - ومثله أصوات الراء، والنون، والميم- هو صوت متوسط بين الشدة والرخاوة، أو أنه واقع في مرتبة وسيطة بين الشدة والرخاوة.

ويلتقي شيخنا، فيما يتصوره هنا بالنسبة لهذه الأصوات، مع ما يتصوره الدرس الصوتي الحديث لها، من حيث اعتبارها مجموعة صوتية خاصة، أو مستقلة. غير أن الفارق بين التصورين يقوم في أن النظرة الصوتية الحديثة لهذه الأصوات، لا تعدها -كما فعل قدماء لغويينا العرب- متوسطة بين الشدة والرخاوة، وإنما تعدُّها متوسطة بين الصوامت والحركات، كما ذكرنا في موضع سابق؛ فالهواء، في أثناء النطق

بهذه الأصوات، يمكن أن يمرَّ بمجراه دون احتكاك أو انحباس من أي نوع، إمَّا لأن مجراه في الفم يتجنب المرور بنقطة السد (أو التضييق)، كما في صوت اللام، أو لأنَّ هذا التضييق غير ذي استقرار، كما في صوت "الراء"، أو لأنَّ الهواء لا يمرُّ بالفم، وإنما يمرُّ بالأنف، كما في صوتي "الميم" و"النون". وقد اصطلح على تسمية هذا النوع المستقل من الأصوات -كما ذكرنا في موضع سابق- بالأصوات المائعة أو الرنانة Liquids / Resonants .

٦) **مجموعة الأصوات اللينة:** تشتمل هذه المجموعة الصوتية – عند سيبويه – على صوتي الواو، والياء، وقد أطلق هذا العالم على هذين الصوتين مصطلح اللين؛ نظراً "لأنَّ مخرجهما يتسع الهواء الصوت أشد من اتساع غيرهما"[١].

٧) **مجموعة الأصوات الهاوية:** تقتصر هذه المجموعة الصوتية – عند سيبويه، وعند غيره من العلماء أيضاً- على صوت واحد فقط هو الألف. وقد وصف سيبويه هذا الصوت بقوله: إنَّه "حرف اتسع لهواء الصوت مخرجه ، أشدّ من اتساع مخرج الياء والواو"[٢].

---

(١) الكتاب. ٤/ ٤٣٥.

(٢) السابق. ٤/ ٤٣٥-٤٣٦.

ويعد سيبويه أصوات هاتين المجموعتين- وهي الواو، والياء، والألف- "أخفى الحروف لاتساع مخرجها"(١)، ثم وجدناه يرتب – بعد ذلك – نسب الخفاء، واتساع المخرج بين هذه الأصوات الثلاثة على النحو الآتي: "وأوسعهن مخرجاً الألف، ثم الياء، ثم الواو"(٢).

وعلى الرغم من كون سيبويه قد صنف الواو والياء في مجموعة صوتية مستقلة عن الألف، واعتبرهما مجموعتين منفصلتين، إلا أننا رأيناه – في مواضع متفرقة من كتابه – يعامل هذه الأصوات الثلاثة معاملة تكاد تكون واحدة ، أو هي – بالفعل- واحدة؛ فهو – في باب الوقف في الواو والياء والألف – يذكر هذه الأصوات معاً، ثم يصفها بأنها "غير مهموسات" وبعد ذلك نراه ينص على أنَّ هذه الحروف "حروف لين ومد، ومخارجها متسعة لهواء الصوت، وليس شيء من الحروف أوسع مخارج منها، ولا أمدَّ للصوت، فإذا وقفت عندها لم تضمَّها بشفة ولا لسان، ولا حلق كضم غيرها، فيهوي الصوت إذا وجد متسعاً حتى ينقطع آخره في موضع الهمزة، وإذا تفطَّنت وجدت مسَّ ذلك، وذلك قولك: ظلموا، ورمَوْا، وعَمِي، وحُبْلَى"(٣).

---

(١) الكتاب. ٤/ ٤٣٦.

(٢) السابق. ٤/ ٤٣٦.

(٣) السابق. ٤/ ١٧٦.

وقد سار على هدى خطوات سيبويه، في هذا المجال، معظم اللغويين القدماء، الذين جاءوا بعده، من أمثال؛ ابن جني، والزمخشري، وشارح مفصله ابن يعيش، وابن الحاجب، وشارح شافيته الرضي، وابن عصفور، وعبد القاهر الجرجاني وغيرهم...، فابن جنِّي – على سبيل المثال- يتحدث عن هذه الحروف بقوله: "والحروف التي اتسعت مخارجها ثلاثة: الألف، ثم الياء، ثم الواو، وأوسعها وألينها الألف"(١).

ويقول ابن يعيش في معرض حديثه عن الأصوات العربية – "ومنها الحروف اللينة، وهي الألف، والياء، والواو، وهي حروف المد واللين، وقيل لها ذلك لاتساع مخرجها، والمقطع إذا اتسع انتشر الصوت ولان، وإذا ضاق انضغط فيه الصوت وصلب، إلا أنَّ الألف أشد امتداداً واستطالة، إذ كان أوسع مخرجاً، وهي الحرف الهاوي...، ويقال له الجرسي لأنه صوت لا معتمد له في الحلق والجرس الصوت، وهو حرف اتسع مخرجه لهواء الصوت أشد من اتساع مخرج الواو والياء..."(٢)

ويعزو سيبويه – وغيره من اللغويين- سبب اعتبار الألف أكثر هذه الأصوات ليناً واتساعاً، "لأنك قد تضم شفتيك في الواو، وترفع في

---

(١) ابن جني: سر صناعة الإعراب. ١/ ٨.

(٢) ابن يعيش: شرح المفصل. ١٠/ ١٣٠

الياء لسانك قِبَل الحنك"[1]، في حين لا يحدث شيء من هذا مع الألف التي "تجد الفم والحلق، منفتحين غير معترضين على الصوت بضغط ولا حصر"[2]، بل "تفرج، مع هذه الأصوات، كما يقول الرضي،المخرج."[3]

وقد ذهب علماؤنا القدامى إلى أن صفة المد واللين، التي تميز هذه الأصوات من غيرها من الأصوات الأخرى، تعد صفة قوة فيها، بل انَّ صوت الألف، الذي يعد واحداً من هذه الأصوات، يتصف – بسبب اتساع مخرجه كما ذكرنا – بأنه- كما يقول عبد القاهر الجرجاني – أَعذبُ أصوات المد واللين جرسا، وأمدَّها نفساً.[4]

ولعل هذا هو ما عناه المحدثون من اللغويين، عندما ذكروا أن هذه الأصوات، التي سموها أصوات المد واللين، تتسم بملمح الوضوح السمعي Sonority، الذي تقوم عليه عملية التفرقة بين هذه الأصوات من جهة، والأصوات الصامتة من جهة أخرى.

---

(١) الكتاب: ٤/ ٤٣٦.

(٢) ابن يعيش: شرح المفصل. ١٠/ ١٣٠

(٣) الرضي: شرح الشافية. ٣/ ٢٦١.

(٤) عبد القاهر الجرجاني: المقتصد. ٢/ ٢٧٧، ١٧، ٣٢٠، نقلاً عن كتاب نظرية اللغة والجمال في النقد العربي. للدكتور تامر سلوم. ص: ١٩، ٢٥

إنَّ وصف سيبويه - وغيره من اللغويين العرب- لهذه الأصوات اللينة والهاوية، أو كما يسميها سيبويه نفسه بحروف اللين والمد، "يشبه - إلى حد كبير علاج المحدثين، لأنها مما يسميه الأوروبيون"Vowels"، وهي التي لا تصادف حوائل أو موانع في طريقها، بل يمر النفس معها في مجرى خال من تلك الحوائل والموانع"(١).

٨) مجموعة الأصوات ذات الاستطالة والتفشي:

تشتمل هذه المجموعة الصوتية - عند سيبويه، وعند غيره من اللغويين القدماء - على صوتين هما: الضاد، والشين، ويقصد بالاستطالة: " أن يشغل الصوت من طول اللسان مساحة تصل مخرجه بمخرج صوت آخر يجاوره"، أو "هي امتداد الصوت من أول حافة اللسان إلى آخرها"(٢). أما التفشي، فيُقصد به: أن هواء النفس مع الصوت (المتفشي) لا يقتصر في تسربه إلى الخارج على مخرجه فقط، أي من الفراغ الذي بين العضوين المتصلين، وإنما يتوزع و"يتفشى" في جنبات الفم. أو هو كثرة انتشار خروج الريح بين اللسان والحنك، وانبساطه في الخروج عند

---

(١) د. إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية. ص: ١١٦- ١١٧.

(٢) محمد نمر حماد: اتحاف العباد في معرفة النطق بالضاد. ص: ١٧. وينظر أيضاً: د. عبد الصبور شاهين: في التطور اللغوي ص:٢٤٣ .

النطق بالحرف[1].

وقد نص سيبويه على أن الاستطالة في صوت الضاد تصلها بمخرج اللام، وأن الاستطالة في صوت الشين تصلها بمخرج الطاء[2]. وذهب ابن يعيش إلى " أنَّ الشين أشد استطالة من الضاد، وفيها تفش ليس في الضاد"[3]. ولعل السبب في ذلك يعود إلى أن الهواء – في أثناء انتاج صوت الشين – يتوزع – كما ذكرنا قبل قليل– في جنبات الفم ، ولا يقتصر على الفراغ الموجود بين العضوين المتقاربين.

وتعد "الاستطالة أو التفشي صفة قوة في هذين الصوتين تميزهما عن مقاربهما، أو مجانسهما من الأصوات"[4].

٩) **مجموعة الأصوات المشربة:** عالج سيبويه، في كتابه، مجموعة من الأصوات، التي أطلق عليها مصطلح "الأصوات المشربة"، وقد قسم هذه المجموعة من الأَصوات إلى ثلاثة أقسام:

أ– أصوات مشربة مصحوبة بقلقلة: تشمل هذه المجموعة

---

(١) المرجعان السابقان: ص: ١٦، و: ص: ٢٤٣ ، وينظر أيضاً: د. ابراهيم أنيس: الأصوات اللغوية ، ص:١١٩ .

(٢) الكتاب. ٤/ ٤٥٧.

(٣) ابن يعيش: شرح المفصل. ١٠/ ١٤٠.

(٤) د. تامر سلوم: نظرية اللغة والجمال في النقد العربي. ص: ١٩.

الصوتية خمسة أصوات، هي: (ق، ط، ب، ج، د). ويقصد بالقلقلة – عند سيبويه – ضغط يصاحب نطق هذه الأصوات "من مواضعها، فإذا وقفت خرج معها من الفم صُوَيْت، ونبا اللسان عن موضعه"[١]؛ فسيبويه – في هذا النص – يصف لنا آلية النطق بهذه الأصوات، التي سماها "حروف القلقلة"؛ فهي أصوات تتعرض في مخرجها إلى ضغط شديد في أثناء الوقف، ومن شأن هذا الضغط الشديد أن يؤدي – كما قال سيبويه– إلى نبو اللسان عن موضعه، مما يستتبع تذييل عملية النطق بها بما سمّاه هذا العالم "صُوَيْتاً". وهو عبارة عن صوت حركة صغيرة مختلسة لم تبلغ، في درجتها وهيئتها، درجة الحركة العادية، مثل: الفتحة، والكسرة، والضمة. وتشبه هذه الحركات المختلسة – إلى حد كبير– صوت الحركة المركزية Central Vowel، التي وصفها دانيال جونز في جدول الحركات المعيارية Cardinal Vowels، والتي تكون أعلى نقطة في اللسان حين النطق بها هي وسطه . ويرمز لهذه الحركة في جدول الرموز الدولية I P A[٢]، بالرمز (ə).

---

(١) الكتاب. ٤/ ١٧٤.

(٢) الرمز I P A هو اختصار للعبارة الإنجليزية:

International Phonetic Alphabet

ويبدو لنا أن سيبويه كان يحس بهذه الصفة التي تميز هذه الحركة من غيرها من الحركات الأخرى. فهو يعقب وصفه لأصوات القلقلة، وما تتسم به من خواص، بقوله: "وبعض العرب أشدُّ صوتا، كأنهم الذين يرومون الحركة"(١)؛ فكأن شيخنا كان يدرك بحسه المرهف الدقيق أنَّ شدة التصويت بهذه الحركة، لدى بعض الناطقين العرب، من شأنه أن يقربها من الحركة العادية.

ومن المحتمل أن يكون لجوء الناطقين العرب إلى إحداث "القلقلة" في هذه الأصوات الخمسة يعود إلى إحداث " مبالغة في الجهر بالصوت لئلا تشوبه شائبة من همس"(٢) يؤدي إلى اختفائه في أثناء النطق به.

ب- أصوات مشربة مصحوبة بنفخة: تشتمل هذه المجموعة الصوتية على أصوات (ز، ظ، ذ، ض) ثم ألحق سيبويه بهذه الأصوات الأربعة صوت الراء(٣) ويقصد بالنفخ، الذي تحدث عنه سيبويه – فيما يبدو لنا- نوع من الضغط يصاحب النطق بهذه الأصوات ، غير أنه لا يرقى إلى مستوى قوة الضغط الذي يصاحب النطق بأصوات القلقلة.

---

(١) الكتاب. ٤/ ١٧٤

(٢) د. ابراهيم أنيس: الأصوات اللغوية. ص: ١٧٩.

(٣) الكتاب : ٤/ ١٧٤-١٧٥.

ومن شأن هذه الضغط، الذي يواكب نطق هذه الأصوات، أن يُحدث نوعاً من النَّفْخ أو النَفَسيَّة Aspiration التي تذيِّل نهاية النطق بهذه الأصوات، ولعلها تشبه النفخة التي تصحب صوت الباء الإنجليزية (P). وقد ذهب سيبويه إلى أنَّ هذه النفخة ناتجة عن توقف صوت الصدر، الذي يكسب بعض الأصوات خاصة الجهر - كما سبق أن ذكرنا في أثناء حديثنا عن معنى الجهر عند سيبويه - وعندما يتوقف صوت الصدر، فإنّه يتيح الفرصة لتيار الهواء من الجريان للتنفس، كما هو الحال مع الأصوات المهموسة، التي لا يوجد لصوت الصدر- في أثناء انتاجها- دور، كما يقول سيبويه ، مما يؤدي إلى استبدال هذه النفخة، التي تحدث عنها سيبويه ، بذبذبة الوترين الصوتيين الناتجة عن صوت الصدر.

ومن الواضح أن أصوات المجموعة الأولى أصوات انفجارية مجهورة[1]، كما أنَّ أصوات المجموعة الثانية أصوات احتكاكية مجهورة، ولكن الأصوات الأولى تحتفظ بملمح جهرها، فلا يفارقها صوت الصدر الذي يكسبها هذا الملمح، ولذلك فإنها تتسم - لتأكيد ملمح الجهر فيها- بالقلقلة، حتى لا تتعرض للخفاء، أو الهمس، "فالقلقلة

(١) عدّ القدماء صوتي الطاء والقاف -كما هو معلوم- صوتين مجهورين، خلافاً للتصنيف الصوتي الحديث الذي يعدّهما صوتين مهموسين.

ليست في الحقيقة إلاّ مبالغة في الجهر بالصوت، لئلا تشوبه شائبة من همس"[1].

أما الأصوات الثانية، فإنها تتعرض -في أثناء النطق بها- إلى توقف صوت الصدر كما ذكرنا، مما يؤدي إلى وقف الذبذبات الصوتية الصادرة عن الحنجرة، فتصحب، عندئذ، عند الوقف بالنفخ، وذلك على غرار الأصوات المهموسة، ولهذا فقد وجدنا سيبويه يصف الأصوات المهموسة بأنها مصحوبة – في أثناء الوقف عندها- بالنفخة [2].

ولعل ملمح الرخاوة أو الاحتكاك، الذي يميز أصوات المجموعة الأخيرة، يمكِّن النفخة، التي تحدث عنها سيبويه، من الخروج من الفرجة أو المنفذ الكائن عند موضع انتاج الصوت. ولهذا فقد وجدنا سيبويه ينص على أنَّ "الضاد تجد المنفذ من بين الأضراس"[3]، ووجدنا الرضي ينص على أنَّ "الظاء والذال والزاي تجد منفذاً من بين الثنايا"[4].

ج- أصوات مشربة غير مصحوبة بقلقلة ولا نفخة : تشتمل هذه المجموعة الصوتية على أصوات: (ل، ن، م، ع، غ، ء) فهذه

---

(١) د. ابراهيم أنيس : الأصوات اللغوية : ص:١٧٩ .

(٢) الكتاب. ٤/ ١٧٥.

(٣) السابق. ٤/ ١٧٤، وشرح الشافية ٣/ ٢٦٣.

(٤) الرضي: شرح الشافية. ٣/ ٢٦٣.

الأصوات لا تتعرض – كما يذكر سيبويه– للضغط، الذي تتعرض له مجموعة الأصوات الأولى ، فلا تتسم – بالتالي– بخاصة القلقلة، ولا تجد منفذاً، كالذي تجده مجموعة الأصوات الثانية، فلا تتبعها – بالتالي – النفخة.

وإذا كانت مجموعة الأصوات الأولى تشتمل على أصوات انفجارية مجهورة ومجموعة الأصوات الثانية تشتمل على أصوات احتكاكية مجهورة، فإنّ هذه المجموعة الصوتية تشتمل على أصوات فيها من خصائص المجموعة الأولى، وخصائص المجموعة الثانية؛ أي أنها تشتمل على أصوات انفجارية – كما يصنفها القدماء – وهي أصوات: (ل، ن، م، ء)، وأصوات احتكاكية، وهي أصوات: (ع، غ). وتجدر الإشارة إلى أنَّ أصوات هذه المجموعات الثلاث تتسم بملمح الجهر الذي يجمع بينها ويميزها من غيرها من الأصوات.

ويبدو لنا أن سيبويه قد استخدم مصطلح الحروف المشربة ليطلقه على الأصوات المجهورة، وما تتعرض له في أثناء النطق بها من قلقلة، أو نفخ، أو خلو من خاصتي القلقلة والنفخ، وذلك في مقابل الأصوات المهموسة "غير المشربة"، التي تتسم – بالإضافة خصائصها المميزة لها – بخاصة النفخ (١) كسمة طبيعية فيها لا طارئة عليها؛ فكأن

---

(١) الكتاب ٤/ ١٧٥-١٧٦.

"الاشراب" عند هذا العالم الشيخ، صفة تكافئ الجهر، أو تحدد ما يطرأ عليه في أثناء النطق، وما يداخله من رنين وقوة يخلو منها الصوت المهموس.

الفصل الرابع

التطور التاريخي لبعض أصوات العربية

التطور التاريخي لبعض أصوات العربية

سبق لنا أن ذكرنا، أن سيبويه – مثله مثل اللغويين القدامى الذين جاءوا بعده– كان يعد الطاء، والقاف، والهمزة أصواتاً مجهورة. كما أنه كان – كغيره من اللغويين القدامى أيضاً – يصنف الضاد ضمن الأصوات الرخوة (الاحتكاكية)، كما كان يصنف صوت الجيم في مجموعة الاصوات الشديدة (الانفجارية).

ومن المعلوم أن الدرس الصوتي الحديث يعدّ صوتي الطاء، والقاف صوتين مهموسين لا جهر، أو لا أثر للجهر فيهما. كما أنه يعد الهمزة صوتاً مهموساً، أو صوتاً لا هو بالمهموس ولا بالمجهور على خلاف في ذلك. أما بالنسبة لصوت الضاد، فإن التصنيف الحديث لعلم الأصوات يضع هذا الصوت في قائمة الأصوات الشديدة (الانفجارية)، وفيما يتعلق بصوت الجيم الفصيحة، فانها تعد، في الدرس الصوتي الحديث، المعتمد على نطق مجيدي القراءات القرآنية، صوتاً مركباً Affricate.

وهكذا فإنَّ بين التصنيف الصوتي الحديث، والتصنيف الصوتي، لدى اجدادنا من علماء اللغة، خلافاً واضحاً بشأن هذه الأصوات الخمسة. فما السبب الكامن وراء هذا الخلاف؟

إنَّ الدارس لتراث العرب، في المجال اللغوي بعامة، والصوتي بخاصة، لا يملك إلا أن ينحني إكباراً وإجلالاً لعبقريتهم، التي استطاعوا بها - في وقت مبكر من حضارة الإنسان، وبدء مسيرته الفكرية - أن يضعوا تصورات ناضجة في ميدان علم ما زال العلماء، في الوقت الحاضر يبذلون، في سبيل إيجاده والتقعيد له، جهوداً مضنية، دون أن يصلوا به إلى نهاية الشوط، أو حتى إلى مستوى من مستويات الاتفاق حول الكثير من مسائله وقضاياه.

ومع ذلك فإنه ليس بوسع الدارس اللغوي، للخلافات القائمة بين وجهات النظر الصوتية القديمة والحديثة، إلا أن يضع بعض الاحتمالات التي قد ترتد إليها تلك الخلافات، أو إلى بعضها على الأقل. ومن تلك الاحتمالات - على سبيل المثال-:

١. ألا يكون مفهوم القدماء من لغويي العرب - وعلى رأسهم شيخهم سيبويه-لظاهرتي الجهر والهمس، والاحتكاك والانفجار واضحاً على النحو الذي استقر عليه التصنيف الصوتي الحديث.

٢. أو أن التوفيق لم يحالف سيبويه - ومن لفَّ لفَّه من العلماء- في وصف هذه الأصوات، فوضعوا المهموس مجهوراً، والشديد رخواً.

٣. أو أن يكون هناك تطور قد عرض لتلك الأصوات في الألسن المعاصرة، جعلها مختلفة عن المألوف الذي كانت عليه في الألسن

القديمة.

ويبدو لنا أن الاحتمال الأول ليس قوياً، وأنه لا يقوى على الصمود أمام البراعة والدقة، التي اتسم بهما تصنيف سيبويه للأصوات العربية، وتحديد الملامح المختلفة التي اتسمت بها.

وفي مقابل ذلك، فإننا لا نستبعد أن يكون هناك تطور قد طرأ على نطق هذه الأصوات في الألسن المعاصرة. أو أن يكون الوصف "السيبويهي" لتلك الأصوات غير دقيق، وخاصة أنه – أي سيبويه– كان – كما كان غيره أيضاً – يعالج الأصوات ويصنفها معتمداً في ذلك كله على حسه وذوقه الشخصي، دونما أجهزة أو آلات تمكِّنُه من الوصف العلمي الدقيق ، الذي اتسم به هذا العلم في الوقت الحاضر.

وسنحاول – في الصفحات الآتية – توضيح هذا الأمر ، وجلاءه آملين ان نتعرف إلى ماضي هذه الأصوات ، وما يمكن أن يكون قد طرأ عليها في رحلة انتقالها من اللسان القديم إلى وضعها المعاصر في الألسن العربية.

أولاً– صوت الطاء:

وصف سيبويه – وغيره من اللغويين العرب القدامى– صوت الطاء بأنه صوت شديد مجهور مفخم، وعده واحداً من أصوات

المجموعة المسماه "حروف القلقلة"، وهي القاف، والطاء، والباء، والجيم، والدال، التي يجمع بينها ملمحا الشدة والجهر. كما أن شيخنا عدَّ هذا الصوت مقابلاً مفخماً لصوت الدال، فهما – أي الطاء والدال– يتفقان– عنده– في ملمحي المخرج والجهر، ويختلفان في كون الطاء صوتاً مفخماً، والدال صوتاً مرققاً مقابلاً له . وفي هذا يقول سيبويه:" لولا الإطباق – أي التفخيم– لصارت الطاء دالاً..."[1].

وهذا الوصف لصوت الطاء عند سيبويه، ومن سار على هديه من اللغويين، يختلف عن وصف المحدثين له؛ فهو – في الوصف الصوتي الحديث– صوت أسناني لثوي، انفجاري، مهموس، مفخم، يتم النطق به عندما يلتصق طرف اللسان بالأسنان العليا، ومقدمه باللثة، كما يرتفع مؤخره – في الوقت نفسه– نحو الطبق، ويتأخر قليلاً نحو الجدار الخلفي للحلق، كما أنَّ اللسان – حال النطق بهذا الصوت– يتخذ شكلاً مقعراً؛ أي يرتفع أقصاه وطرفه مع تقعير وسطه. وعندما يفترق طرف اللسان عن موضعه يندفع الهواء المتراكم خلف نقطة الالتقاء محدثاً انفجاراً مسموعاً، ولا يتذبذب الوتران الصوتيان عند النطق به.

ويكمن الخلاف بين تصنيف سيبويه لهذا الصوت، وتصنيف المحدثين له، في أنّ سيبويه – والتراث الصوتي أيضاً –عدَّ هذا الصوت

(١) الكتاب. ٤/ ٤٣٦.

مجهوراً، وأنه المقابل المفخم لصوت الدال، في حين يعده المحدثون – كما ينطقه مجيدو القراءات القرآنية –صوتاً مهموساً، ويعتبرونه المقابل المفخم لصوت التاء.

والواقع أنّ وصف سيبويه لهذا الصوت بأنه المقابل المفخم لصوت الدال، هو الذي سوغ له – ولغيره –وصفه بالجهر، حيث يؤدي اعتبار التفخيم والترقيق، الفارق الرئيس والوحيد بين هذين الصوتين، إلى اتفاقهما في كل الخصائص والملامح، ومن بينها ملمح الجهر.

أما وصف المحدثين لهذا الصوت، بأنه المقابل المفخم لصوت التاء، فقد سوغ لهم وصفه بالهمس، حيث يؤدي اعتبار التفخيم والترقيق الفارق الرئيس والوحيد بين هذين الصوتين إلى اتفاقهما في كل الخصائص والملامح، ومن بينها الهمس.

وكما يبدو لنا المحدثون منسجمين مع أنفسهم أيضاً في وصف هذا الصوت بالهمس، فإنَّ القدامى يبدون منسجمين مع أنفسهم أيضاً في وصف هذا الصوت بالجهر، ومن شأن هذا التصور أن يقودنا إلى استنتاج مؤداه: أنَّ الطاء، التي يتكلم عنها المحدثون، ليست هي الطاء التي تحدث عنها القدماء، وعلى رأسهم شيخهم سيبويه.

إذن فما هي هذه الطاء، التي وصفها سيبويه، وتحدث عنها، وخلع عليها ملمح الجهر، واعتبرها المقابل المفخم لصوت الدال؟

يقرر الدرس الصوتي الحديث، أنّ المقابل المفخم لصوت الدال هو صوت الضاد الحالية، فهل كانت الطاء التي تحدث عنها شيخنا تقابل ضادنا الحالية؟

يرى الدكتور إبراهيم أنيس "أنه من الممكن أن نستنتج من وصفهم – يعني القدماء– أنها كانت صوتاً يشبه الضاد التي نعرفها الآن. وهنا يتضح قول ابن الجزري: إنّ المصريين ينطقون بالضاد المعجمة طاء مهملة."(١)

وهذا يعني أن هناك خلافاً حاداً بين صوت الضاد بمفهوم القدماء، وربما في نطقهم أيضاً، وهذا الصوت نفسه عند المحدثين من علماء الأصوات. ويؤكد علماء اللغة القدامى هذا الخلاف عندما يذكرون بأن الإطباق هو الفارق الوحيد بين الطاء والدال. يقول سيبويه:" لولا الإطباق لصارت الطاء دالاً...، ولخرجت الضاد من الكلام، لأنه ليس من موضعها – أي مخرجها– شيء غيرها"(٢).

ونحن نعلم –كما يزودنا الدرس الصوتي الحديث لعلم الأصوات –أن المخرج الذي ينتمي إليه صوت الضاد، وهو المخرج الأسناني اللثوي Denti alveolar، لا ينفرد به هذا الصوت وحده،

---

(١) د. ابراهيم أنيس: الأصوات اللغوية. ص: ٦٢.

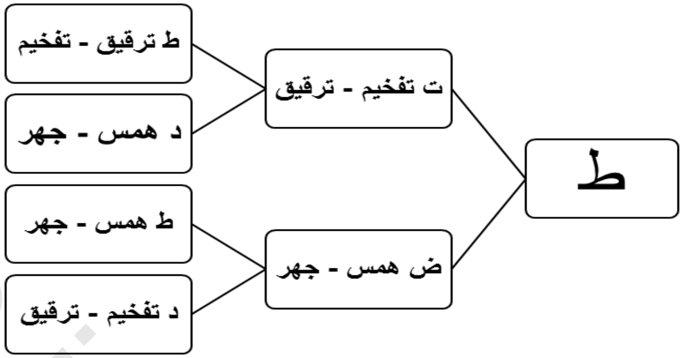
(٢) الكتاب. ٤/ ٤٣٦

وإنما تشترك معه فيه أصوات أخرى، هي: الطاء، والدال، والتاء، والسين، والصاد، والزاي.

وإضافة إلى ذلك، فإنَّ القدماء يعدون الضاد صوتاً مفخماً، ليس له مقابل مرقق، على خلاف المحدثين، الذين يعدّون الدال مقابلاً مرققاً لصوت الضاد المفخم. وهذا من شأنه أن يؤدي بنا إلى اعتقاد جازم بأنّ الضاد القديمة لم تكن في النطق شبيهة بالضاد الحديثة، وهذا يرجح في نظرنا اعتبار الطاء القديمة المجهورة صوتاً شبيهاً، أو قريب الشبه جداً، بصوت الضاد الحالية.

إنّ شبكة العلاقات الصوتية، التي تربط بين الأصوات المفخمة، ومقابلاتها المرققة، والأصوات المجهورة، ومقابلاتها المهموسة، تمكننا من تأكيد هذه الحقيقة التي نذهب إليها.

فصوت الطاء الحالي، صوت شديد مهموس مفخم، يقابله صوت التاء الشديد المهموس المرقق، ويقابله – من ناحية أخرى–صوت الضاد الشديد المجهور المفخم. ويرتبط صوتا التاء والضاد المقابلان لصوت الطاء في الترقيق والجهر على التوالي، بشبكة علاقات وترقيق وجهر وهمس مع أصوات أخرى، والتخطيط التالي يوضح ذلك:



وهكذا يتضح لنا، أن طروء الجهر على الطاء يحولها إلى مقابلها المجهور وهو الضاد، في حين يؤدي طروء الهمس على الضاد إلى تحويلها إلى مقابلها المهموس، وهو الطاء.

ومما يؤكد هذا الاستنتاج، ما ذهب إليه المستشرق الألماني برجشتراسر من أن "الطاء أيضاً مهموسة اليوم، مجهورة في الجدول (أي في الجدول الذي وضع فيه وصف القدامى للأصوات العربية)، والفرق بينها وبين القاف، أن نطق القاف العتيق لا يزال باقياً في بعض اللهجات، ونطق الطاء العتيق قد انمحى وتلاشى تماماً."[1]

كما يؤكد ذلك المستشرقُ الألماني "شاده"حيث يقول: "سيبويه يعد من المجهورة الطاء والقاف. وفي لفظ عصرنا لا نصيب للأوتار الصوتية في انتاجها ولكن ذلك لا يصح إلا عن لفظ المدارس (أي

---

(١) برجشتراسر: التطور النحوي للغة العربية. ص: ١٧

الفصحى الحالية)، وأما اللهجات، فتخالفها مخالفة شديدة؛ فإنَّ سكان جنوب جزيرة العرب مثلاً، يلفظون الطاء كأنها ضاد المصريين، والقاف كأنها جيم المصريين بإطباق، فيقولون مثلاً: (وجَع فوجَنا مَضَر) يعني وقع فوقنا مطر، أو (قَضعْتُ وَرَجَة) يعني: قطعت ورقة. ومثل ذلك يصح عن غير لهجة جنوب جزيرة العرب، من اللهجات العصرية"[1].

وعلى هذا، فإنّ التطور الصوتي الذي لحق صوت الطاء القديمة يتمثل في أنه انقلب إلى مقابله المهموس وشبيهه في الاطباق، وهو صوت الطاء الحالية. إنَّ كل ما حدث لهذا الصوت، في رحلة تطوره، يتجلى في توقف الوترين الصوتيين عن الذبذبة، مما أدى إلى تحوله في النطق، إلى صوت مهموس على كل مستوى من مستويات النطق في عالمنا العربي، وفي قراءة القرآن الكريم أيضاً.

ثانياً- صوت القاف:

وصف سيبويه – وغيره من اللغويين العرب- صوت القاف بأنه صوت شديد (انفجاري) يخرج "من أقصى اللسان وما فوقه من الحنك

(١) شاده: علم الأصوات عند سيبويه وعندنا. ص: ١٣.

الأعلى، ثم ذهب هذا العالم إلى أن هذا الصوت يتسم - بالإضافة إلى ذلك – بملمح الجهر".[1]

أما عند المحدثين، من دارسي الأصوات والباحثين فيها، فإنه صوت لهوي، انفجاري، مهموس يتم انتاجه عندما يرتفع أقصى اللسان حتى يلتقي بأدنى الحلق واللهاة، ثم يضغط الهواء المتراكم خلف نقطة الالتقاء مدة من الزمن إلى أن ينخفض أقصى اللسان فجأة فيندفع الهواء محدثاً صوتاً انفجارياً مسموعاً، ولا يتذبذب الوتران الصوتيان حين النطق به.

ويعني هذا، أن هناك مسألة خلاف رئيسية بين وصف سيبويه – ومن لف لفه من العلماء – لهذا الصوت ، ووصف المحدثين له ؛ وتتمثل هذه المسألة الخلافية في أنَّ سيبويه كان يعد هذا الصوت صوتاً مهموساً لا جهر فيه.

ويبدو لنا أن السبب، في هذا الخلاف، يعود إلى أحد احتمالين:

أولهما: أن القاف التي تحدث عنها سيبويه كانت صوتاً يشبه – إلى حد كبير – تلك القاف المجهورة التي نسمعها الآن بين القبائل العربية في السودان، وبعض القبائل في جنوبي العراق ، فهم ينطقون بها نطقاً

(١) الكتاب. ٤/ ٤٣٣- ٤٣٤

يخالف نطقها في معظم اللهجات العربية الحديثة ، إذ نسمعها منهم نوعاً من "الغين"[1].

والواقع أن صوت القاف، وهو صوت انفجاري شديد، يميل في النطق اللهجي، في بعض البيئات العربية، إلى الاقتراب من صوت الغين المجهور، أو صوت الخاء المجهَّر، وذلك فيما إذا خفت حدة الشدة فيه، مما يؤدي إلى اكتسابه صفة الاحتكاك الشديد، أو الحاد الناجم- في تصورنا - عن أحد احتمالين:

١. اعتراض اللهاة -وهي- كما هو معروف - قطعة لحمية صغيرة تشرف على الحلق في أقصى الفم ، وتتدلى من سقف الحنك الرخو، أو الطبق – لتيار الهواء المتدفق من الرئتين عبر الحنجرة والحلق على نحو متكرر، وهذا من شأنه أن يجعل الصوت الناتج، قريب الشبه بصوت الغرغرة ، الذي ينسجم "فوناتيكياً" مع صوت الغين إلى حد كبير.

وفي هذه الحالة، فإنَّ اللهاة تبقى العنصر العضوي الفعال في عملية الانتاج الصوتي، ومن شأن هذا – في حالة اطراد حدوثه – أن يضفي صفة الشرعية على وصف القدماء ، أو وصف بعضهم كالخليل

---

(١) د. إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية. ص: ٨٤.

وابن يعيش ، لهذا الصوت بأنه صوت لهوي[١] . بيد أنّ الصوت الناتج لا يكون قافاً لهوية شديدة مهموسة، كما هي الآن في النطق المعاصر، وإنما يكون صوتاً لهوياً احتكاكياً مجهوراً، أو صوتاً لهوياً شديداً مجهوراً؛ بسبب الشبه القائم بين الغرغرة، التي يتسم بها هذا الصوت، والتكرار الذي يتصف به صوت الراء الذي وصفه سيبويه نفسه بالشدة. ويُسمع مثل هذا الصوت – بجلاء ووضوح –في بعض البيئات الفلسطينية، حيث يجنح بعض الناطقين اللهجيين في أثناء نطقهم لهذا الصوت، إلى إخراج صوت شبيه بصوت الغرغرة إلى حد كبير.

٢. تقدم مخرج هذا الصوت – لا وهو اللهاة في الأصل –إلى الأمام قليلاً، حيث صادف الطبق، الذي يعدُّ مخرج كل من أصوات الكاف والغين والخاء، وفي هذه الحالة، فإن هذا الصوت ينقلب إلى صوت شبيه بصوت الغين المجهور، أو صوت الخاء المجهَّر، كما ذكرنا قبل قليل. ويسمع مثل هذا الصوت في السودان وجنوبي العراق، كما يُسمع في بعض الكلمات المصرية كما يذكر الدكتور رمضان عبد التواب.[٢]

---

(١) الخليل بن أحمد: العين. ١/ ٦٥. وكذلك:

ابن يعيش: شرح المفصل. ١٠/ ١٢٤.

(٢) المدخل إلى علم اللغة. ص: ٧٣- ٧٤.

ولهذا النوع، من النطق بالقاف، أمثلة من التراث القديم؛ فقد ذكر أبو الطيب اللغوي أن من العرب من يقول: غلام أقلف وأغلف، أي لم يختن، والقمز من الناس والغمز، أي الرذال ومن لا خير فيه، وقلقل في الأرض وغلغل، أي ذهب في الأرض[1].

وثانيهما: أنّ القاف التي تحدث عنها سيبويه، كانت صوتاً قريب الشبه بالجيم القاهرية (g)، ويتسم هذا الصوت الأخير بالشدة كالقاف، إلا أنه يختلف عنه في صفة الجهر، وتقدم المخرج إلى الأمام قليلاً.

ويؤيد هذا الرأي ويدعمه، نطق كثير من أبناء اللهجات العربية لصوت القاف على هذا النحو الذي ألمحنا إليه؛ فالكثير من القبائل البدوية، وأغلب الناطقين في شرقي الأردن، يحولون ها الصوت في نطقهم إلى صوت الـــچـــاف، أو ما يُسمى بالجيم "القاهرية". وفي هذه الحالة، فإنَّ مخرج القاف يتقدم إلى الأمام قليلاً حيث المخرج الطبقي، أو بدايته، أو لنقل حيث المخرج الممكن وقوعه بين المخرجين اللهوي والطبقي. وممّا يعزز هذا الاتجاه، أنّ بعض القدماء، كالخليل وابن يعيش وغيرهما، صنفوا مع صوت القاف في المخرج، صوت الكاف. ومن

---

(١) أبو الطيب اللغوي: الإبدال. ٢/ ٣٢٨- ٣٢٩.

المعروف أن صوت الكاف هذا صوت طبقي (قصيّ) يقترب في مخرجه من المنطقة المتوسطة بين اللهاة والطبق.

ولهذا النوع من النطق بالقاف أمثلة في التراث العربي، فقد روى أبو الطيب اللغوي قول العرب: بائقة وبائجة للداهية، وأحنق وأحنج، أي ضمر الفرس، وتلقفت البئر وتلجفت، أي أكل الماء جوانبها، وزلَّقت الموضع وزلّجته أي ملّسته[1].

ويروي ابن دريد أن بني تميم "يلحقون القاف بالكاف فتغلظ جداً، فيقول: الـــگـــوم، يريدون القوم، فتكون القاف بين الكاف والقاف، وهذه لغة معروفة في بني تميم، قال الشاعر[2]:

ولا أگول لـگدر الـگوم گـد نضجت ... ولا أگـول لباب الدار مـگـفول

وهكذا، فقد تكون صورة النطق بهذا الصوت في الماضي متعددة، ولم تلتزم صورة موحدة، أو شبه موحدة. غير أن القاسم المشترك، أو الجامع، بين صور النطق المختلفة لهذا الصوت، يتمثل في ملمح الجهر، الذي وصفه به سيبويه واللغويون القدامى بعامة – بالإضافة إلى عدم الالتزام الدقيق بالمخرج اللهوي بالمعنى الحديث.

---

(١) أبو الطيب اللغوي: الإبدال. ٢/ ٢٣٩- ٢٤٠.

(٢) ابن دريد: جمهرة اللغة. ١/ ٥.

ولم يقتصر تعدد صور النطق بهذا الصوت على وضعه في ألسن القدماء فحسب، فالواقع النطقي المعاصر لهذا الصوت لا يقل اختلافاً وتنوعاً عمَّا كان عليه في الماضي. بل إنَّ صور النطق بالقاف المعاصرة، قد اتخذت أكثر من اتجاه تطوري، وخاصة في المجال المخرجي، "وتطور الصوت بتغيير مخرجه يكون بأحد طريقين، إما بانتقال المخرج إلى الوراء أو إلى الأمام، باحثاً الصوت في انتقاله عن أقرب الأصوات شبهاً به من الناحية الصوتية"[1]، وهذا ما حدث لصوت القاف في تطوره المعاصر؛ فبالإضافة إلى الصور النطقية القديمة لهذا الصوت، والتي ما تزال حية على ألسنة الكثيرين من أبناء العربية، في بيئات لغوية مختلفة، فقد وجدنا أن نطق بعض العرب لهذا الصوت قد اتخذ اتجاهين تطوريين آخرين تمثلا فيما يأتي:

١) تراجع مخرج نطق هذا الصوت، في ألسنة معظم سكان المدن والحواضر العربية، إلى الخلف، فصادف في طريقه مخرجين اثنين، هما: المخرج الحلقي، والمخرج الحنجري، ولا يوجد في هذين المخرجين، حسب التصنيف الصوتي الحديث، ما يقابل صوت القاف في ملمحي

(١) د. إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية. ص: ٨٦.

الشدة والهمس إلا صوت الهمزة الحنجري الشديد المهموس[1]، ممّا سهل عملية تطور هذا الصوت ، وهو القاف ، إلى أكثر الأصوات شبهاً به في الملمح وهو الهمزة.

ويبدو أنّ مثل هذا التطور لم يكن مقصوراً على نطق القاف المعاصرة، فقد روي لنا مثل هذا التطور في بعض كتب التراث؛ فها هو ذا أبو الطيب اللغوي يروي بعض الأمثلة، التي وردت – كما سمعها عن العرب– بالقاف والهمزة، ومنها قول بعض العرب: قشبه وأشبه، أي لامه وعابه. والقوم زهاق مائة، وزهاء مائة، أي قريب من مائة. والقفز والأفز، أي الوثب[2].

٢) تقدم مخرج نطق هذا الصوت – في رحلة تطوره على ألسنة معظم سكان الأرياف، وخاصة في فلسطين– إلى الأمام، فصادف في طريقه مخرج الطبق، أو الحنك اللين، ولا يوجد في هذا المخرج حسب التصنيف الصوتي الحديث، ما يقابل صوت القاف في ملمحي الشدة

---

(١) يعدُّ بعض اللغويين صوت الهمزة صوتاً مهموساً. يُنظر على سبيل المثال:
د. تمام حسان: مناهج البحث في اللغة. ص: ٩٧. وكذلك:
د. عبد الرحمن أيوب: أصوات اللغة. ص: ١٨٣. كذلك:
د. عبد الصبور شاهين: في التطور اللغوي. ص: ٢٤٠.

(٢) أبو الطيب اللغوي: الإبدال. ٢/ ٥٦١– ٥٦٢.

والهمس، إلا صوت الكاف الطبقي الشديد المهموس، مما سهل عملية تطور هذا الصوت، وهو القاف، إلى أكثر الأصوات شبهاً به في الملمح وهو الكاف.

وعلى الرغم من هذا التعدد النطقي لصوت القاف في الماضي والحاضر، إلا أنَّ الاتجاه السائد بين الدارسين اللغويين يميل إلى ترجيح كون القاف القديمة صوتاً شديداً مجهوراً، قريباً في نطقه من نطق الجيم القاهرية، ولعل هذا عائد إلى كثرة الناطقين بهذا الصوت على هذه الشاكلة، مما أدى إلى ذيوعها وانتشارها كثيراً، بالقياس إلى غيرها من الصور المحلية لنطق هذا الصوت.

بيد أن هذه الصورة النطقية قد تعرضت مع الزمن إلى نوعين من التطور، وقد شمل أحدهما منطقة المخرج، حيث تراجع إلى الخلف قليلاً فأصبح لهوياً صرفياً، وشمل ثانيهما صفة الجهر، حيث أصبح مهموساً لا أثر لاهتزاز الوترين الصوتيين فيه. ولقد تجلى هذا التطور، عبر العصور، بوضوح على ألسنة قراء القرآن الكريم الذين نعتبرهم – ويعتبرهم غيرنا أيضاً – مصدر التوثيق والتأصيل في ميدان الدرس التاريخي لأصوات العربية.

ثالثاً- صوت الهمزة :

وصف سيبويه – وغيره من اللغويين القدماء – صوت الهمزة، بأنه صوت مجهور، وأنه – بالإضافة إلى ذلك – ينتمي مع أصوات أخرى إلى المخرج الحلقي[1].

وقد ذكرنا في موضوع سابق[2]، أن نسبة الهمزة إلى المخرج الحلقي أمر ليس بالدقيق؛ إذ إنّ صوت الهمزة يخرج – ومعه في التصنيف الحديث صوت الهاء- من الحنجرة. وقلنا إنّ من المحتمل أن يكون مصطلح الحلق لدى سيبويه – وغيره من اللغويين القدماء- مصطلحاً عاماً أُطلق ليشمل – بالتعميم- تلك المنطقة الواسعة التي تشتمل على أكثر من مخرج من بينها الحنجرة.

وقلنا – أيضاً –لعل مصطلح الحنجرة لم يكن معروفاً لدى سيبويه ولدى غيره من القدماء، على نحو محدد، ذلك أن معرفة هذه المنطقة المسماة حنجرة بحاجة إلى أجهزة ووسائل علمية لم تكن، في عصر هذا العالم، بَلْه عصر من جاء بعده من العلماء، معروفة.

أما بالنسبة لملمح الجهر الذي وصف به سيبويه- ومعه التراث

---

(١) الكتاب. ٤/ ٤٣٣- ٤٣٤.

(٢) يُنظر، ص: ٧٥، وما بعدها من هذه الدراسة.

اللغوي- صوت الهمزة فإنها مسألة خلافية ما زالت موضع مناقشة حتى الآن.

فالدكتور تمام حسّان، والدكتور رمضان عبد التواب، والدكتور عبد الرحمن أيوب وغيرهم، يعدّون الهمزة صوتاً مهموساً، "وتأتي جهة الهمس في هذا الصوت من أن إقفال الأوتار الصوتية معه لا يسمح بوجود الجهر في النطق. ولكن النحاة والقراء أخطأوا فعدوا هذا الصوت مجهوراً، وهو أمر مستحيل استحالة مادية ما دامت الأوتار الصوتية مقفلة في أثناء نطقه"(١)

أما الدكتور إبراهيم أنيس، والدكتور محمود السعران، والدكتور كمال بشر وغيرهم، فإنهم يعدّون صوت الهمزة صوتاً لا هو بالمجهور، ولا بالمهموس؛ "لأنّ فتحة المزمار معها مغلقة إغلاقاً تاماً، فلا نسمع لهذا ذبذبة الوترين الصوتيين، ولا يسمح للهواء بالمرور إلى الحلق إلا حين تنفرج فتحة المزمار، ذلك الانفراج الفجائي الذي يُنتج الهمزة"(٢). ومعنى هذا "أنَّ وضع الأوتار الصوتية حال النطق بها (أي الهمزة) لا يسمح بالقول بوجود ما يسمى بالجهر، أو ما يُسمى بالهمس "(٣).

---

(١) د. تمام حسان: منهاج البحث في اللغة. ص: ٩٧.

(٢) د. ابراهيم أنيس: الأصوات اللغوية. ص: ٩٠.

(٣) د. كمال بشر: علم اللغة العام، الأصوات. ص: ١١٢.

ويبدو أن الدكتور أنيس، صاحب فكرة هذا الملمح لصوت الهمزة، قد أخذ هذا الرأي – كما يقول الدكتور عبد الرحمن أيوب–عن الأستاذ دانيال جونز D. Jones، في كتابه An out Line of English Phonetics. (الطبعة السادسة ص:١٣٨ سنة ١٩٤٧ في إنجلترا)، حيث وصف الهمزة قائلاً:

(It is neither breathed nor voiced)، وقد فهم الدكتور أنيس كلمة (breathed) بمعنى "مهموس"[(١)].

وهكذا فقد انقسم اللغويون المحدثون إزاء هذا الملمح إلى قسمين: قسم يصف الهمزة بالهمس، وقسم ينفي عنها صفة الهمس، ولكنه لا يضفي عليها الجهر. غير أن أحداً من المحدثين لم يصف الهمزة – كما فعل سيبويه وكل من جاء بعده من اللغويين– بالجهر. فما الدافع الذي حدا بالقدماء، وعلى رأسهم سيبويه، على وصف الهمزة بملمح الجهر؟

نقول: لعل السبب في ذلك يعود إلى واحد أو أكثر من الاحتمالات الآتية:

١) لقد تداخل صوتا الألف والهمزة، في التصنيف الصوتي للغويين العرب القدامى. ونسب بعضهم – مثل سيبويه وآخرين–هذين

---

(١) د. عبد الرحمن أيوب: أصوات اللغة. ص: ١٨٤.

الصوتين – ومعهما أصوات العين، والحاء، والغين، والخاء- إلى المخرج الحلقي. في حين وصف الخليل بن أحمد هذين الصوتين –ومعهما صوتا الواو والياء- بأنها أصوات هوائية ؛ لأنها – كما يقول الخليل نفسه- لا يتعلق بها شيء[1].

وقد حاول بعض اللغويين القدامى – كما مرّ معنا – التوحيد بين هذين الصوتين، واعتبارهما شيئاً واحداً، أو كأنها بمنزلة الشيء الواحد، ممّا جعل العلاقة بين هذين الصوتين علاقة قوية. ولما كانت حروف المد واللين، التي منها الألف، حروفاً مجهورة فليس من المستبعد، أو المستغرب، أن توصف الهمزة، بما توصف به – في العادة- الألف، ونعني بذلك الجهر.

٢) عندما تتعرض الهمزة للتسهيل، فإنّ "اقفال الأوتار الصوتية قد لا يكون تاماً حين النطق به، بل يكون اقفالاً تقريبياً، وفي حالة التسهيل هذه يحدث الجهر..."[2]

ومن المعلوم أنّ قريشاً، وأهل الحجاز بعامة، كانوا لا يلتزمون الهمز في كلامهم، ويعمدون إلى التخلص منه بطرق مختلفة من بينها التسهيل. في حين كانت بعض القبائل البدوية، وعلى رأسها قبيلة تميم،

(١) الخليل بن أحمد: العين. ١/ ٥٨.

(٢) د. تمام حسان: مناهج البحث في اللغة. ص: ٩٧.

تحقق الهمز. وقد ذكر ابن منظور، في خاتمة مقدمة معجمه "لسان العرب"، قول أبي زيد الأنصاري: "أهل الحجاز وهذيل وأهل مكة والمدينة لا ينبرون، وقف عليها عيسى بن عمر، فقال: ما آخذ من قول تميم إلا بالنبر[1]، وهم أصحاب النبر، وأهل الحجاز إذا اضطروا نبروا. قال: وقال أبو عمر الهذلي قد توضيت فلم يهمز وحوَّلها ياء، وكذلك ما أشبه هذا من باب الهمز"[2].

وبناء على هذا، فلعل ما ذهب إليه سيبويه، وغيره من اللغويين، من وصف الهمزة بملمح الجهر، يكون وصفاً لهذا النوع من الهمز الذي كان النطق به يغطي مساحة كبيرة من مساحات النطق اللغوي.

٣) ربما كانت الهمزة، التي وصفها سيبويه بالجهر، همزة متبوعة بحركة ما، ومن شأن هذا أن يؤدي إلى تأثر صوت الهمزة بملمح الجهر الذي تتسم به كل الحركات. الأمر الذي أدى بدوره إلى وصف الهمزة بالجهر الذي تأثرت به من الحركة المجاورة لها. ولتوضيح ذلك نقول: إنّ

---

(١) يقصد بالنبر الهمز، قال ابن منظور في أثناء شرحه لمادة "نبر" "والنبر: مصدر نبرَ الحرفَ ينبره نبراً همزهُ. وفي الحديث قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم: يا نبيء الله فقال لا تنبر باسمي، أي لا تهمز، وفي رواية: فقال: إنَّا معشر قريش لا ننبر، والنبر همز الحرف، ولم تكن قريش تهمز في كلامها"

(٢) مقدمة معجم لسان العرب لابن منظور.

تيار الهواء الصادر من الرئتين، والمار في القصبة الهوائية، يتعرض للانحباس خلف الوترين الصوتيين في منطقة فراغ الحنجرة، فيضغط هذا الهواء إلى أن يُفتح الوتران الصوتيان المنطبقان، مما يؤدي إلى انطلاقه محدثاً انفجاراً تعقبه ذبذبة في الوترين الصوتيين تُمثِّل الجهر الذي تتسم به الحركة التالية لصوت الهمزة مباشرة. ويبدو أن هذه الآلية قد أوقعت علماءنا القدامى في وهم أن الهمزة هي محل الجهر، أو ربما أحسوا بشيء من الجهر في الهمزة المتأثرة بالحركة التالية لها.

رابعاً- صوت الضاد:

وصف سيبويه - ومعه غيره من اللغويين العرب القدامى- هذا الصوت بأنه صوت رخو (احتكاكي) يتم انتاجه من بين أول حافة اللسان، وما يليها من الأضراس، وأنه - بالإضافة إلى ذلك- صوت مجهور مطبق (مفخم)(١).

أما عند المحدثين من اللغويين، فإنه صوت انفجاري (شديد) يتم انتاجه عندما ينحبس تيار الهواء الصادر من الرئتين احتباساً تاماً خلف منطقة التقاء طرف اللسان بأصول الثنايا العليا ومقدم اللثة، كما يصاحب نطق هذا الصوت ارتفاع مؤخر اللسان تجاه الطبق وعندما

---

(١) الكتاب. ٤/ ٤٣٣- ٤٣٦.

ينفصل اللسان عن نقطة الالتقاء، ينطلق الهواء محدثاً صوتاً انفجارياً، يتذبذب، في أثناء النطق به، الوتران الصوتيان.

وعلى هذا فصوت الضاد، يعد المقابل المفخم للدال، والمقابل المجهور للطاء؛ فالفارق بين صوتي الضاد والدال هو فارق التفخيم والترقيق، كما أنَّ الفارق بينه وبين صوت الطاء، هو فارق الجهر والهمس. فالضاد – بناء على هذا الوصف عند المحدثين- صوت أسناني لثوي انفجاري مجهور مفخم (مطبق).

ويتضح لنا من مقارنة وصف سيبويه – ومعه التراث اللغوي العربي- ووصف المحدثين لهذا الصوت، أن ثمة فروقاً أساسية بين الضاد العربية القديمة، والضاد المعاصرة التي يُنطق بها الآن في معظم أنحاء العالم العربي، وإنَّنا لمجملون أَهمَّ تلك الفوارق فيما يأتي من سطور:

أولاً- ملمح المخرج:

وهو – عند المحدثين- كما ذكرنا قبل قليل- المخرج الأسناني اللثوي، أو المخرج اللثوي، كما يذكر بعضهم، في حين ينتج هذا الصوت – كما يذكر سيبويه- من مخرج "من بين أول حافة اللسان، وما يليها من الأضراس" أو – كما يقول ابن جني- " من أول حافة اللسان، وما يليها من الأضراس، إلا أنك إن شئت تكلفتها من الجانب الأيمن، وإن شئت

من الجانب الأيسر"[١]. ويشرح ذلك – أو لنقل يكرره – المبرّد حيث يقول: "الضاد ومخرجها من الشدق فبعض الناس تجري له في الأيمن، وبعضهم تجري له في الأيسر".[٢]

وينسب الخليل بن أحمد صوت الضاد إلى مخرج الجيم والشين، فيقول:" ثم الجيم والشين والضاد في حيز واحد"[٣]، ثم يحدد هذا العالم الكبير – بعد ذلك- مخرج هذه الأصوات الثلاثة، وهو شجر الفم، فيقول: "الجيم والشين والضاد شجرية لأن مبدأها من شجر الفم"[٤].

ولكن سيبويه يذهب – خلافاً لما سبق- إلى أنّ صوت الضاد يستقل بمخرجه، ولا يشاركه فيه غيره من الأصوات؛ فهو يقول – كما ذكرنا غير مرة –:" ولولا الاطباق لصارت الطاء دالاً، والصاد سيناً، والظاء ذالاً، ولخرجت الضاد من الكلام، لأنه ليس شيء من موضعها غيرها".[٥]

---

(١) ابن جني: سر صناعة الإعراب. ١/ ٤٧.

(٢) المبرد: المقتضب. ١/ ١٩٣.

(٣) الخليل بن أحمد: العين. ١/ ٥٨.

(٤) السابق. ١/ ٥٨.

(٥) الكتاب ٤/ ٤٣٦.

وهكذا، فإنّ مخرج الضاد، عند سيبويه، يختلف عن مخرجها الذي يصفه المحدثون. وهذا يوحي - بوضوح- أن الضاد التي كان يتحدث عنها سيبويه قد طرأ عليها – في نطق المعاصرين- تطور ليس بالقليل.

فهي – عند سيبويه- من بين أول حافة اللسان، وما يليه من الأضراس ، أو – كما يقول ابن جني وآخرون- من هذا الموضع مع امكان تكلفها من الجانب الأيمن، أو من الجانب الأيسر، أو هي – كما قال لغويون آخرون- من الشدق أو شجر الفم . وممّا عقَّدَ الأَمر، وجعله أكثر صعوبة في التصور، ما ذهب إليه سيبويه، وأشرنا إليه آنفاً – وهو استقلالية هذا الصوت بمخرجه، وعدم اشراك غيره معه في موضع اخراجه ونطقه.

أمّا الضاد الحالية، فإنها أَحد الأصوات التي تنتمي – وينتمي معها عدد كبير من الأصوات العربية- إلى المخرج الأسناني اللثوي . لهذا كله، فإنّ الضاد القديمة – من ناحية المخرج - غير الضاد التي يصفها دارسو أصوات العربية المحدثون، وينطق بها معظم أبناء العربية في الوقت الحاضر.

ثانياً- ملمح الرخاوة:

وصف سيبويه هذا الصوت بأنه صوت رخو (احتكاكي)، وأنّ تيار الهواء المنتج له يخرج – كما يذكر القدامى- من الجانب الأيمن، أو

من الجانب الأيسر، أو من كلا الجانبين. ولهذا فقد وصف سيبويه هذا الصوت بالاستطالة كما وصفه غيره من اللغويين - إلى جانب الاستطالة- بالتفشي[1].

ولقد نص سيبويه على أنّ صفة الاستطالة بالضاد تصلها بمخرج اللام[2]. ومن شأن هذا أن يُقدم لنا مساعدة جيدة في مجال تصور الوضع النطقي القديم لهذا الصوت تمهيداً لمعرفة التطور، أو التطورات، التي طرأت عليه في رحلته من الماضي إلى الحاضر.

أما المحدثون، فيصنفون هذا الصوت ضمن مجموعة الأصوات الشديدة أو الانفجارية التي ينحبس - في أثناء النطق بها- تيار الهواء الصادر من الرئتين خلف نقطة الإغلاق إلى أن ينطلق بفعل الضغط المتزايد والمستمر، محدثاً صوتاً انفجارياً مسموعاً.

ثالثاً- ملمح الاطباق (التفخيم):

صنف سيبويه - ومعه في ذلك القدماء والمحدثون من اللغويين-صوت الضاد ضمن المجموعة الصوتية المطبقة (المفخمة). وتشمل هذه المجموعة - بالإضافة إلى هذا الصوت- أصوات الصاد،

---

(١) يُنظر، ص: ١١٩- ١٢٠، وما بعدها من هذه الدراسة.

(٢) الكتاب ٤/ ٤٥٧.

والطاء ، والظاء . ويتم الاطباق – في العادة– بارتفاع مؤخرة اللسان نحو الطبق.

ولكن سيبويه كان يعد صوت الضاد صوتاً مطبقاً ليس له – على غرار الأصوات المطبقة الأخرى– مقابل مرقق؛ ففي الوقت الذي نص فيه شيخنا على أن أصوات الدال، والسين والذال، هي المقابلات المرققة لأصوات الطاء، والصاد، والظاء، على التوالي، وجدناه يخرج صوت الضاد المطبق من اطار هذا التقابل والتناظر؛ فهو يقول : "لولا الاطباق لصارت الطاء دالاً، والصاد سيناً، والظاء ذالاً، ولخرجت الضاد من الكلام، لأنه ليس شيء من موضعها غيرها".

أما المحدثون فإنهم يرون في صوت الدال المقابل المرقق لصوت الضاد، ولعل هذه القضية الخلافية بين سيبويه، والقدماء بعامة، والمحدثين، تدعم وجهة النظر القائلة بخصوصية نطق الضاد، وأنّ قدراً لا يستهان به من التطور قد طرأ عليه.

إذن ما حقيقة نطق هذا الصوت؟ كيف كان؟ وكيف تطور إلى وضعه النطقي المعاصر؟

لقد سبق لنا أن ذكرنا غير مرة، أنّ الضاد التي تحدث عنها سيبويه ووصفها في كتابه، تختلف، إلى حد كبير جداً، عن الضاد التي ننطق بها الآن، سواء في المخرج، أو في الصفات. ويبدو لنا أن بضع

حلقات تطورية -وسيطة- من سلسلة النطق بالضاد قد تعرضت للضياع والاندثار في مراحل تاريخية مختلفة، ممّا أدى إلى بعد حاضر هذا الصوت عن ماضيه. وإذا لم يكن لنا بدٌّ من البحث عن أصل هذا الصوت، فإنّ لنا في محاكمة بعض النصوص اللغوية القديمة ومحاورتها أملاً من أجل الوصول إلى شيء "تقريبي" بشأن هذا الصوت:

١- إنَّ وصف سيبويه، لكيفية نطق هذا الصوت، يقترب كثيراً من وصفه – ووصف القدامى والمحدثين من اللغويين أيضاً- لكيفية نطق صوت اللام؛ فالهواء المنتج لصوت الضاد يخرج – كما يفهم من كلام سيبويه، ومن لف لفه من اللغويين – من الجانب الأيمن، أو من الجانب الأيسر، أو من كليهما، ولا يختلف وضع تيار الهواء في أثناء النطق بهذا الصوت -بناء على هذا الوصف- عن وضعه في أثناء النطق بصوت اللام؛ فتيار الهواء- عند النطق باللام – لا يسمح له بالمرور- بعد اتصال طرف اللسان باللثة خلف الأسنان العليا ، بحيث تنشأ عقبة في وسط الفم- إلا من خلال منفذ يتيح له الانسياب من أحد جانبي الفم أو كليهما.

وهكذا فإنّ تيار الهواء، في أثناء النطق بصوت الضاد، يسلك مساراً جانبياً شبيهاً – إلى حدٍّ كبير- بالمسار الذي يسلكه في أثناء النطق بصوت اللام.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فإنّ هناك شبهاً بين هذين الصوتين في الناحية المخرجية، وآلية النطق لكل منهما. بل لقد ذهب بعضهم إلى حد القول: بأنَّ "اللام تشارك الضاد في المخرج، لأن الضاد من أقصى الحافة، واللام من أدنى الحافة، والضاد حرف مستطيل استطال مخرجه، وامتدّ صوته حتى اتصل بمخرج اللام، فلذلك شابه لفظه لفظ اللام المفخمة، وربما أخرجه بعض الناس لاماً مفخمة، فاللام تشارك الضاد في مخرجه"[1].

ولقد أكد المستشرق "برجشتراسر" الرأي السابق عندما قال: "إنّ مخرجها – أي الضاد- قريب من مخرج اللام الذي هو أيضاً من حافة اللسان ، وذلك يدل على أنّ الضاد كانت تشبه اللام من بعض الوجوه...، ويغلب على ظني أن النطق العتيق للضاد لا يوجد الآن عند أحد من العرب، غير أنّ للضاد نطقاً قريباً منه جداً عند أهل حضرموت، وهو كاللام المطبقة، ويظهر أن الأندلسيين كانوا ينطقون الضاد مثل ذلك، ولذلك استبدلها الأسبان بأل (Id) في الكلمات العربية المستعارة في لغتهم مثال ذلك: أن كلمة "القاضي" صارت في الأسبانية Alcalde. وممّا يدل أيضاً على أنّ الضاد كانت في نطقها قريبة من اللام،

(١) محمد نمر حماد: اتحاف العباد في معرفة النطق بالضاد. ص: ١٨.

أنّ الزمخشري ذكر في المفصل، أنّ بعض العرب كانت تقول (الطجع) بدل (اضطجع)"[1].

ويبدو أنّ هذا المستشرق قد فاته أن يذكر أن سيبويه - شيخ الزمخشري وغيره من كبار اللغويين- قد نصّ- في معرض حديثه عن الإدغام - على ما ذهب إليه الزمخشري نفسه، وهو جواز إجراء تبادل بين الضاد واللام، ثم نراه يمثل على ذلك بما مثّل به الزمخشري، وهو " قول بعض العرب: الطجع في اضطجع"، ثم يُعلق على ذلك قائلاً : "أبدل اللامَ مكان الضاد كراهية التقاء المطبقين، فأبدل مكانها أقرب الحروف منها في المخرج والانحراف"[2]. ويروي المستشرق يوهان فك عن بعض اللغويين العرب أن الضاد العربية تنطق بست صور من بينها - على حدّ قوله - "من ينطقها لاماً مفخمة"[3].

وهذا يعني، أنّ الضاد القديمة - حسب الروايات التي ذكرناها- كانت قريبة الشبه بصوت اللا ؛ فكلا الصوتين جانبي، ويجمع بينهما اتحاد المخارج، أو قربه الشديد، كما ذكر سيبويه. غير أن الفرق الرئيس بينهما يكمن في أنّ اللام صوت يصحب انتاجه غلق جزئي

---

(١) برجشتراسر: التطور النحوي. ص: ١٨-١٩.

(٢) الكتاب. ٤/ ٤٨٣.

(٣) يوهان فك: العربية، دراسات في اللغة واللهجات والأساليب. ص: ١٠٣.

Partial Closure في منطقة اتصال طرف اللسان باللثة، أما الضاد – عند سيبويه وعند غيره من اللغويين- فهو صوت رخو (احتكاكي) يمر الهواء – في أثناء النطق به- بين الأعضاء المتقاربة محدثاً صوتاً يتسم بالاحتكاك.

٢- ذهب بعض القدماء إلى وجود شبه كبير بين صوتي الظاء والضاد؛ فهي – أي الظاء- كما يقول صاحب كتاب اتحاف العباد "تشارك الضاد في أوصافه (المذكورة) غير الاستطالة، فلذلك اشتد شبهه به، وعسر التمييز بينهما، واحتاج القارئ في ذلك إلى الرياضة للاتصال بين مخرجيهما، ولولا اختلاف المخرجين وما في الضاد من الاستطالة لاتحدتا في السمع"[١].

ويقول ابن الجزري: "والضاد انفرد بالاستطالة، وليس في الحروف ما يعسر على اللسان مثله، فإنّ ألسنة الناس فيه مختلفة، وقلّ من يحسنه، فمنهم يخرجه ظاء"[٢].

ولقد أدى هذا الشبه بين الصوتين – في نظر القدماء- إلى إمكان حدوث تعاقب بينهما؛ فقد روى ابن خلكان أنّ ابن الاعرابي كان يقول:"

(١) محمد نمر حمّاد: اتحاف العباد في معرفة النطق بالضاد. ص: ١٧.

(٢) ابن الجزري: النشر في القراءات العشر. ١/ ٢١٩.

جائز في كلام العرب، أن يعاقبوا بين الضاد، والظاء، فلا يخطئ من يجعل هذه في موضع هذه، وينشد:

إلى الله أشكو من خليل أودُّه ثلاث خصال كلها لي غائض

بالضاد (بدل غائظ)، ويقول هكذا سمعته من فصحاء العرب[1]، وذكر السيوطي – في هذا المجال- جملة من الكلمات التي أُثِرَت عن العرب، والتي كانوا يعاقبون فيها بين الضاد والظاء، فقال:"في الغريب المصنف: فاظت نفسه تفيظ: مات، وناس من بني تميم يقولون: فاضت نفسه تفيض. وقال المبرد: أخبرني التوَّزي عن أبي عبيدة، قال: كلُّ العرب تقول: فاضت نفسه بالضاد إلا بني ضبة فإنهم يقولون: فاظت نفسه بالظاء، حكاه أبو محمد البطليوسي في كتاب الفرق. وفي الجمهرة: الحُضُض، ويقال: الحُضَض، ويقال: الحُظُظ والحُظَظ: صمغ نحو الصَّبر والمرِّ وما أشبههما. وفي كتاب الفرق للبطليوسي: حَظِلت النخلة وحضِلَت: إذا فسدت أصول سعفها. وسمعت ظباظب الخيل، وضباضبها: أصواتها وجلبتها، والعظ والعض: شدة الحرب، وشدة الزمان، والأرظ والأرض: قوائم الدابة..."[2].

---

(١) ابن خلكان:وفيّات الأعيان. ٤/ ٣٠٧. ويُنظر كذلك: سر صناعة الإعراب.١/ ٢١٥.

(٢) السيوطي: المزهر. ١/ ٥٦١- ٥٦٢.

وروى أبو علي القالي أنَّ رجلاً " قال لعمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: يا أمير المؤمنين، أيضحى بضبي؟ قال: وما عليك لو قلت بظبي؟ قال: إنها لغة، قال: انقطع العتاب ولا يضحى بشيء من الوحش"(١).

كما أورد الجاحظ – في هذا المجال- قصة طريفة قال فيها: "وزعم يزيد مولى ابن عون، قال: كان رجل بالبصرة له جارية تسمى ظمياء، فكان إذا دعاها، قال: يا ضمياء، بالضاد، فقال ابن المقفع: قل: يا ظمياء ...، فناداها: يا ضمياء. فلما غيَّر عليه ابن المقفع، مرتين أو ثلاثاً، قال له: هي جاريتي أو جاريتك!"(٢)

ويذكر المستشرق الفرنسي هنري فليش أن العرب كانوا "يتباهون بنطقهم الخاص لصوت الضاد، وهو عبارة عن صوت مفخم، يُحتمل أنه كان ظاء جانبية، أي أنه كان يجمع الظاء واللام في ظاهرة واحدة وقد اختفى هذا الصوت، فلم يعد يُسمع في العالم العربي، وأصبح بصفة عامة إمَّا صوتاً انفجارياً، وهو مطبق الدال، وإمَّا صوتاً أسنانياً هو الظاء"(٣). ويؤيد برجشتراسر "أنّ نطق الظاء، كان قريباً من نطق الضاد

---

(١) القالي: ذيل الأمالي والنوادر. ص: ١٤٢.

(٢) الجاحظ: البيان والتبيين. ٢/ ٢١١ ، ينظر ص: ٥٨ من هذه الدراسة .

(٣) هنري فليش: العربية الفصحى. ص: ٣٧.

وكثيراً ما تطابقتا وتبادلتا في تاريخ العربية، وأقدم مثل لذلك مأخوذ من القرآن الكريم وهو "الضنين" في سورة التكوير، فقد قرأها كثيرون "الظنين" بالظاء مكان الضاد التي رسمت بها في كل المصاحف. وممن قرأها بالظاء: ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي، وكذلك النبي -ﷺ- كما قال مكي في كتاب (الكشف)"[1].

أما كانتينو، فقد وضع لنطق الضاد القديمة ثلاثة احتمالات، هي:

أ) أنها كانت تنطق قريبة الشبه من الظاء ذات زائدة انحرافية.

ب) أنها كانت تنطق قريبة الشبه بالدال المفخمة ذات زائدة لامية.

ت) أنها كانت تنطق قريبة الشبه بالزاي المفخمة ذات زائدة انحرافية.

ويرجح كانتينو الاحتمال الأول، وهو أنّ "النطق القديم كان (ظْلْ)؛ أي بتقريب طرف اللسان من الثنايا كما في النطق بالظاء، وبأن يجري النفس لا من طرف اللسان فقط، بل من جانبيه أيضاً"[2]. ويرى الدكتور إبراهيم أنيس أنّ "مما يُستأنس به لهذا التشابه بين الصوتين في

---

(١) برجشتراسر: التطور النحوي. ص: ١٩-٢٠.

(٢) كانتينو: دروس في علم أصوات العربية. ص: ٨٥- ٨٦.

النطق القديم، وقوعهما في فاصلتين متواصلتين من فواصل القرآن الكريم مثل ما جاء في سورة فصلت، كما قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ ﴾"[١].ثم يُقدم الدكتور أنيس تخيلاً لإمْكان النطق بالضاد" بأن يبدأ المرء بالضاد الحديثة، ثم ينتهي نطقه بالظاء، فهي إذن مرحلة وسطى فيها شيء من شدة الضاد الحديثة، وشيء من رخاوة الظاء العربية ، ولذلك كان يعدها القدماء من الأصوات الرخوة"[٢].

ومعنى هذا أن النطق بالضاد القديمة، كان يتراوح بين الظاء واللام المفخمة، ولهذا قال ابن حمّاد: "فاعلم أن الضاد في أوصافه أشد الحروف صعوبة على اللافظ، ولذلك مال لفظها إلى صوت الظاء تارة، وإلى صوت اللام المفخمة تارة لمناسبة هذين الحرفين الضاد"[٣].

بيد أننا نرجح – فيما نرى– أن النطق القديم للضاد العربية ، التي وصفها سيبويه، ومن سار على خطاه، كان قريباً في الأعم الأغلب من

---

(١) د. إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية. ص: ٥٥.

(٢) السابق. ص: ٤٩

(٣) محمد نمر حماد: اتحاف العباد في معرفة النطق بالضاد. ص: ١٨-١٩.

نطق الظاء، أو أنه كان نطقاً وسيطاً بين نطق الضاد والظاء، وإن كنّا لا ننفي – في الوقت نفسه – إمكان نطقه على نحو مقارب للام المفخمة على ألسنة بعض العرب كما ورد في بعض النصوص القديمة. ولعل شيوع ظاهرة استبدال صوت قريب جداً من الظاء بالضاد، في كثير من الممارسات النطقية اللهجية، القديمة والحديثة يعزز هذا الذي نذهب إليه.

أما الآن، فإنّ النطق المعتمد للضاد في الفصحى، يغاير الأصل القديم، الذي وصف به هذا الصوت، بل ويغاير تلك التصورات التي افترضها الباحثون القدامى لإمكانات نطقه، فهو، عندنا الآن، واحد من الأصوات الانفجارية الشديدة المجهورة، ومخرجه هو المخرج الأسناني اللثوي، ويقف هذا الصوت المعاصر، بملامحه المختلفة، مقابلاً مفخماً لصوت الدال المرقق، ومقابلاً مجهوراً لصوت الطاء المفخم.

أما السبب في اطلاق "لغة الضاد" على اللغة العربية ، فإننا لا نعتقد أنه راجع – كما يقول ابن جنِّي وغيره– إلى "أنَّ الضاد للعرب خاصة"[1]، وإنّما إلى كون النطق بهذا الصوت كان – كما يذكر الدكتور إبراهيم أنيس– عصيّاً "على أهالي الأقطار التي فتحها العر، أو حتى على بعض القبائل العربية في شبه الجزيرة، ممَّا يُفسر تلك التسمية القديمة

(١) ابن جنِّي: سر صناعة الإعراب. ١/ ٢١٥.

"لغة الضاد"، كما يظهر أن النطق القديم بالضاد ، كان إحدى خصائص لهجة قريش"[1].

خامساً- صوت الجيم:

وصف سيبويه- وغيره من اللغويين العرب- هذا الصوت، بأنه صوت شديد – أي انفجاري- وأن مخرجه- كما ذكر سيبويه وابن جني[2] من وسط اللسان بينه وبين وسط الحنك الأعلى، أو من شجر الفم، كما ذكر الزمخشري، وشارح مفصله ابن يعيش[3]. وهذا المخرج –في رأينا- يقابل- أو، لنقل، يرادف – مصطلح المحدثين، الحنك الصّلب أو الغار Hard Palate كما صنّف القدامى هذا الصوت، ضمن المجموعة الصوتية التي أطلقوا عليها مصطلح "أصوات القلقلة"، وهي الأصوات التي يجمعها قولهم "قطب جد".

والواقع أن هذا الصوت، يعدُّ من أكثر الأصوات العربية التي اختلف الباحثون اللغويون- وما يزالون- في كيفية نطق القدماء له.

---

(١) د. ابراهيم أنيس: الأصوات اللغوية. ص: ٤٩.

(٢) سيبويه: الكتاب. ٤/ ٤٣٣. ويُنظر كذلك: ابن جني: سر صناعة الإعراب. ١/ ٤٧

(٣) ابن يعيش: شرح المفصل. ١٠/ ١٢٤

ولعل ما يعزِّزُ هذا الذي نذهب إليه، أن النطق المعاصر لهذا الصوت لا يقل اختلافاً، وتنوعاً عمَّا كان عليه من قبل؛ فهو لا يتخذ سَمْتاً واحداً، وطريقة موحدة – أو شبه موحَّدة– في اللسان العربي. وإنما تتعدَّد طرائق نطقه من بيئة لغوية أو لهجية إلى أخرى:

- فهو ينطق، في ألسنة أهل القاهرة المصريين، كافاً مجهورة، أي صوتاً خالياً من التعطيش، مخرجه من أقصى الحنك، وذلك على النحو الذي يُنطق به الصوت الإنجليزي (g)، في كلمة مثل:(go). وهذا يعني، أن مخرج الجيم قد تراجع موضعياً– بالقياس إلى ما قرَّره قدامى اللغويين العرب– إلى الخلف قليلاً، فاقترب من أقصى الحنك، أي الطبق.
- وينطق هذا الصوت نفسه، في ألسنة معظم أهل الصعيد في مصر، صوتاً شديداً قريباً من نطق صوت الدال –أو هو صوت الدال عينه– إلى حدٍّ كبير. وهذا يعني أن مخرج الجيم، قد تقدم موضعياً– بالقياس إلى ما قرره القدامى– إلى الأمام قليلاً، فاقترب من المخرج الأسناني اللثوي.
- أما في اللسان الشامي، ولدى بعض المغاربة، فإنّ هذا الصوت، ينطق شيناً مجهورة، أي صوتاً مبالغاً في تعطيشه، وهذا يعني أن مخرج الجيم، قد حافظ على موضعه الذي وصفه القدامى، غير

أنه تعرض -في أثناء النطق به إلى التهجير، بفعل ذبذبة الوترين الصوتيين.

- ولقد أخذ هذا الصوت- في منطقة الخليج العربي بعامة- لوناً آخر من النطق؛ فهو يسمع هناك، وكأنه نصف حركة Semi Vowel ونعني به الياء، وهذا يعني أن مخرج هذا الصوت قد حافظ -مرة أخرى- على موضعه الذي وصفه القدامى. بَيْدَ أن المضيق الذي يمر فيه تيار الهواء، في أثناء نطق هذا الصوت، والواقع بين وسط اللسان، ووسط الحنك الأعلى، يتَّخذ شكلاً أوسع مما يتخذه في أثناء نطق صوت الجيم المعطشة.

- أما مجيدو القراءات القرآنية -وهم في واقع الأمر، معتمد الدارس المعاصر، ومرجعه في عملية توصيف الأصوات وتصنيفها- فينطقون هذا الصوت على نحوٍ مركَّب يجمع -إلى حدٍّ كبير- بين نطق أهل صعيد مصر لهذا الصوت، وهو صوت الدال، ونطق الشاميين له، وهو صوت الجيم المعطشة. ويتم ذلك، بأن يرتفع مقدم اللسان تجاه مؤخَّر اللّثة ومقدم الحنك، حتى يتصل بهما محتجزاً وراءه الهواء الخارج من الرئتين، ثم -بدلاً من أن يفصل عنهما فجأة، كما في نطق الأصوات

الانفجارية- يتمُّ الإنفصال ببطء، فيعطي الفرصة للهواء بعد الانفجار أن يحتك بالأعضاءالمتباعدة احتكاكاً شبيهاً بما يسمع من صوت الجيم الشامية[1] فهذا الصوت -على هذا الأساس- صوت مركب Affricate، الجزء الأول منه، صوت قريب من الدال، والثاني، صوت معطش، كالجيم الشامية.

ولقد تعددت وجهات نظر الباحثين اللغويين المعاصرين في تفسير هذا الواقع المتعدد لنطق هذا الصوت؛ فذهب بعضهم إلى أن وصف القدماء لهذا الصوت بالشدَّة -أي الانفجار- يعني أحد احتمالين:

<u>الأول</u>: أنه كان يُنطق على نحو قريب من نطق صوت الدال، ويؤيد ذلك:

أ- أنَّ بعض اللهجات العربية، كلهجة أهل صعيد مصر، وبعض مناطق الجزائر، تنطق هذا الصوت دالاً، كما يمكن أن تفسر، على أساس هذا الاحتمال، بعض الكلمات في سوريا والعراق.[2]

---

(١) كمال بشر: علم اللغة العام "الأصوات". ص:١٢٥. وينظر، كذلك: تمام حسان: مناهج البحث في اللغة. ص:١٠٤.

(٢) أحمد مختار عمر: دراسة الصوت اللغوي. ص: ٢٩٠.

ب-   ما ذهب إليه الدكتور إبراهيم أنيس، من أن الاستعانة بموسيقى الفواصل القرآنية في سورة "البروج" ترجّح أن النطق القديم بهذا الحرف، كان أقرب إلى نطق الدال، وألصق بها من أي حرف آخر؛ فقد جاءت الفاصلة الأولى، في هذه السورة الكريمة، مختتمة بحرف الجيم، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١ ﴾ ثم جاءت بعدها ثماني فواصل، كلُّها مختتمة بحرف الدال، وهي: ﴿ ٱلْمَوْعُودِ، و وَمَشْهُودٍ، وٱلْأُخْدُودِ، وٱلْوَقُودِ، و قُعُودٌ، و شُهُودٌ، وٱلْحَمِيدِ، وشَهِيدٌ ﴾ وهذا يرجح -كما يقول الدكتور أنيس- أن القراءة، التي تبرز موسيقى الفواصل هنا، تحتم أن ينطق بالجيم نطقاً أقرب شبهاً بالدال، وأوثق اتصالاً بها.[1]

<u>والآخر</u>: أنه كان ينطق نطقاً قريباً من نطق الجيم القاهرية (g) والدليل على ذلك، ما ذهب إليه المستشرق "أنّوليتمان " Enno Littmann" من أن مقارنة اللغات السامية، كالعبرية والسريانية والحبشية، يؤكد ذلك.

(١) إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية. ص:٨٢

يقول ليتمان:" نعرف أن نطق هذا الحرف الأصلي، كان كما هو الآن في مصر، وكما كان ويكون في اللغات السامية الباقية. مثلاً: كلمة (جمل) في العبرية: gãmãl، وفي السريانية: gamlã، وفي الحبشية gamal. وتاريخ هذا النطق، كما يأتي: في الابتداء تغير نطق gĩm فصار ğĩm قبل حركة الكسرة فقط، ثم لفظت عند أهل الحجاز ğĩm إذا وقعت قبل كل الحركات، أي الفتحة، والضمة، والكسرة، وكان هذا النطق نطق القرشيين في زمان النبي –عليه الصلاة والسلام– فصار نطق القرآن الشريف"[1]

ويرجح كثير من الباحثين اللغويين هذا الاحتمال الأخير، ويعدون الجيم الخالية من التعطيش، هي الأصل في نطق هذا الصوت، ثم طرأ عليها بعض التغيير في ألسنة القبائل العربية؛ فالدكتور إبراهيم أنيس، يرى أن الجيم الخالية من التعطيش، هي الأصل، وقد بقيت على هذا الأصل السامي في اللغات السامية الأخرى، كالعبرية والسريانية. أما في العربية، فيبدو أنها تعرضت لتطورات كتلك التي حصلت للّغتين الإغريقية، واللاتينية. وذلك فيما يعرف بقانون الأصوات الحنكيَّة Palatal law. وملخَّص هذا القانون، أن صوت الجيم الخالي من التعطيش يتمُّ نطقه من أقصى الفم، بيد أنه يتعرض إلى التعطيش إذا وليته

---

(١) رمضان عبد التواب: المدخل إلى علم اللغة. ص:٥٢-٥٣.

حركات أمامية، في حين، يبقى هذا الصوت غير معطش إذا وليته حركة خلفية. والسبب في ذلك، يعود إلى أن الحركة الخلفية تجذب هذا الصوت إلى مخرج خلفي، أي إلى أقصى الفم باتجاه الطبق أو اللَّهاة، وهما مخرجا الكاف والقاف على التوالي، في حين تجذب الحركة الأمامية هذا الصوت إلى مخرج أمامي، أي باتجاه وسط الحنك، أو إلى مخرج قريب من نطق الشين، غير أن صوت الجيم يؤثر -إذا ورد متحركاً- الحركة الأمامية- أي الكسرة، أو الفتحة المرققة-، أما الحركة الخلفية- أي الضمة- فقليلة الورود مع الجيم. وقد قام الدكتور أنيس، بإجراء إحصائية لعدد المرات التي وردت فيها الجيم بوصفها فاء للكلمة- متلوة بحركة أمامية في القرآن الكريم، فوجد أنها بلغت (١٢٦٤) مرة، على حين، أنها وردت متلوة بحركة خلفية (١٠٢) مرة فقط.(١)

ويؤيد الدكتور أنيس، في رأيه هذا، كلٌّ من الدكتور رمضان عبد التواب، والدكتور كمال بشر، يقول د. رمضان:" والظاهر أن صوت الجيم المزدوج هذا ليس أصلياً في اللغة العربية القديمة، وإنما هو متطور عن جيم تشبه نطق المصريين لهذا الصوت، والدليل على ذلك، مقارنة اللغات السامية الأخرى، كالعبرية، والسُريانية، والحبشية، فصوت الجيم

---

(١) إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية. ص:٧٩-٨١.

في هذه اللغات، صوت شديد يشبه نطق المصريين"[1]. ويقول الدكتور بشر:"التفسير الراجح في نظرنا، ربما كانت الجيم تنطق في القديم بما يشبه الجيم القاهرية (g) في اللغة العامية، وهذه الجيم الأخيرة شديدة أي انفجارية ولا شك، وهذا الاحتمال له ما يؤيده في القديم والحديث"[2].

أما إذا كان وصف القدماء لهذا الصوت، بالشدة غير دقيق، فيرى بعض المحدثين من اللغويين، أن هذا الصوت كان مركباً من صوت الدال الشديد، وصوت الجيم الشامية المعطشة، غير أن القدماء ركزوا -في رصدهم لنطق هذا الصوت- على خصائص الجزء الأول منه، وهو الدال، أو الجيم القاهرية، وأهملوا الجزء الثاني، وهو الانتقال من الانحباس إلى الانفجار البطيء الذي يحدث الاحتكاك[3]

وفي رأينا أن النطق المتعدد لصوت الجيم، في اللهجات العربية المعاصرة، ما هو إلا صورة للواقع النطقي المتعدد الذي كان عليه هذا الصوت في الماضي. ويبدو أن الدارسين اللغويين القدامى -فيما نرى- قصروا اهتمامهم- في أثناء حديثهم عن هذا الصوت- على نطق لهجة

---

(١) رمضان عبد التواب: المدخل إلى علم اللغة. ص:٥٢

(٢) كمال بشر: علم اللغة العام. - الأصوات. ص: ١٢٦

(٣) المرجع السابق نفسه.

دون أخرى، إما لكثرة ذيوعها وانتشارها من جهة، أو لأنها كانت تمثل البيئة اللغوية التي ينتمون إليها.

ولهذا، فإننا نرى أن البحث عن أصل معين لنطق هذا الصوت، ما هو إلا نوع من الحَدْس، أو التخمين، أكثر من كونه حقيقة يمكن الإجماع عليها، أو الاجتماع حولها.

وإذا كنا نعدّ نطق مجيدي القراءات القرآنية مصدراً موثقاً نستقي منه- إلى حدٍّ كبير- الأصول المتوارثة، لنطق الأصوات العربية، فإن بوسعنا أن نعدّ هذا الصوت- كما ينطقونه- صوتاً مركباً من الدال والجيم المعطشة، كما سبق أن ذكرنا، وأن نعدَّ النطق بهذا الصوت يمثِّل -بدوره- مرحلة تطور تاريخية للنطق العربي، بَلْه الساميّ له. وهو بهذا يكون الصوت المركَّب الوحيد في النطق الفصيح- إذا جاز لنا هذا التعبير- للغة العربية. وهذا الصوت المركَّب ليس بِدْعاً في لغتنا، وإنما له أشباه ونظائر في بعض اللغات؛ ففي الإنجليزية صوت مركب مشابه، هو صوت ألْ (تْشْ) tš في مثل chair، وفي الألمانية أيضاً صوت مركب آخر هو ألْ (تْسْ) ts في مثل Goldziher أي جولد تسيهر، وهو اسم مستشرق ألماني مشهور. ولذلك، فلا غرابة في أن يكون في لغتنا صوت مركَّب من هذا القبيل. أما طرائق النطق الأخرى لهذا الصوت في اللهجات العربية المختلفة -قديمها وحديثها- فإن بالإمكان اعتبارها من قبيل التنوُّعات

اللهجية المسماة "ديافونات" Diaphones، أو من قبيل التنوعات النطقية الفردية المسماة "ڤـاريفونات" Variphones، التي يجنح إلى ممارستها بعض أبناء اللغة الواحدة، على اختلاف بيئاتهم اللهجية، طلباً للخفة في النطق والسهولة في الأداء. فالصوت المركَّب -كما أسلفنا- صوت يجمع في نطقه بين الآلية الانفجارية، المتمثِّلة بالدال الغارية، والآلية الاحتكاكية، المتمثلة بالشِّين المجهورة. وهي -أي الجيم- "تتميز بالإغلاق الذي لا يستمر إحكامه، وفيها كما في الانفجارية حبْس، ولكن هذا الحبْسَ تتبعه حركة خفيفة من الفتح، بحال يجعل الانفجاري ينتهي بالاحتكاكي فالانفجاري الاحتكاكي انفجاري فاشل"[1].

ومما لا شك فيه، أن في هذه الآلية النطقية المزدوجة، التي يتطلبها انتاج هذا الصوت في آن واحد، عنتاً ومشقة أدَّت بالناطقين، أو بمعظمهم، إلى البحث، عن وجوه نطق أسهل. ولقد تمثَّل ذلك -كما ذكرنا- بطرائق نطقية مختلفة تميزت -على اختلافها- بأحادية الآلية الانفجارية، أو الاحتكاكية. "ومن الملاحظ في التطور اللغوي، أنَّ الأصوات المزدوجة، تميل في تطورها، بعد ذلك إلى أن تنحل إلى أحد الصوتين المكونين لها"[2]

---

(١) فندريس: اللغة. ص:٥٠

(٢) رمضان عبد التواب: التطور اللغوي. ص:١٣٤.

ولعلنا نلتمس دليلاً إضافياً، على هذا الذي نذهب إليه، من كون هذا النوع من الأصوات المزدوجة، محدود العدد في كلّ اللغات، فضلاً عن خلوِّ بعض اللغات واللهجات أيضاً من نظائر له.

الباب الثاني

الإدغــام

- الفصل الأول: الإدغام في الحرفين المثلين.
- الفصل الثاني: الإدغام في الحرفين غير المثلين.

الإدغام

تمهيد:

تناولنا في الباب السابق – عرضاً لجانب من الفكر الصوتي الذي قدمه سيبويه في كتابه، أو على نحو خاص، في القسم الأخير، من كتابه، الواقع تحت عنوان الإدغام.

وكان فكر هذا العالم وبحثه، في هذا الجانب، يقتصر – أو يكاد يقتصر– على جانب الوصف العضوي والنطقي للأصوات، من حيث هي أصول أو فروع للأصول، ومن حيث هي مجهورة أو مهموسة، وشديدة أو رخوة، أو بين الشديدة والرخوة، ومطبقة أو منفتحة...الخ .

غير أنّ وصف سيبويه، لهذه الأصوات، لم يكن مستقلاً أو منعزلاً عن تصوره العام للوظائف التي يمكن أن تضطلع بها. لذلك فقد وجدناه يصف، في أثناء حديثه عن تلك الأصوات، بعض التنوعات، أو الصور الصوتية السياقية التي يمكن أن تتخذها بعض الوحدات الصوتية الرئيسة في اللغة. كما أننا وجدناه ينص – بالإضافة إلى ذلك– على أنّ هذه الأصوات التي تحدث عنها ، هي أصوات تنتمي إلى لغة حية منطوقة يحتاج الباحث – من أجل تبيُّنِها والتعرف إليها– إلى مشافهة أبنائها الناطقين بها.

وهذا يعني أن سيبويه لم يرد أن تكون دراسته للأصوات مقصورة على جانبها الآلي العضوي، وإنما أراد لدرسه الصوتي أن يكون شاملاً للنظام الصوتي للغة العربية، بحيث يشمل معالجة الظواهر الصوتية من ناحية وظيفتها اللغوية. لذلك فقد وجدناه يخصص – في كتابه- باب الإدغام من أجل وصف النظام الصوتي للغة العربية وتصنيفه . وهكذا فإنّ دراسة التشكيل الصوتي، والوظائف التي تنهض بها الأصوات العربية في تجاورها، وارتباطاتها، ومواقعها، كانت جزءاً من الاهتمامات اللغوية لهذا العالم عندما شمّر عن ساعديه ليبحث في الجانب الصوتي، أو لنقل في الجانب الفونولوجي للغة العربية.

لقد كان موضوع الإدغام المدخل الرئيس الذي عالج سيبويه – ومعظم اللغويين العرب القدامى- من خلاله القضايا الصوتية للغة العربية . وقد جاءت تلك المعالجات والدراسات الصوتية – التي انضوت، على نحو مباشر، تحت باب الإدغام- في نهاية مؤلف سيبويه الخالد الموسوم بالكتاب، وفي نهاية معظم المؤلفات اللغوية العربية الأخرى، مثل كتاب المفصل للزمخشري، وشرح المفصل لابن يعيش، وكتاب الجمل للزجاجي، وكتاب الشافية لابن الحاجب، وشرح الشافية للرضي، وكتاب همع الهوامع للسيوطي...، وغيرها.

ويبدو أن سيبويه كان البادئ والرائد في هذا المنهج، الذي ترسَّم خطاه فيه معظم الذين جاءوا بعده. وكان الأَوْلى بهذا العالم أن يبدأ درسه للغة – على غرار ما تفعل الدراسات اللغوية الحديثة – بدراسة أصواتها، فصرفها، فنحوها، على اعتبار أن علمي الأصوات والصرف يمهدان الطريق أمام الدرس النحوي.

ولكن الدرس الصوتي لدى سيبويه – ولدى غيره من العلماء أيضاً– لم يكن مقصوداً لذاته ، وإنما كان وسيلة ضرورية لمعالجة بعض المسائل الصرفية في باب الإدغام بوصفه موضوعاً من الموضوعات الصرفية الصوتية Morphophonemics .

والإدغام – في اللغة– يعني "إدخال شيء في شيء. يقال: أدغمت اللِّجامَ في فم الدابة، أي أدخلته في فيها، وأدغمت الثياب في الوعاء أدخلته فيه"(١).

أما في الاصطلاح، فإنّ سيبويه يعرف الإدغام(٢) –في موضع آخر من كتابه – بقوله: "والإدغام إنما يدخل فيه الأول (في النطق) في الآخر،

---

(١) ابن يعيش: شرح المفصل. ١٠/ ١٢١.

(٢) يضبط الكوفيون صيغة "إدْغام" على زنة "إفْعال" بالتخفيف، في حين يضبط البصريون –وعلى رأسهم سيبويه– هذه الصيغة هكذا "الإدِّغام" من الافتعال ، وذلك بتشديد الدال. يُنظر –على سبيل المثال:=

والآخر على حاله، ويقلب الأول فيدخل في الآخر حتى يصير هو والآخر من موضع واحد، نحو: "قد تَّركتك ويكون الآخر على حاله"(١).

ولكن اللغويين، الذين جاءوا بعد سيبويه، حاولوا تقديم بعض التوضيحات لهذا التعريف غيرِ الجليِّ الذي وضعه شيخهم؛ فابن يعيش – على سبيل المثال- يذكر أنّ الإدغام في الكلام يعني "أن تصل حرفاً ساكناً بحرف مثله متحرك من غير أن تفصل بينهما بحركة، أو وقف، فيصيران لشدة اتصالهما، كحرف واحد ترتفع اللسان عنهما رفعة واحدة شديدة فيصير الحرف الأول كالمستهلك لا على حقيقة التداخل والإدغام وذلك نحو شدّ ومدّ"(٢).

ويعدُّ الإدغام Total Assimilation إحدى ظاهرتين رئيستين تعرضان للأصوات من جرَّاء تأثرهما بأصوات مجاورة، أو مقاربة في الكلمة الواحدة، أو في الكلام المتصل. أما الظاهرة الثانية فيمكن تسميتها بالحذف أو الإسقاط Elision. ويرجع السبب في

= ابن يعيش: شرح المفصل. ١٠/ ١٢٠. وكذلك:

السيوطي: همع الهوامع. ٢/ ٢٢٥.

الأزهري: شرح التصريح على التوضيح. ٢/ ٧٥٦.

(١) الكتاب. ٤/ ١٠٤-١٠٥

(٢) شرح المفصل. ١٠/ ١٢١.

حدوث هاتين الظاهرتين، إلى الرغبة غير الواعية لدى المتكلم من أجل توفير الجهد في أثناء عملية النطق والكلام(١).

وقد ذهب اللغويون العرب القدامى إلى أنّ الهدف من عملية الإدغام تتمثل في "طلب التخفيف لأنه ثقل عليهم التكرير والعود إلى حرف بعد النطق به، وصار ذلك ضيقاً في الكلام بمنزلة الضيق في الخطو على المقيد؛ لأنه إذا منعه القيد من توسيع الخطو صار كأنه إنما يقيد قدمه إلى موضعها الذي نقلها منه فثقل ذلك عليه. فلما كان تكرير الحرف كذلك في الثقل حاولوا تخفيفه بأن يدغموا أحدهما في الاخر، فيضعوا ألسنتهم على مخرج الحرف المكرر وضعة واحدة ويرفعوها بالحرفين رفعة واحدة، لئلا ينطقوا بالحرف ثم يعودوا إليه"(٢). وقد نص سيبويه على ذلك في معرض حديثه عن التضعيف، عندما قال: "فإذا تحرك الحرف الآخِرُ، فالعرب مجمعون على الإدغام، وذلك، فيما زعم الخليل أولى به؛ لأنه لما كانا من موضع واحد ثقل عليهم أن يرفعوا ألسنتهم من موضع ثم يعيدوها إلى ذلك الموضع للحرف الآخر، فلما ثقل عليهم ذلك أرادوا أن يرفعوا رفعة واحدة"(٣). وقد ذكر سيبويه ذلك في مواضع أخرى من

(1) Daniel Jones, The Pronunciation of English P. 136

(٢) ابن يعيش: شرح المفصل. ١٠/ ١٢١.

(٣) الكتاب. ٣/ ٥٣٠.

كتابه؛ فهو يذكر في باب التضعيف – على سبيل المثال- "أن التضعيف يثقل على ألسنتهم، وأن اختلاف الحروف أخف عليهم من أن يكون من موضع واحد...، وذلك لأنه يثقل عليهم أن يستعملوا من موضع واحد ثمّ يعودوا له، فلما صار ذلك تعباً عليهم أن يداركوا في موضع واحد ولا تكون مهلة، كرهوه وأدغموا، لتكون رفعة واحدة، وكان أخفَّ على ألسنتهم مما ذكرت لك"(١).

وتعد ظاهرة الإدغام إحدى حالات المماثلة المشتركة بين مختلف اللغات، غير أنها تختلف – من ناحية التطبيق- من لغة إلى أخرى؛ ففي اللغة الإنجليزية تغلب المماثلة التقدمية Progressive Assimilation؛ أي تأثر الصوت اللاحق بالصوت السابق. ومن أمثلة ذلك في الإنجليزية كلمة "raced"، التي تنطق "reist"، حيث تأثر صوت "الدال" المجهور بصوت "السين" المهموس مما أدى إلى قلب صوت الدال إلى نظيره المهموس وهو صوت "التاء". أما في اللغة العربية؛ فإنّ الغالب فيها -في هذا الصدد- هو تأثر الصوت السابق بالصوت اللاحق ، وهو ما يُسمى بالمماثلة الرجعية Regressive Assimilation. ومن الأمثلة على ذلك في العربية، كلمة "الرشيد" التي أثر فيها صوت "الراء" في صوت "اللام" السابق، ممّا أدى إلى قلب الصوت الأخير – وهو صوت

(١) الكتاب. ٤/ ٤١٧.

اللام- إلى صوت مماثل للصوت الأول - وهو صوت الراء- وإدغامه فيه.

ويمكن تقسيم المماثلة وتصنيفها إلى أنواع مختلفة منها:

١) **مماثلة تقدمية، ورجعية، ومتبادلة:** بيَّنا - في السطور السابقة- المقصود بالنوعين الأولين من المماثلة، أما النوع الأخير - وهو المماثلة المتبادلة- Reciprocal Assimilation فيقصد بها تأثر كل من الصوتين السابق واللاحق بالآخر. ومن الأمثلة على ذلك، في اللغة الإنجليزية، ما يحدث في المركب don't you الذي يُنطق هكذا: /dǒuntζʊ/ حيث اندمج الصوت (t) بالصوت (y) وأَنتجا صوتاً مركباً، Affricate[1].

٢) **مماثلة كلية Total Assimilation:** وهو ما يُطلق عليه، في اللغة العربية،- كما ذكرنا قبل قليل - مصطلح الإدغام، ومماثلة جزئية Partial Assimilation.

ويقصد بالنوع الأول، من هذين القسمين، تطابق الصوتين المعنيين. أما المماثلة الجزئية؛ فيقصد بها اشتراك الصوتين المعنيين في خصيصة واحدة، أو أكثر، وذلك على نحو ما وقع للنون الساكنة

---

(1) David Crystal – A first dictionary of linguistics & phoneics, p. 36

المجاورة للباء في كلمة "عَنْبَر"، حيث اكتسبت "النون" من "الباء" صفة الشفوية الثنائية دون الصفة الانفجارية، وتحولت إلى "ميم".

٣) وأخيراً، فإنّ من الممكن تصنيف المماثلة إلى مماثلة تجاورية Contiguous Assimilation تحدث بين صوتين متصلين اتصالاً مباشراً، ومماثلة تحدث بين صوتين غير متجاورين تجاوراً مباشراً Distant Assimilation.

ويبدو لنا أن الإدغام عند سيبويه كان من نوع المماثلة الرجعية الكلية. ولقد اتضح لنا هذا من خلال التعريف، الذي قدمه هذا العالم للإدغام، والذي سجلناه في السطور السابقة؛ فهو يذكر أنّ الإدغام إنّما يدخل فيه الأول في الآخر، والآخر على حاله، ويقلب الأول فيدخل في الآخر حتى يصير هو والآخر من موضع واحد نحو "قد تَّركتك".

غير أنّ سيبويه قد تصدى، في أثناء معالجاته لقضايا الإدغام، لمناقشة ما يعرض لبعض الكلمات المضعفة من ظواهر غير ادغامية كالحذف، والإبدال وغيرهما، وذلك على نحو ما سنرى في الموضوع الذي سنعرض له تحت عنوان "ما يعرض للتضعيف من ظواهر غير ادغامية"[١]. وسنتناول – في الصفحات الآتية– موضوع الإدغام عند سيبويه، وما يمكن أن ينطوي عليه من أفكار صوتية.

---

(١) يُنظر، ص: ٢١٩. من هذه الدراسة.

وقد خصصنا لهذا الموضوع بابين مستقلين، تناولنا، في أولهما، الإدغام في الحرفين المِثْلين، والحرفين غير المِثْلين. وتناولنا، في الآخر، الإدغام في حروف طرف اللسان والثنايا.

وسنحاول – فيما يأتي– دراسة كلِّ باب من هذين البابين، وما يشتمل عليه كل واحد منهما من أقسام فرعية، على نحو مستقل.

الفصل الأول

الإدغام في الحرفين المثلين

أولاً- الإدغام في الحرفين المثلين المنفصلين:

١. الإدغام الجائز.

٢. الإدغام الواجب.

٣. الإدغام الممتنع.

ثانياً- الإدغام في الحرفين المثلين غير المنفصلين:

١. الإدغام في الحرفين المثلين في الكلمة الواحدة.

٢. ما يعرض للتضعيف من ظواهر غير الإدغام.

الإدغام في الحرفين المِثْلين

يتوزع هذا النوع من الإدغام إلى قسمين، هما:

- الإدغام في الحرفين المِثْلين المنفصلين، أي في الحرفين الواقعين في كلمتين مختلفتين.
- الإدغام في الحرفين المِثْلين غير المنفصلين، أي في الحرفين الواقعين في كلمة واحدة.

وسنقدم – فيما يأتي– عرضاً موجزاً لآراء سيبويه في هذين القسمين:

أولاً– الإدغام في الحرفين المثلين المنفصلين:

تختلف حالات الإدغام، في الحرفين المثلين المنفصلين فيما بينهما، لدى سيبويه، من حيث الجواز والوجوب والامتناع. وفيما يأتي بيان بذلك:

١- الإدغام الجائز:

أ. يعدّ توالي خمسة أحرف متحركة فصاعداً، من أكثر حالات الإدغام استحساناً. وقد نص سيبويه على ذلك بقوله: "فأحسن ما يكون الإدغام في الحرفين المتحركين اللذين هما سواء، إذا كانا منفصلين، أن

تتوالى خمسة أحرف متحركة بهما فصاعداً"[١]. وقدم سيبويه، على هذه الحالة، مثالين، هما: جَعَلَ لَكَ، وفَعَلَ لَبيد؛ فقد اجتمع، في هذين المثالين، حرفان متحركان سابقان للحرفين المتطابقين المتحركين أيضاً، ثم وَلِيَ ذلك حرف متحرك، أي ما مجموعه خمسة أحرف متحركة، وذلك على النحو الآتي[٢]:

جَ	عَ	لَ	لَ	كَ	فَ	عَ	لَ	لَ	بِ	ي	د
م	م	م	م	م	م	م	م	م	م		

فقد توالت – كما هو واضح – خمسة أحرف متحركة. ومن شأن هذا أن يُؤدي إلى استثقال النطق بهذه الأحرف المتحركة، فكان لا بدَّ من وجود ساكن يتخللها بهدف إحداث نوع من التخفيف في النطق. ولهذا فقد أُدغم الحرف الثالث في مثله الرابع، مما أدى إلى توسط حرف ساكن بين حرفين متحركين قبله، وحرفين متحركين بعده، فخفف ذلك من ثقل توالي خمسة أحرف – أو أكثر في حالات أخرى– متحركة.

وذلك على النحو التالي[٣]:

(١) الكتاب. ٤/ ٤٣٧.

(٢) يشير الرمز (م) إلى كلمة متحرك.

(٣) يشير الرمز (س) إلى كلمة ساكن

جَ	عَ	لْ	لَ	ك	جَعَلْ لَّك
م	م	س	م	م	

فَ	عَ	لْ	لَ	بِ	ي	د	فعلْ لَّبيد
م	م	س	م	م			

وقد نص سيبويه على ذلك بقوله: "ألا ترى أن بنات الخمسة، وما كانت عدته خمسة، لا تتوالى حروفها متحركة استثقالاً للمتحركات مع هذه العدة، ولا بدَّ من ساكن"(١).

وينص سيبويه – بعد ذلك– على أن " البيان– أي التحريك وعدم الإدغام– عربي جيد حجازي "(٢).

ب. يحسن الإدغام إذا وقع قبل الحرفين المثلين المتحركين حرف متحرك واحد فقط، ووقع بعد هذين الحرفين المثلين المتحركين حرف ساكن وذلك نحو:

يَ	دُ	دَ	ا	و	د	يدُ داود
م	م	م	س			

(١) الكتاب. ٤/ ٤٣٧.

(٢) السابق. ٤/ ٤٣٧.

فقد توالت كما هو واضح – ثلاثة أحرف متحركة، فسكِّن أول المثلين، وهو الحرف الثاني من المتحركين في الكلمة؛ لأنه- كما قال سيبويه- قصد أن يقع المتحرك بين ساكنين واعتدال منه"[1].

وذلك على النحو الآتي :

يَ	دْ	د	ا	و	د	يدّاود
م	س	م	س			

ت. ويحسن الإدغام أيضاً، إذا وقع قبل الحرفين المثلين المتحركين، حرف مد، على اعتبار أن حرف المد هذا بمنزلة – كما قال سيبويه – الحرف المتحرك في الإدغام[2]، وذلك نحو:

ا	ل	م	ا	لُ	لَ	ك	المالُ لَك
مد				م	م		

ي	ظ	ل	م	و	نَ	نِ	ي	ويظلموني
مد						م	م	

(١) الكتاب. ٤/ ٤٣٧.

(٢) السابق. ٤/ ٤٣٧-٤٣٨.

فقد توالى – في هذين المثالين، وما كان على غرارهما – حرفان متحركان مسبوقان بحرف مد، عدَّه سيبويه بمنزلة الحرف المتحرك، فسكّن أولُ الحرفين المثلين المتحركين الذي قبله حرف مدٍّ بمنزلة المتحرك لئلا تتوالى ثلاثة أحرف متحركة متوالية، وذلك على النحو الآتي:

ا	ل	م	ا	لْ	لّ	ك	المالْ لّك
مد				س	م		

ي	ظ	ل	م	و	نْ	نّ	ي	يظلمونِّي
مد						س	م	

غير أنّ سيبويه ينص – عقب ذلك– على استحسان البيان في هذه الحالة بسبب اعتباره حرف المد – في الأصل– حرفاً ساكناً . فهو يقول :" والبيان ههنا يزداد حسنا لسكون ما قبله"(١).

ث. إذا وقع، قبل الحرفين المثلين المتحركين، حرف ساكن، هو الواو أو الياء، فإنّ البيان والإسكان – عند سيبويه– في هذه الحالة جائزان، كما أنّ الإخفاء جائز أيضاً شريطة أن يكون بزنة الحرف المتحرك. وذلك نحو: ثَوْبُ بَكْر، وجَيْبُ بَكْر. وفي هذا يقول سيبويه:

---

(١) الكتاب. ٤/ ٤٣٨.

"وتقول: هذا ثَوْبُ بَكْر، البيان في هذا أحسن منه في الألف...، وكذلك: هذا جَيْبُ بَكْر...، وإن شئت أخفيت في ثَوْبُ بكر، وكان بزنته متحركاً، وإن أَسكنت جاز، لأن فيهما مداً ولينا، وإن لم يبلغا الألف"(١).

ويجوز في هذه الحالة الجمع بين ساكنين -كما يقول ابن عصفور- "لما في الساكن الأول من اللين، ولما في الحرف المشدد من التشبث بالحركة، ولأن التقاء الساكنين فيها غير لازم إذْ قد يزول بالإظهار"(٢).

٢- الإدغام الواجب:

إذا كان الحرفان المثلان واوين أو يائين بوصفهما نصفي حركة Semi vowels، فإنّ الإدغام واجب إذا كان الحرف الأول، من هذين الحرفين المثلين، ساكناً. ومن أمثلة ذلك: اخشوْا وَّاقدا، واخشيْ يَّاسراً.

ويبدو أن السبب الذي أوجب الإدغام، في هذه الحالة، هو توافر شروط الإدغام المتمثلة باجتماع حرفين مثلين أولهما ساكن، وثانيهما متحرك. وفي هذا يقول سيبويه: "وإذا قلت وأنت تأمر: اخشيْ يَّاسرا، واخشَوْا وَّاقدا أدغمت، لأنهما ليسا بحرفي مد كالألف، وإنما هما بمنزلة

---

(١) الكتاب. ٤/ ٤٤٠-٤٤١.

(٢) ابن عصفور: الممتع في التصريف. ٢/ ٦٥١.

قولك : أحْمَد دَّاود ، واذْهَب بِّنا. فهذا لا تصل فيه إلا إلى الإدغام، لأنك إنما ترفع لسانك من موضع هما فيه سَواء، وليس بينهما حاجز"[1].

٣- الإدغام الممتنع:

أ) لا يجوز الإدغام في الحرفين المثلين إذا كانا همزتين، وذلك في مثل: قرأَ أَبوك، واقرئ أباك. يقول سيبويه:" وأمّا الهمزتان فليس بينهما إدغام ...لأنك لا يجوز لك أن تقول: قرأ أبوك فتحققهما، فتصير كأنك إنما أدغمت ما يجوز فيه البيان، لأن المنفصلين يجوز فيهما البيان أبدا، فلا يجريان مجرى ذلك"[2].

ويقصد سيبويه بكلامه هذا، أن حدوث الإدغام يفترض إمكان حدوث البيان للحرفين المتماثلين مع الاستثقال، ولكن البيان في حالة اجتماع الهمزتين ممتنع أصلاً، ولذا فإنّ الإدغام يَمتنعُ تلقائياً.

وقد نص سيبويه- في موضع آخر من كتابه- على ذلك بصراحة، فهو يقول:" ومن الحروف ما لا يُدغم في مقاربه، ولا يدغم فيه مقاربه، كما لم يدغم في مثله، وذلك الحرف الهمزة، لأن أمرها في الاستثقال التغيير

(١) الكتاب. ٤/ ٤٤٢.

(٢) السابق. ٤/ ٤٤٣.

والحذف"[1]. فسيبويه يقرر – في هذا النص– أن الهمزة تأبى الإدغام في جميع صوره ، وأن استثقالها لا يزول أو يُخفف بإدغامها ، وإنما يتم بوسائل أخرى كالتغيير أو الحذف ، وكأنه يقصد بالتغيير هنا ، ما يطرأ على الهمزة من قلب أو إبدال أو تسهيل.

وقد عرض سيبويه – على نحو مسهب– للحالات التي تعرض للهمزتين اللتين تلتقيان، وتكون كل واحدة منهما من كلمة من حيث التحقيق والتخفيف، وذكر أن الهمزة التي تتعرض للتخفيف تكون "بمنزلتها محققة في الزنة"[2].

ب) يمتنع الإدغام، إذا كان الحرفان المثلان المتحركان واوين أو يائين بوصفهما أنصاف حركات، نحو: هذا دلْوُ واقد، وظبْيُ ياسر.

ويبدو أنّ السبب في منع الإدغام في هذه الحالة، هو أن الحرفين المثلين المتحركين قد سبقا بحرف صحيح ساكن، فلو وجب الإدغام أو أجيز في هذه الحالة، لأدى ذلك إلى اجتماع ساكنين، هما: أول الحرفين المثلين، والحرف السابق عليه مما يؤدي إلى حدوث ما يُسمى في الدرس الصوتي الحديث بالعنقود الفونيمي Cluster. وهذا أمر تفر منه العربية

---

(١) الكتاب. ٤/ ٤٤٦.

(٢) السابق. ٣/ ٥٤٨– ٥٤٩.

ولا تستسيغه. يقول سيبويه: "وتقول: هذا دلْوُ واقد، وظبْيُ ياسر، فتُجري الواوين واليائين ههنا مجرى الميمين، في قولك: اسمُ مُوسى، فلا تدغم"(١).

ت) يمتنع الإدغام إذا كان الحرف الأول، من الحرفين الملتقيين، حركة طويلة (ضمة أو كسرة)، والحرف الثاني نصف حركة (واو أو ياء) نحو: ظلموا واقدا، واظلمي ياسرا.

ولعل السبب، في امتناع الإدغام، في هذه الحالة، يعود إلى أنّ الحرفين الملتقيين ليسا – في الحقيقة- مثلين؛ فالحرف الأول ينتمي إلى فئة الحركات Vowels وينتمي الثاني إلى فئة أنصاف الحركات -Semi -Vowel. ولو أجيز الإدغام في مثل هذه الحالة لفقدت الحركة الطويلة صفتها المميزة لها، وهي صفة المد أو الطول Length، ولأَدَّى ذلك – في حالة حدوثه أيضاً- إلى تحول الحركة إلى نصف حركة. يقول سيبويه:"وإذا كانت الواو قبلها ضمة، والياء قبلها كسرة، فإنّ واحدة منهما لا تدغم إذا كان مثلها بعدها، وذلك قولك: ظلموا واقدا، واظلمي ياسرا، ويغزو واقد، وهذا قاضي ياسر. لا تدغم"(٢).

ث) لا يجوز الإدغام إذا وقع قبل الحرفين المثلين المتحركين

---

(١) الكتاب. ٤/ ٤٤٢.

(٢) السابق. ٤/ ٤٤٢.

حرف ساكن صحيح، نحو:

ا	بْ	نُ	نُ	و	ح	ابن نوح
	س	م	م			

ا	سْ	مُ	مُ	و	س	ى	اسم موسى
	س	م	م				

فلو سكّن الحرف المتحرك الأول، من الحرفين المثلين المتحركين، لأدَّى ذلك إلى اجتماع ساكنين، أو ما يطلق عليه عنقود فونيمي Cluster، هما: الساكن السابق على الحرفيين المثلين، والحرف الأول من الحرفين المثلين، الذي يسكَّن تمهيداً للإدغام. واجتماع الساكنين أمر مستثقل في العربية وغير مستساغ كما ذكرنا قبل قليل.

وعلى الرغم من عدم جواز الإدغام في هذه الحالة، إلا أن سيبويه لا يمانع من إخفاء حركة الحرف الأول من الحرفين المثلين المتحركين بوساطة اختلاسها، ولكنها تبقى، مع ذلك، بزنة الحرف المتحرك[1].

وقد أجاز أبو عمرو بن العلاء الإدغام في مثل هذه الحالة، فنسبت إليه كتب القراءات الإدغام في قوله تعالى: ﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ

(١) الكتاب. ٤/ ٤٣٨.

﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ ﴾[1] وذلك بإدغام الباء المسبوقة بحرف ساكن صحيح في كلمة "ٱلرُّعْبَ"، في الباء التي بعدها في "بِمَآ". كما نسبت إليه الإدغام في قوله تعالى أيضاً: ﴿ وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ ﴾[2] وذلك بإدغام السين المسبوقة بحرف صحيح ساكن في كلمة "ٱلشَّمْسَ" في السين التي بعدها في كلمة "سِرَاجًا".

ج) إذا سبق أول الحرفين المثلين بحرف ساكن مدغم لم يجز الإدغام، وجاز الإخفاء، وذلك مثل: مررتُ بوليّ يزيد، وعدوّ وليد. والسبب في ذلك يعود إلى أن الإدغام قد أزال المدّ الذي كان في الساكن المدغم، فصار بمنزلة الساكن الصحيح. مثل: ظبْيُ ياسر، ودلْو واقد. يقول سيبويه: "وإذا قلت مررت بوليِّ يزيد، وعدوِّ وليد، فإن شئت أخفيت، وإن شئت بينت، ولا تسكِّن، لأنك حيث أدغمت الواو في عدوّ، والياء في وليّ، فرفعت لسانك رفعة واحدة ذهب المد، وصارتا بمنزلة ما يدغم من غير

(١) آل عمران: ١٥١. يُنظر: كتاب الممتع في التصريف. ٢/ ٧١٩.

(٢) نوح: ١٦. يُنظر: كتاب الممتع في التصريف. ٢/ ٧٢٥.

المعتل، فالواو الأولى في عدوٍّ بمنزلة اللام في دَلْوٍ، والياء الأولى [في وليٍّ] بمنزلة الياء في ظبْيٍ"[1].

ويبدو لنا أن السبب في عدم جواز الإدغام، في هذه الحالة، يرجع إلى أن حدوثه من شأنه أن يسكن أول المثلين، مما يؤدي إلى التقاء ساكنين، هما: الحرف الأول من المثلين، والحرف السابق عليه، وهذا أمر تفر منه العربية ولا تستسيغه، كما قلنا سابقاً. ومن ناحية أخرى، فإنّ حدوث الإدغام في مثل هذه الحالة، سوف يؤثر في الإدغام الحاصل في داخل الكلمة الأولى، فيؤدي إلى فكِّه، مع العلم بأن الإدغام في الكلمة الواحدة أولى منه بين كلمتين.

ملحوظات:

يتضح، مما سبق، أنّ الإدغام في الحرفين المثلين المنفصلين – عند سيبويه يستند- فيما يبدو لنا- إلى بعض الأصول والقواعد الصوتية، ومنها:

١. استثقال توالي صوامت متلوة بحركات دون أن تتخللها صوامت ساكنة. وقد نصّ سيبويه – وغيره من اللغويين العرب

(١) الكتاب. ٤/ ٤٤٢.

القدامى-على أنه "كلما توالت الحركات أكثر، كان الإدغام أحسن"(١). ويؤيد الاتجاه العام للغة العربية - في هذا المجال- ما ذهب إليه سيبويه، وهو النفور من توالي المتحركات في الكلام بعامة وعدم استساغته. وقد ذكر اللغويون العرب أنّ الفعل الماضي - على سبيل المثال- يُبنى على السكون في حالة اتصاله بضمير رفع متحرك بارز، وذلك بسبب كراهية توالي أربع حركات فيما هو كالكلمة الواحدة. يقول الأزهري في هذا الصدد:" وأما ضربت ونحوه مما اتصل بضمير رفع متحرك بارز فالسكون فيه عارض أوجبه كراهتهم، أي العرب، توالي أربع متحركات، وهي أحرف الفعل الثلاثة، وتاء الفاعل فيما هو كالكلمة الواحدة"(٢). وفي العروض العربي يمتنع أيضاً تتالي أكثر من ثلاثة مقاطع قصيرة وتعد التفعيلة "مُتَعِلُن"، وهي إحدى صور التفعيلة "مستفعلن" أكثر التفعيلات العروضية اشتمالاً على صوامت متحركة، وهي قليلة الاستعمال.

٢. وفي مقابل ذلك، فإنّ الإدغام يمتنع إذا أدى تطبيقه إلى توالي صوامت ساكنة؛ وهو ما يطلق عليه الدرس الصوتي الحديث العناقيد

---

(١) الكتاب. ٤/ ٤٣٧. وكذلك: ابن عصفور: الممتع في التصريف. ٢/ ٦٥١. وكذلك: ابن يعيش: شرح المفصل. ١٠/ ١٢٢.

(٢) خالد الأزهري: شرح التصريح على التوضيح. ١/ ٥٠.

الفونيمية، كما ذكرنا سابقاً. فاللغة العربية، التي تنفر من توالي المتحركات، تنفر أيضاً من توالي السواكن، الأمر الذي يحول -كما قلنا- دون حدوث الإدغام الذي يستتبع تسكين أول الحرفين المدغمين . ولهذا، فإنّ معظم الحالات التي امتنع فيها الإدغام، عند سيبويه، كان توالي الصوامت الساكنة سبباً فيها.

٣. يُعد وجود حركات مد طويلة، قبل الحرفين المثلين المنفصلين، أو بعدهما، من العوامل التي تشجع حدوث الإدغام عند سيبويه. ولعل السبب في ذلك يعود إلى صعوبة الجمع بين حركات المد ذات النطق الحر المريح ذي المدة الطويلة، والنطق بصوامت متماثلة متلوة بحركات قصيرة في آن واحد. ولهذا فإنّ إدغام المثلين يحقق -فيما يبدو لنا- نوعاً من التماثل بين الأصوات المتجاورة في صفة الطول أو الكمية Length/ Duration، التي لا تقتصر على الحركات فحسب، وإنما تشمل الصوامت أيضاً، حيث يُعد الحرف المشدد، أو المضعف صوتاً واحداً طويلاً يساوي زمنُه زمنَ صوتيين اثنين. وفي هذا يقول كانتينو، في تعريفه للحروف المضعفة، بأنّ النطق بها يمتد فيضاهي مداها مدى حرفين بسيطين تقريباً[1]. وقد قرر، من قبله، صاحب مراح الأرواح، أنّ الإدغام هو إلباث الحرف في مخرجه مقدار إلباث حرفين، وأن الحرف

---

(١) كانتينو: دروس في علم أصوات العربية. ص: ٢٥.

المشدد زمانه أطول من زمان الحرف الواحد، وأقصر من زمن الحرفين(١).

٤. يؤدي سبق الحرفين المثلين بالواو والياء، بوصفهما نصفي حركة، أو نصفي صامت، كما في ثوْب بكر، وجيْب بكر، إلى إمكان تطبيق حالة اعتبار الإدغام ممتنعاً، وذلك لوجود صفة "الصامتية" في الواو والياء. وكذلك يمكن انطباق حالة اعتبار الإدغام جائزاً بين الحرفين المثلين، وذلك في حالة توافر صفة "الحركية" في الواو والياء. ويبدو لنا، بناءً على هذا، أنّ الواو والياء، في الحالة الأولى، وهي حالة منع الإدغام، تكون جزءاً مما يُسمى بالحركة المزدوجة Diphthong أَوْ، وأَيْ. هكذا: ثَوْب، وجَيْب، في حين تكون الواو والياء، في الحالة الثانية، وهي حالة جواز الإدغام، حركة مد طويلة هكذا: ثُوب وجِيب.

٥. يعد اجتماع الحرفين المثلين اللذين أولهما ساكن، سواء أكان هذا الساكن حرفاً صحيحاً، أم نصف حركة، من موجبات الإدغام، نحو: احمَدْ داود، واذهبْ بنا، واخشوْا واقداً، واخشيْ ياسراً. والسبب في ذلك راجع إلى "أنك إنما ترفع لسانك – كما يقول سيبويه– من موضع هما فيه سواء وليس بينهما حاجز"(٢). وإضافة إلى ذلك ، فإن الإدغام بين أنصاف الحركات المتماثلة ، على نحو خاص في مثل : اخشوْا واقداً،

---

(١) ديكنقوز: شرح مراح الأرواح في علم الصرف. ص: ٨٢، ٨٣.

(٢) الكتاب. ٤/ ٤٤٢.

وأخشي يّاسراً، من شأنه أن يمنح أنصاف الحركات، التي تعدُّ صوامت ضعيفة Weak Consonants[(١)]، قوة، بل إن من شأن ذلك أن يحول نصف الحركة المشدد، أو المضعف ويصيّرها " كالحرف الصحيح "[(٢)] فيتحقق بذلك الهدف المنشود من الإدغام، وهو تحقيق التخفيف في النطق "وذلك لأنه يثقل عليهم أن يستعملوا ألسنتهم من موضع واحد ثم يعودوا له، فصار ذلك تعباً عليهم أن يداركوا في موضع واحد ولا تكون مهلة، كرهوه وأدغموا لتكون رفعة واحدة، وكان أخف على ألسنتهم"[(٣)].

٦. ذهب سيبويه إلى امتناع الإدغام في حالة التقاء همزتين في كلمتين منفصلتين. ولعل السبب في ذلك يعود إلى أن "عملية النطق بها (أي الهمزة)، وهي محققة، من أشق العمليات الصوتية لأن مخرجها فتحة المزمار التي تنطبق عند النطق بها، ثم تنفتح فجأة، فنسمع ذلك الصوت

---

(١) د. عبد الصبور شاهين : القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث، ص:٤٣-٤٤، وينظر أيضاً :

- هنري فليش ، العربية الفصحى ، ص:٣٩ .

- هنري فليش ، فقه العربية ، ص:٦٥ .

-Beeston ,A.F.L. The Arabic Language Today ,P:19.

(٢) الرضي : شرح الشافية ٣/ ٧٨، ١٩٢.

(٣) الكتاب. ٤/ ٤١٧.

الانفجاري التي نسميه بالهمزة المحققة"[١]. وبناء على هذا، فإنّ النطق بهمزتين متواليتين محققتين يزيد من صعوبة النطق بهذا الصوت[٢]، كما أن الإدغام لا يساعد كثيراً في التخلص من صعوبة النطق بالهمزتين محققتين.

وصحيحٌ أن "إدغام الحرف في الحرف، أخف على الناطقين من إظهار الحرفين – كما يقول ابن جني– نظراً لأن اللسان ينبو عنهما نبوة واحدة"[٣] ، إلا أن النطق بالهمزتين المدغمتين يقتضي جهداً أكبر من الجهد المبذول في أثناء النطق بالهمزة الواحدة، وذلك عائد إلى طول الزمن الذي يستغرقه النطق بالصوت المشدد. وهذا يعني أن الجهد الذي يحتاج إليه الناطق، في حالة إدغام الهمزتين، سوف يكون مضاعفاً بالنسبة للجهد الذي يحتاجه في أثناء النطق بالهمزة المفردة المحققة، وهو أمر –في حد ذاته – عسير. ولهذا فقد وجدنا "أهل التحقيق يخففون إحداهما ويستثقلون تحقيقهما... كما استثقل أهل الحجاز تحقيق الواحدة، فليس من كلام العرب أن تلتقي همزتان فتحققا، ومن كلام العرب تخفيف الأولى، وتحقيق الآخرة، وهو قول أبي عمرو...ومنهم من يحقق الأولى

(١) د.إبراهيم أنيس: في اللهجات العربية. ص:٧٧. ويُنظر أيضاً: الكتاب.٣/ ٥٤٨

(٢) ابن جني : سر صناعة الاعراب ١/ ٧١.

(٣) ابن جني: الخصائص. ٢/ ٢٢٧.

ويخفف الآخرة...وأما أهل الحجاز فيخففون الهمزتين، لأنه لو لم تكن إلا واحدة لخُفِّفت"(١).

٧. وتجدر الإشارة إلى أن الأصل في إدغام الحرفين المثلين المنفصلين – عند سيبويه، وعند غيره من اللغويين أيضاً – هو البيان أبدا(٢)، حتى في تلك الحالات التي يعدها سيبويه نفسه من أكثر حالات الإدغام استحساناً، وهي الحالة، أو الحالات، التي يكثر فيها توالي الحركات؛ فهو في كثير من فواصل حالات الإدغام بين الحرفين المثلين المنفصلين ينص على أن البيان – على سبيل المثال- "عربي جيد حجازي"(٣)، أو أنه "يزداد حسناً"(٤)، أو أنه "في هذا أحسن"(٥)، أو "وإن شئت بينت"(٦).

---

(١) الكتاب. ٣/ ٥٤٩- ٥٥٠.

(٢) السابق. ٤/ ٤٤٣.

(٣) السابق. ٤/ ٤٣٧.

(٤) السابق. ٤/ ٤٣٨.

(٥) السابق. ٤/ ٤٤٠.

(٦) السابق. ٤/ ٤٣٧

ويبدو لنا، أن السبب في ذلك عائد إلى أن الكلمة الثانية – كما يقول ابن يعيش- لا تلزم الأولى[1]، فضلاً عن أن البيان وعدم الإدغام من شأنه أن يمكن "مورفيمات" الإعراب التي تُذيَّل بها نهايات الكلمات من الظهور، في حين، يؤدي الإدغام بين الحرفين المثلين المنفصلين إلى خفاء تلك المورفيمات وعدم ظهورها بسبب تسكين أول المثلين الذي يحمل، في العادة، تلك الحركة الإعرابية.

ولعل هذا هو السبب الذي دفع سيبويه إلى القول بأنّ الإدغام بين الحرفين المثلين، المنفصلين يمكن أن يصل إلى مرحلة الوجوب، أو هو واجب فعلاً، إذا جاء أول هذين المثلين ساكناً لأي سبب من الأسباب. ومن الأمثلة التي قدَّمها سيبويه على هذا الذي نتحدث عنه، قوله: اذهبْ بنا، واحمدْ داود، وقوله: اخشوْا واقداً، واخشيْ ياسرا، فقد جاء أول المثلين في هذه الأمثلة – وما كان على شاكلتها- ساكناً لسبب نحوي أو صرفي، مما جعل عملية الإدغام هنا عملية لا يترتب عليها ضياع تلك الحركات الدالة على الوضع الإعرابي أَوْ خفاؤها.

٨. ألحق سيبويه بعض الصيغ المشتملة على حرفين مثلين في حالة الاتصال، بدراسته للحرفين المثلين في حالة الانفصال، ومن الأمثلة التي قدمها سيبويه – في هذا الصدد- بعض الأفعال التي ترد على صيغة

---

(١) ابن يعيش: شرح المفصل. ١٠/ ١٢٢.

"افتعل"، أو مشتقاتها، والتي تكون عينها تاء من مثل:"اقتتل" و"يقتتل"؛ ففي هذه الحالة، فإن سيبويه يرى امكان البيان والإظهار، وإمكان الإخفاء مع الاحتفاظ بوزن الكلمة على حالها، ثم امكان الادغام في بعض الحالات.

ويستند سيبويه – في تسويغه للبيان، أو الإخفاء، وعدم الإدغام- إلى أن صيغة "افتعل" لا تفترض وجود تاءين (أي حرفين متماثلين) بالضرورة، في الأفعال التي ترد على وزنها كما هو الحال في صيغتي "افعلّ"، وافعالَّ في مثل: احْمَرَّ واحْمارَّ، حيث تشتمل كل صيغة من هاتين الصيغتين، والأفعال التي ترد على وزنهما كذلك، على حرفين مثلين بالضرورة مما يوجب وقوع الإدغام فيهما.

أما الإدغام – في هذه الحالة- فقليل، ولا يلجأ إليه إلا بعض العرب. ويستند سيبويه، في امكان وقوعه، إلى أن الحرفين المثلين في مثل: اقتتلوا، ويقتتلون، قد وقعا "في كلمة واحدة، ولم يكونا منفصلين، وذلك قولك: يَقِتِّلون، وقد قِتِّلوا، وكسروا القاف لأنهما التقيا... وقد قال آخرون: قَتَّلوا، أَلْقَوْا حركة المتحرك على الساكن، وجاز في قاف (اقتتلوا) الوجهان"[1].

---

(١) الكتاب. ٤/ ٤٤٣.

ثانياً–الإدغام في الحرفين المثلين غير المنفصلين:

لم يقتصر درس سيبويه وبحثه للقضايا الصوتية في كتابه على الباب الذي خصصه لموضوع الإدغام، وإنما بوسع الدارس أن يجد شيئاً من تلك القضايا مبثوثة في تضاعيف كتابه هنا وهناك. وعلى الرغم من اقتصار درسنا للأصوات لدى هذا العالم على ما ورد عنده في باب الإدغام، إلا أننا أحسسنا – استيفاء للموضوع – بضرورة الإلمام ببعض الجوانب التي عالجها سيبويه في غير باب الإدغام كي تكون القضية جلية واضحة. ومن تلك المواضع المهمة، التي نلمح فيها شيئاً من هذا الذي نذهب إليه، باب التضعيف الذي تناول فيه سيبويه مسألتين هما:

- الإدغام في الحرفين المثلين في الكلمة الواحدة.
- ما يعرض للتضعيف من ظواهر غير الإدغام.

وسنحاول – فيما يأتي– تناول هاتين المسألتين على نحو موجز:

١) الإدغام في الحرفين المثلين في الكلمة الواحدة:

نص سيبويه – في مستهل باب التضعيف[1]– على أن المسوغ الذي دفع الناطقين بالعربية – أو لنقل بعضهم– إلى إجراء الإدغام في

---

(١) يقصد سيبويه بالتضعيف، أن يكون آخر الفعل حرفان من موضع واحد. يُنظر: الكتاب. ٣/ ٥٢٩.

المضعف، يستند إلى أنه "يثقل عليهم (أي على الناطقين) أن يستعملوا ألسنتهم من موضع واحد ثم يعودوا له، فلما صار ذلك تعباً عليهم أن يداركو في موضع واحد، ولا تكون مهلة كرهوه وأدغموا، لتكون رفعة واحدة، وكان أخف على ألسنتهم"[1]. وقد تناول شيخنا قضية الإدغام في المضعف على النحو الآتي:

أ) في الأفعال التي تتماثل فيها العين واللام:

أولاً: إذا تحركت لام الفعل وجب الإدغام. وهذا يستتبع – بالضرورة- تسكين العين تمهيداً للإدغام. ويتفق في هذا الإجراء – كما ذكر سيبويه- كل من الحجازيين والتميميين. ويعود السبب في ذلك – كما ذكرنا سابقاً- إلى أنه لما كان الحرفان المثلان "من موضع واحد ثقل عليهم أن يرفعوا ألسنتهم من موضع ثم يعيدوها إلى ذلك الموضع

---

(١) الكتاب. ٤/ ٤١٧. وتجدر الإشارة إلى أنّ هذه الظاهرة ليست خاصة باللغة العربية، وإنما هي ظاهرة موجودة في لغات أخرى كاللغة الإنجليزية؛ ففي حالة اجتماع صوتين مثلين في داخل الكلمة، في الإنجليزية، ويكون هذان الصوتان من الأصوات الأنفية، أو الاحتكاكية، أو الجانبية، فإنهما ينطقان صوتاً واحداً طويل المدة، ومن الأمثلة على ذلك كلمة Unnecessary.

يُنظر: Daniel Jones, The Pronunciation of English. P:145

للحرف الآخِر ، فلما ثقل عليهم ذلك أرادوا أن يرفعوا رفعة واحدة"[١].

ومن أمثلة ذلك الفعلان: مدّ، وردَّ، وما كان على شاكلتهما. ويتم الإدغام في هذا المضعف على النحو التالي: مَدَدَ ← مَدْدَ ← مَدَّ.

madda ← madada

ثانياً: أما إذا وردت لام الفعل ساكنة لسبب نحوي، على سبيل المثال، وذلك في نحو:" لم يمدُدْ" ونحو "ارْدُدْ"، فإنّ الحجازيين يختلفون مع التميميين في إجراء الإدغام على النحو التالي:

أ. يمنع الحجازيون الإدغام[٢] ويجرون الفعل على الأصل، فيسكنون لام الفعل بحكم موقعه الذي ورد فيه، وهو الجزم. وهم يستندون في قولهم، بعدم الإدغام، إلى أنه – أي الإدغام- يقتضي منهم اسكان العين، وهي أول الحرفين المثلين، مما يؤدي إلى اجتماع مثلين ساكنين في كلمة واحدة، وهذا – كما هو معلوم- أمر تأباه العربية وتفرُّ منه.

ب. أما التميميون فيدغمون، ويعمدون – من أجل ذلك- إلى اسكان أول الحرفين المثلين وتحريك الآخر، "لأنهما لا يسكنان جميعاً"[٣]،

---

(١) الكتاب. ٣/ ٥٣٠.

(٢) السابق. ٣/ ٥٣٠، ٤/ ٤١٨.

(٣) السابق. ٣/ ٥٣٠، ٤/ ٤١٨.

و"ليرفعوا ألسنتهم رفعة واحدة"(١). ويتم ذلك عند التميميين على النحو الآتي:

١. إذا كان الحرف السابق للحرف الأول من الحرفين المثلين ساكناً، فإننا نلقي عليه حركة أول المثلين، سواء أكانت تلك الحركة فتحة، أم ضمة، أم كسرة. ويتم ذلك على النحو التالي

لم يَرْدُدْ ← لم يَرُدْدَ ← لم يَرُدَّ(٢):

lam/ ya/rud/da ← lam/ yar/dud

٢. أما إذا كان الحرف السابق للحرف الأول من الحرفين المثلين همزة وصل، فإنها تحذف" لأنه قد استغني عنها حيثُ حُرِّكَ، وإنما احتيج إليها لسكون ما بعدها"(٣).

وذلك نحو: ارْدُدْ ← رُدْدَ ← رُدَّ

rudda ← ᵓurdud

٣. وإذا وجد فاصل بين أول الحرفين المثلين، وهمزة الوصل، فإن حركة الحرف الأول، من الحرفين المثلين، تلقى على الساكن السابق عليه دون أن تتعرض همزة الوصل إلى الحذف؛ "لأن الحرف الذي بعده ألف

---

(١) الكتاب. ٤/ ٤١٨.

(٢) السابق. ٣/ ٥٣١.

(٣) السابق. ٣/ ٥٣١.

الوصل ساكن"[1] وذلك نحو: اسْتَعْدِدْ ←اسْتَعِدْد ←استَعِدَّ.

ᵓistaᶜidda ← ᵓistaᶜdid

٤. أمّا إذا كان الحرف السابق، لأول الحرفين المثلين متحركاً، وكانت الكلمة مبدوءة بهمزة وصل. فإنّ حركة الحرف السابق لأول المثلين تبقى على حالها، كما تبقى همزة الوصل في بنية الكلمة؛ "لأن الذي بعدها لم يحرك"[2] ثم يجري الإدغام في الحرفين المثلين. ومن الأمثلة على ذلك: اجْتَرِر ← اجترَّ.

ᵓigtarra ← ᵓigtarir

٥. إذا وقع قبل أول الحرفين المثلين ألف، وكانت الكلمة مبدوءة بهمزة وصل، فإنّ هذه الألف تبقى على حالها؛ لأنها – كما يقول سيبويه– قد ترد متلوة بساكن مدغم. والواقع أن هذه الألف التي يتحدث عنها سيبويه هنا، والتي تقع قبل الساكن المدغم كما ذكر، هي في الحقيقة حركة طويلة، وليست حرفاً ساكناً، كما اعتقد القدماء، فلا خشية، من ثمة، من التقاء ساكنين على نحو ما كانوا يظنون.

أما بالنسبة لهمزة الوصل، فإنها تبقى على حالها أيضاً؛ "لأن

---

(١) الكتاب. ٣/ ٥٣١.

(٢) السابق. ٣/ ٥٣١-٥٣٢.

الساكن الذي بعدها لا يحرك"[1]. ومن الأمثلة على ذلك اشهابَّ، واحمارَّ.

٦. وإذا وقع قبل أول الحرفين المثلين ألف – أي فتحة طويلة– ولم تكن الكلمة مبدوءة بهمزة وصل، نحو: لا تضارَّ، ولا تجارّ... فإنّ هذه الألف تبقى على حالها. كما أن بنية الكلمة، وإدغامها لا يتأثران بالجزم، فيبقيان كما كانا عليه في حالة قبل الجزم.[2]

٧. وإذا كانت الكلمة مبدوءة بهمزة قطع، وكان الحرف السابق لأول المثلين ساكناً، فإننا نحتفظ بهمزة القطع، ثم ننقل حركة أول المثلين إلى الحرف الساكن قبله، ثم يجري الإدغام[3]، وذلك نحو:

أَمْدِد ←—— أَمِدَّ. وأَعْدِد ←—— أَعِدَّ.

ᵓamdid ——→ ᵓamidda و ᵓaᶜdid ——→ ᵓaᶜidda

ثالثاً: وإذا كانت صيغة الفعل تقتضي مضاعفة العين، فضلاً عن كون العين واللام حرفين مثلين، فإنّ من الضروري اسكان العين الأولى وإدغامها في العين الثانية. ومن أمثلة ذلك الفعل "ردَّدَ" بزنة فَعَّلَ. وتجدر الإشارة إلى أنه لا يجوز إدغام العين الثانية في لام الفعل على الرغم

---

(١) الكتاب. ٣/ ٥٣٢.

(٢) السابق. ٣/ ٥٣٢.

(٣) السابق. ٣/ ٥٣٢.

من تماثلهما، نحو:"رَدَدَّ"؛ لأنّ هذا لا يحل مشكلة التضعيف، التي لا تزال في هذه الصيغة "رَدَدَّ" قائمة على نحو ما هي قائمة في الصيغة "رَدَّدَ"، فضلاً عن أن نظام اللغة العربية –في أفعالها وأسمائها جميعاً– لا يسمح بأن ترد العين الأولى متحركة وبعدها العين الثانية؛ لأن "العين الأولى تكون أبداً ساكنة في الاسم والفعل فكرهوا تحريكها"[1].

ب) في الأسماء:

١) في الأسماء المزيدة على ثلاثة أحرف:

تعامل هذه الأسماء– كما ذكر سيبويه– معاملة الفعل المكون من أربعة أحرف، وذلك عائد إلى ما في هذه الأسماء – مثل ما في الأفعال– من الاستثقال والصعوبة في النطق. ويتم الإدغام، في هذا النوع من الأسماء، على النحو الآتي:

أ. إذا كان الحرف السابق على أول الحرفين المثلين ساكناً، فإننا نلقي عليه حركة الحرف الأول من الحرفين المثلين كائنة ما كانت تلك الحركة، مما يؤدي إلى إسكان أول المثلين تمهيداً لإدغامه في مثله التالي له.

وذلك نحو: مُسْتَرْدِد ← مستَرِدْد ← مسترِدّ.

ونحو: mustardid ← mustaridd

(١) الكتاب. ٤/ ٤١٨.

مُسْتَعْدَد ←مُسْتَعَدْد ← مُسْتَعَدّ.

musta^{c}dad ← musta^{c}add ونحو

مُدْقُق ← مُدُقْق ← مُدُقّ (١):

mudquq ← muduqq

أَلْدَدُ ← أَلَدْدُ ← أَلَدُّ.

^{ɔ}aldadu ← ^{ɔ}aladdu

أَشْدَدُ ← أَشَدْدُ ← أَشَدُّ.

^{ɔ}ašdadu ← ^{ɔ}ašaddu

ويستند سيبويه، في التحولات الداخلية التي يجريها على بنية هذه الكلمات، وما كان على غرارها، إلى أن إِجراء الإدغام يستدعي اسكان الحرف الأول من الحرفين المثلين، مما يؤدي إلى التقاء حرفين ساكنين، أولهما: الحرف السابق على أول المثلين. وثانيهما: أول الحرفين المثلين الذي سكن تمهيداً لإدغامه في مثله. وهذا أمر تأباه العربية وتفر منه.

ب. إذا كان الحرف السابق على أول الحرفين المثلين متحركاً بحركة قصيرة، أو بحركة طويلة، وهي التي يطلق عليها سيبويه، ومعه التراث اللغوي للعربية، اسم الألف(٢)، فإنّ الحركة القصيرة أو الطويلة تبقى على حالها، ثم يجري اسكان أول المثلين تمهيداً لإدغامه في مثله التالي

(١) المدق: هو حجر يدق به الطيب. اللسان مادة "دقق"

(٢) الكتاب. ٤/ ٤١٩.

له، وذلك نحو: مُرْتَدِدٌ ←مرتَدْدٌ ← مُرْتَدٌّ.

murtadidun ←murtaddun. ونحو:

رادِدٌ← رادْدٌ ←رادٌّ .

raadidun ←raaddun

ويستند سيبويه، في محافظته على الحركتين القصيرة والطويلة السابقتين على أول المثلين، إلى أنَّ الإسكان، الذي يتعرض له الحرف الأول من الحرفين المثلين تمهيداً لإدغامه في مثله التالي له، لا يؤدي إلى ساكنين على نحو ما كان عليه الوضع في الحالة السابقة.

ومما يؤكد ضرورة وقوع الإدغام في مثل رادّ، ومادّ، استحالة التخلي عن أيٍّ من الدالين الواقعتين بعد الفتحة الطويلة التي يسميها سيبويه – كما قلنا– ألفاً، خلافاً للنونين الواقعتين بعد الفتحة الطويلة في مثل يضربانني، حيث يمكن التخلص من الاستثقال الحادث من اجتماع النونين هنا، بحذف النون الأخيرة كما يقول سيبويه[1]، في حين يمكن تخفيف الاستثقال الحادث من اجتماع الدالين في الأمثلة التي قدمها سيبويه بوساطة ادغامهما معاً لا حذف إحداهما.

ولعل السبب الذي دفع سيبويه إلى إجازة حذف إحدى النونين، أو النون الأخيرة –على وجه التحديد– في يضربانني، وما كان على

---

(١) الكتاب. ٤/ ٤١٩.

شاكلتها ، وعدم جواز حذف إحدى الدالين في رادّ، وما كان على غرارها، يعود إلى أن جواز الحذف في الحالة الأولى، لا يؤثر في الفئة الشكلية للكلمة Form Class[1]، وهي الفعل هنا، في حين يؤدي الحذف، في الحالة الأخيرة، إلى المسِّ بالفئة الشكلية للكلمة، وهي الاسم هنا، مما يؤدي إلى حدوث لبس في بنى الكلمات ودلالتها أيضاً.

٢) في الأسماء الثلاثية: قسم سيبويه هذا النوع من الأسماء إلى قسمين:

أ. أسماء ذات صيغ مشتركة مع الأفعال[2]:

---

(١) نقصد بالفئة الشكلية Form Class، مجموعة من الكلمات ذات سمة مشتركة، كالأسماء، أو الصفات، أو الأفعال، بحيث تأخذ في الغالب لواصق معينة، أو تكون ذات توزيع موقعي متشابه. يُنظر:

Ronald Wardhaugh, Introduction to Linguistics, PP 337, 241-242.

أو هي مجموعة من الكلمات تحظى بأَدْوار متشابهة من حيث إمكان ورودها في تأليف أشكال أكبر. يُنظر:

Charles C. Hockett, A course in modern Linguistics. P. 162.

(٢) جاء في نسخة الكتاب، التي حققها أستاذنا عبد السلام هارون، قوله: "فأما ما جاء على ثلاثة أحرف لا زيادة فيه، فإن كان يكون فَعِلا..." ٤/ ٤١٩، والصواب -في رأينا- هو: فإن كان يكون فِعْلاً، وذلك حتى يرد الكلام التالي للقاعدة التي وضعها سيبويه منسجماً معها، وحتى تكون هذه=

إذا وردت هذه الأسماء على زنة "فَعِل" أو "فَعُل" أو "فَعَل" فإنّ الأسماء، التي ترد على وزن الصيغتين الأوليين ، يحدث في المضعف منهما إدغام، وذلك بسبب استثقال النطق بالكسرة والضمة، في مثل هاتين الصيغتين المضعفتين، فضلاً عن كون الأسماء المضعفة التي ترد على زنة هاتين الصيغتين المضعفتين محدودة وقليلة العدد بالقياس إلى الأسماء المضعفة ، التي ترد على وزن الصيغة الأخيرة "فَعَل"، التي ترد مضعفة، نظراً لكون الأسماء التي ترد على وزنها كثيرة بالقياس إلى الأسماء المضعفة، التي ترد على وزن الصيغتين الأوليين "فَعِل" و "فَعُل"؛ ولأن هذه الأسماء المضعفة التي ترد مفتوحة الفاء والعين في غاية الخفة على حد قول الرضي[1]، ولأن الكسرة أثقل من الفتحة كما يقول سيبويه[2].

ويقدم سيبويه على ذلك مثالين، هما: صبٌّ، وطبّ، فهما على وزن الصيغة الأولى "فَعِل"، التي تعدّ صيغة مشتركة بين الأفعال والأسماء؛ فكما أن الأصل المضعف لهاتين الصيغتين هو صَبِبٌ، وطَبِبٌ،

=القاعدة منسجمة أيضاً في تقابلها مع القاعدة الثانية التي أوردها سيبويه في مناقشته لهذا الموضوع، وهي القاعدة التي قال فيها:" وأما ما كان على ثلاثة أحرف، وليس يكون فِعْلاً..." ٤/ ٤٢١.

(١) الرضي: شرح الشافية. ٣/ ٢٤٢.

(٢) الكتاب. ٤/ ٤٢٠، ٣/ ٣٣٥.

فإنّ هناك أفعالاً ترد على هذا الوزن، مثل: قَنِع، وقَرِح، ومَذِل[1]. ومن هذا المنطلق، فقد عد سيبويه قول العرب: رجل ضَفِف، وقوم ضَفِفو الحال[2]، نوعاً من الشذوذ، إذ الوجه عنده أن يقال: رجل ضَفٌّ، وقومٌ ضَفُّو الحال [3].

ب. أسماء ليس لها صيغ مشتركة مع الأفعال:

تجري الأسماء، التي ترد على صيغ خاصة بها، وغير مشتركة مع الأفعال، عند سيبويه، على الأصل؛ أي أنها تبقى مضعفة ولا يحدث فيها إدغام. ومن الصيغ، التي قدمها سيبويه، في هذا المجال، صيغ: "فِعَل"، و"فُعَل"، و"فُعُل"، و"فُعُلة". ومن الأمثلة على ذلك، الأسماء: دِرَر، وسُرَر، وسُرُر، وبُلُلة... إلخ [4].

ولعل السبب الذي حال دون الإدغام، في هذه الأمثلة، يعود إلى كونها أسماء مجموعة، وقد اتخذت للدلالة على الجمع مورفيمات حركية

---

(١) المذل: الباذل لما عنده من مال أو سر، وكذلك إذا لم يقدر على ضبط نفسه. اللسان مادة "مذل".

(٢) الضفف: شدة المعيشة، ومن معانيها، أيضاً، العجلة في الأمر. اللسان مادة "ضفف"

(٣) الكتاب.٤/ ٤٢٠. ويُنظر تفصيل ذلك، أيضاً في الكتاب. ٤/ ٣٦-٣٧.

(٤) السابق ٤/ ٤٢١.

خاصة بها ولا غنى عنها، ومن شأن الإدغام ان يؤدي إلى إزالة تلك العلامات الدالة على صفة الجمع فيها. وإضافة إلى ذلك، فإن الإدغام – في حال حدوثه- قد يؤدي إلى إحداث لبس بين صيغها والصيغ الفعلية[١].

٣) ما يعرض للتضعيف من ظواهر غير الإدغام:

عالج سيبويه – في باب ما شذ من المضاعف والأبواب التالية له[٢] – بعض ما يعرض للتضعيف من ظواهر غير إدغامية، ومن تلك الظواهر:

أ. الحذف: يقصد بالحذف هنا، اسقاط أحد الحرفين المثلين الواردين في الكلمة المضعفة. ومن الأمثلة التي قدمها سيبويه، في هذا المجال، الأفعال: أَحْسَسْت، وأحْسَسْن، وَمَسِسْت، وظَلِلْت... إلخ. ففي هذه الأمثلة لا يجوز الإدغام بين الحرفين المثلين؛ لأن ذلك يستدعي اسكان أول الحرفين المثلين، مما يؤدي إلى اجتماع ساكنين، هما: أول الحرفين المثلين المسكن – كما ذكرنا –، ولام الفعل الساكنة. وهذا أمر لا تستسيغه العربية كما ذكرنا في مواضع كثيرة. فلا بدَّ – من ثمَّة – من

(١) ابن يعيش: شرح المفصل. ١٠/ ١٢٣.

(٢) الكتاب. ٤/ ٤٢١.

الإظهار وعدم الإدغام. وفي هذا يقول سيبويه:" وكذلك تفعل به في كل بناء تبني اللام من الفعل فيه على السكون، ولا تصل إليها الحركة، شبهوها بأَقَمْتُ لأنهم أسكنوا الأولى، فلم تكن لتثبت والآخِرَةُ ساكنة"[١].

غير أنّ العرب قد شذوا – كما يقول ابن عصفور– في شيء من ذلك ، فحذفوا أحد المثلين تخفيفاً، لما تعذر التخفيف بالإدغام، والذي يحفظ من ذلك "أَحَسْتُ" و"ظَلْتُ" و"مَسْتُ"[٢]. ويعد سيبويه الأصل – أي التضعيف وعدم الحذف – عربياً كثيراً، أما الحذف فيعدّه شاذاً، ثم ينص على أنه لا يعلم شيئاً من المضاعف شذ... إلا هذه الأحرف"[٣].

ب. الإبدال: يقصد بالإبدال هنا، قلب أحد الأحرف المتماثلة في الكلمة المضعفة إلى ياء، ومن الأمثلة التي قدمها سيبويه في هذا المجال، قوله: تَسَرَّيْت، وتظَنَّيْت، وتقصَّيْت، وأَمْلَيْت[٤].

وتعد ظاهرة الإبدال، التي عرضها سيبويه، في هذا الموضع من كتابه، جزءاً من ظاهرة لغوية تعرف باسم المخالفة Dissimilation،

---

(١) الكتاب. ٤/ ٤٢١.

(٢) ابن عصفور: الممتع في التصريف. ٢/ ٦٦١.

(٣) الكتاب. ٤/ ٤٢٢.

(٤) السابق. ٤/ ٤٢٤، وينظر أيضاً : القالي : كتاب الأمالي ٢/ ١٦٧.

وهي لون من ألوان التطور الذي يعرض للأصوات اللغوية، ويقصد بها "أنه إذا كان هناك صوتان متماثلان تماماً في كلمة من الكلمات، فإنَّ أحدهما قد يتغير إلى صوت من أصوات العلة الطويلة في الغالب، أو إلى صوت من الأصوات المائعة، ولا سيما اللام، والنون، والميم، والراء"[1]. "والسر في هذا أن الصوتين المتماثلين يحتاجان إلى مجهود عضلي للنطق بهما في كلمة واحدة، ولتيسير هذا المجهود العضلي يُقلب أحد الصوتين إلى تلك الأصوات التي لا تستلزم مجهوداً عضلياً كأَصوات اللين وأشباهها"[2].

وقد ذهب سيبويه إلى أن هذا النوع من الإبدال شاذ، وأن "التضعيف فيه عربي كثير جيد" [3].

ت. <u>المحافظة على التضعيف</u>: عرض سيبويه، في باب تضعيف اللام في غير ما عينه ولامه من موضع واحد...[4]، بعض الحالات التي

---

(١) د. رمضان عبد التواب: لحن العامة والتطور اللغوي. ص: ٤٠. وكذلك:

- د. ابراهيم أنيس ، الأصوات اللغوية ص:٢١١.

Brosnahan & Malmberg, Introduction to Phonetics, P. 134.

(٢) د. ابراهيم أنيس: الأصوات اللغوية. ص: ٢١١.

(٣) الكتاب. ٤/ ٤٢٤.

(٤) السابق. ٤/ ٤٢٤.

يحافظ فيها على التضعيف ، ويمنع معها الإدغام . وفيما يأتي – توضيح ذلك :

يحافظ على التضعيف إذا كان الحرف الثاني من الحرفين المثلين في الكلمة – اسماً كانت أو فعلاً – حرفاً زائداً فيها بهدف إلحاقها بصيغة أخرى، فضلاً عن كون الحرف الأول من الحرفين المثلين في الكلمة متحركاً ومسبوقاً بحرف ساكن. ومن الأمثلة التي قدمها سيبويه في هذا الصدد، الأسماء التالية: قَرْدَد، وقُعْدُد، وقُعْدَد، ورِمْدِد، فهذه الكلمات ملحقة بالصيغ: جَعْفَر، وجُعْشُم، وجُنْدَب، وزِهْلِق. على التوالي، ومن الأمثلة على ذلك أيضاً، الأفعال التالية: جَلْبَب، وشَمْلَل، فهاتان الكلمتان ملحقتان بالصيغة دَحْرَج، ومن الأمثلة على ذلك أيضاً، الأسماء التالية: عَفَنْجَج، وسَبَهْلَل، وقَفَعْدَد، فهذه الكلمات ملحقة بالصيغتين جَحَنْفَل، وهَمَرْجل على التوالي [1].

ومن الأمثلة على ذلك أيضاً، الفعل: اقْعَنْسَس، فهي ملحقة بالصيغة

---

(١) الكتاب. ٤/ ٤٢٥-٤٢٦.

احْرَنْجَم[1].

---

(١) نقدم -فيما يأتي- معاني بعض الصيغ التي وردت، في أثناء هذه الدراسة. وسنعتمد -في ذلك- على بعض المعاجم كلسان العرب والمعجم الوسيط، وما أورده ابن جني من شروح في المنصف ج/ ٣.

- قردد: ما ارتفع من الأرض وغلظ.
- قعدد: من معانيها الجبان اللئيم القاعد عن الحرب والمكارم.
- رمدد: المتناهي في الاحتراق والدقة.=
- =جعفر: النهر عامة، وقيل النهر الملآن، وبه شبهت الناقة الغزيرة.
- جعشم: من معانيها: الصغير البدن القليل لحم الجسد، وقيل: هو المنفتح الجنبين الغليظهما.
- جندب: ضرب من الجراد، واسم رجل...
- زهلق: موضع النار من الفتيل، والسراج ما دام في القنديل.
- جلبب: ألبس الجلباب، وهي الملحفة.
- شملل: ألبس شملة.
- عفنجج: الأخرق الجافي الذي لا يتجه لعمل، وقيل الأحمق فقط.
- سبهلل: السبهلل الرجل الفارغ، والنشيط الفرح، والأمر أو الشيء الذي لا ثمرة فيه.
- قفعدد: اسم موضع، وقالوا هو الرجل القصير.
- جحنفل: الغليظ، وهو أيضاً الغليظ الشفتين.
- همرجل: الجواد السريع، أو هو كل خفيف سريع، أو الجمل الضخم.
- اقعنسس: خرج صدره، ودخل ظهره خِلْقَةً أو تأخر ورجع إلى خلف.=

ففي هذه الأمثلة المضعفة يمتنع إدغام المثلين، نظراً لكون أحدهما -كما ذكرنا قبل قليل- زائداً فيها بهدف إلحاقها بغيرها من الصيغ، ولو حدث بين الحرفين المثلين إدغام لاستتبع ذلك تغييراً في بنية الملحق عن البنية التي أُلحق بها.

ولتوضيح ذلك نقول: إنّ الإدغام في مثل "قَرْدَد" الملحقة بـــ "جَعْفَر" يؤدي إلى خلق البنية "قَرَدّ" ويتطلب هذا، في حالة حدوثه، تحريك حرف الراء المقابل لحرف العين الساكن في جَعْفَر واسكان حرف الدال الأول المقابل لحرف الفاء المتحرك في جعفر أيضاً، وهذا يعني، كما قال ابن عصفور، وضع متحرك في مقابلة ساكن، ووضع ساكن في مقابلة متحرك[1]. فضلاً عن كون البنية الناتجة وهي "قَرَدّ" غير موازنة للبنية، التي تم الإلحاق بها، وهي جَعْفَر.

كما أننا لو أدغمنا المثلين في مثل "جلبب" لكانت البنية الناتجة "جَلَبّ" حيث نسكن الحرف الأول من الحرفين المثلين، وننقل حركته إلى الساكن قبله، مما إلى إخراج الصيغة الناتجة عن كونها موازنة للبنية التي ألحقت بها، وهي دحرج.

- =احرنجم: احرنجم القوم ازدحموا، واحرنجم الرجل: أراد الأمر ثم كذَّب عنه.

(١) ابن عصفور: الممتع في التصريف. ٢/ ٦٤٩.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فإنّ أول المثلين في هذه الأمثلة ورد مسبوقاً بحرف ساكن، ولو حدث فيها الإدغام لاستوجب ذلك اسكان الحرف الأول من الحرفين المثلين، الأمر الذي يؤدي إلى اجتماع ساكنين، وهذا وضع تنفر منه العربية وتأباه كما ذكرنا غير مرَّة.

أما الكلمات التي تتألف من أربعة أحرف أو خمسة أحرف، والتي تشتمل على حرفين مثلين – أسماء كانت أم أفعالاً – ولم تكن ملحقة بصيغة أخرى، فإنّ الإدغام يقع في الحرفين المثلين فيها. ومن الأمثلة التي قدمها سيبويه – في هذا الصدد– الأفعال: احمرَّ، واشهابَّ، واطمأنَّ، واقشعرَّ. فهذه الكلمات ليس لها – كما قال سيبويه– نظير في باب الأربعة ، وليس لها نظير أيضاً في الخمسة ، ولهذا فقد تم الإدغام فيها، وذلك "لأنه ليس في الكلام (احرَجَمْتُ) ولا (احراجَمْتُ) فيكون ملحقاً بهذه الزيادة... وليس في بنات الخمسة مثل (اسفرجل)، ولا فعل ألبتة، فيكون هذا ملحقاً بتلك الزِّنة، كما كان اقعَنْسَسَ ملحقاً باحرَنْجمَ، وتجلْبَبَ ملحقاً بتَدَحْرَجَ، فكما لم يكن لأحْمَرَّ واشهابَّ نظيرٌ في الأربعة فأدغم، كذلك أُدغم هذا إذ لم يكن له نظير في الخمسة"(١).

(١) الكتاب. ٤/ ٤٢٦.

ويمكننا صياغة المبادئ التي استند إليها سيبويه في تفسيره للأمثلة، التي أرودها في هذا المجال من حيث المحافظة على التضعيف وعدم الإدغام، أو من حيث وقوع الإدغام على النحو الآتي:

إذا كان للكلمات، ذات الحرفين المثلين الأخيرين، نظائر لغوية تلحق بها غير متماثلة الحرفين الأخيرين، وكان لهذه الكلمات ونظائرها صيغ صرفية معينة يمكن أن تندرج في اطارها، فإنّ القاعدة هي المحافظة على التضعيف، وعدم الإدغام وذلك بهدف المحافظة على إلحاق هذه الكلمات بالبنى المناظرة لها، والمحافظة على السمات الصوتية والصرفية للبنية العامة بحركاتها وسكناتها؛ فكلمة "قَرْدَد" – على سبيل المثال- تناظر في اللغة كلمتي جَعْفَر وسَلْهَب[1] اللتين أُلحقت بهما تلك الكلمة، وهذه الكلمات الملحقة والملحقة بها تنتمي إلى الصيغة الصرفية "فَعْلَل". وقد ظلت كلمة "قَرْدَد" – وما كان على شاكلتها في الإلحاق- ملتزمة بالتضعيف وعدم الإدغام، حتى تبقى محافظة على السمات الصوتية والصرفية التي تربطها بنظائرها من الكلمات الملحقة بها ضمن البنية أو الصيغة المشتركة "فعلل".

---

(١) سلهب: السلهب الطويل عامة. وقيل: هو الطويل من الرجال، وقيل هو الطويل من الخيل والناس.

أما إذا لم يكن للكلمة ذات المثلين الأخيرين نظائر غير متماثلة الحرفين الأخيرين في اللغة لتلحق بها، فإن القاعدة تنص على ضرورة الإدغام، وذلك في مثل احمرَّ، واشهابَّ، واقشعرَّ... إلخ.

وقد حاول سيبويه أن يقدم بعض الأقيسة للحالات التي يحافظ فيها على التضعيف والحالات التي يقع فيها الإدغام:

أ. إذا كانت الصيغة التي يراد تطبيقها على متماثل العين واللام ثلاثية، ومشتملة على أمثلة من أفعال غير متماثلة العين واللام، وهي مستعملة في اللغة، فإنّ الإدغام، عندئذ، يقع، أما إذا لم يتحقق ذلك فإن الكلمة تبقى على حالها من حيث التضعيف.

ومن الأمثلة على ذلك صيغة "فَعُل" من الفعل "رَدَدْتُ" فهي "رَدَّ"، بالإدغام، وذلك بسبب وجود أمثلة فعلية مستعملة في اللغة مثل "كَرُم" و"عَظُم".

أما الصيغتان "فُعَل" و"فِعَل" من الفعل "رددتُ" فهي "رُدَد" و"رِدَد" بالتضعيف وعدم الإدغام، وذلك عائد إلى خلو اللغة من أمثلة فعلية مستعملة على زنة "فُعَل"، و"فِعَل"[1].

ويعامل المصدر في كل من "فِعَلان" و"فُعَلان"[1]، كما لو كان كل واحد منهما دون زيادة الألف والنون؛ فيقال في "رددت" "رَدَدان"، و"رُدَدان"

---

(١) الكتاب. ٤/ ٤٢٧.

دونها إدغام، نظراً لخلو اللغة من صيغتين فعليتين مستعملتين على وزن "فِعَل" و"فُعَل". أما صيغتا "فَعُلان" و"فَعِلان" من "رَدَدْتُ"، فهما "ردَّان" في كل منهما، نظراً لوجود صيغتين فعليتين مستعملتين على وزن "فَعُل" و"فَعِل" في اللغة نحو: كَرُم، وسَمِع(٢).

ب. إذا كانت الصيغة، التي يراد تطبيقها على متماثل العين واللام، غير ثلاثية، وكانت تشتمل على أمثلة لأفعال أوْ أَسماء غير متماثلة العين واللام، فإن الكلمة الناتجة تعامل معاملة تلك الأمثلة من حيث الإدغام وعدمه. ومن هذا المنطلق فإنّ كلمة مثل "ارْدَدَّ" تقاس على الكلمة "احْمَرَّ" من حيث عدم إدغام الدال الأولى في الدال التي بعدها، كما لم تدغم الميم في الراء في "احمرَّ". ومن أَمثلة ذلك أيضاً، قياس كلمة "رِدِّدٌ" على "رِمْدِدٌ" من حيث عدم إدغام الدال الثانية في الدال التي بعدها، وكذلك كلمة "رَددَّدٌ" التي لا تدغم فيها الدال الأولى في الدال التي بعدها، وذلك قياساً على كلمة "سَفَرْجَل"(٣).

---

(١) الكتاب. ٤/ ٤٢٧.

(٢) السابق. ٤/ ٤٢٧.

(٣) السابق. ٤/ ٤٢٨.

ملحوظات:

راعى سيبويه، في درسه للإدغام والتضعيف في الحرفين المثلين في الكلمة الواحدة، عدة عوامل منها:

١- منع التقاء صامتين ساكنين: هناك حالات يستتبع عملية الإدغام فيها التقاء ساكنين. ومما يتأثر بهذه الظاهرة الحرف السابق لأول المثلين، إذا ورد ذلك الحرف ساكناً، كما أن همزة الوصل تتأثر بهذه الظاهرة في بعض الأحيان، حيث يؤدي تحريك الحرف التالي لها إلى اسقاطها، في حين تبقى اللغة محافظة عليها إذا بقي الصامت بعدها على حاله من حيث السكون.

٢- ابقاء علامات تدل على الأصل الصرفي للكلمة: تنتقل الحركة الدالة على باب الفعل المضارع – على سبيل المثال- من عين الفعل إلى فائه، وذلك عندما ترد الكلمة المدغمة في حالة جزم. ومن الأمثلة على ذلك ما طرأ على الفعل "لم يَمُدَّ" من نقلٍ لحركة الضم في عينه، وهي الدال الأولى، وإلقائها على فائه وهي الميم. ومن أمثلتها أيضاً، ما طرأ على الكلمة "مُستَعِدّ" حيث حُرِّكت فاؤها – وهي العين- بالكسر الذي كان حركة لعينها قبل الإدغام.

٣- استثقال بعض الحركات: يؤدي استثقال بعض الحركات،

كحركتي الضم والكسر، إلى تشجيع وقوع الإدغام، وذلك على نحو ما حدث في الكلمتين: صَبٌّ، وطِبٌّ، حيث وقع الإدغام في الحرفين المثلين؛ لأن الأصل هو صَبِبٌ، وطَبِبٌ بالكسر، خلافاً لحركة الفتح التي يعدها اللغويون أخف الحركات جميعاً. ففي مثل شَرَر، وطَلَل، لا يحدث إدغام في الحرفين المثلين، نظراً لخفة النطق بالفتحة فيهما، وفيما كان على شاكلتهما. وكذلك، فإنّ الفعل المدغم المجزوم يحرك آخره بالفتحة، دون الكسرة والضمة للسبب ذاته.

٤- المحافظة على السمات الصوتية والصرفية لبعض الصيغ: يلتزم التضعيف وعدم الإدغام في بعض الكلمات، وذلك من أجل المحافظة على السمات الصوتية والصرفية للصيغة التي تعد صيغة إلحاق؛ فالكلمة "قَرْدَدَ" – على سبيل المثال- تلتزم التضعيف وعدم الإدغام؛ لأنها ملحقة بكلمة جَعْفَر، وهي جميعاً ملحقة بصيغة "فَعْلَل".

٥- قياس الأسماء على الأفعال المشاركة لها في الصيغة في بعض الحالات: تتأثر الأسماء، في إدغامها أو تضعيفها، بوجود صيغ فعلية مناظرة لها، أو عدم وجود تلك الصيغ؛ فكلمة صَبٌّ – على سبيل المثال- يدغم فيها الحرفان المثلان، وذلك عائد إلى وجود صيغة فعلية مناظرة لها ومستعملة في اللغة، وهي "فَعِل"، خلافاً لكلمة مثل "سُرُر" التي يحافظ فيها على التضعيف، بسبب خلو اللغة من صيغ فعلية مناظرة مستعملة.

الفصل الثاني

الإدغام في الحرفين غير المثلين

أولاً: الحروف التي لا تدغم في مقاربتها، ولا تدغم مقاربتها فيها، كما لا تدغم في مثلها.

ثانياً: الحروف التي لا تدغم في مقاربتها، وتدغم المقاربة فيها.

ثالثاً:الحروف المقاربة التي يدغم بعضها في بعض:

١. حروف الحلق.

٢. الحروف الفموية.

الإدغام في الحرفين غير المثلين

تمهيد: قسم سيبويه – في باب الإدغام في الحروف المتقاربة– الحروف غير المتماثلة إلى ثلاثة أنواع، هي:

- حروف غير متماثلة، ولكنها تنتمي إلى مخرج واحد.
- حروف غير متماثلة، وتنتمي إلى مخارج متقاربة.
- حروف غير متماثلة، وتنتمي إلى مخارج متباعدة.

وقد أشار سيبويه إلى أن الإظهار وعدم الإدغام، في هذه الأنواع الثلاثة من الحروف، أحسن وأولى، غير أن هذا الإظهار يتفاوت، في حسنه من حالة إلى أخرى؛ فهو – في الحالة الثالثة –أولى منه في الحالة الثانية، لأن الإظهار "كلما تباعدت المخارج ازداد حسناً"[(١)]. وهو – في الحالة الثانية – أولى منه في الحالة الأولى، بسبب اتفاق الحرفين غير المثلين في الحالة الأولى في المخرج، واختلاف الحرفين غير المثلين في الحالة الثانية في المخرج. وهذا يعني أن الإظهار في الحالة الثانية أولى منه في الحالة الأولى، وهو في الحالة الثالثة أولى منه في الحالة الثانية.

(١) الكتاب. ٤/ ٤٤٦، ينظر كذلك :سر صناعة الإعراب ١/ ٦٥، والخصائص ٢/ ٢٢٧.

وقد عالج سيبويه موضوع الإدغام، في الحرفين غير المثلين، من حيث امكان إدغامه في غيره من الحروف، أو إدغام غيره من الحروف فيه، على النحو الآتي :

- حروف لا تدغم في مقاربتها، ولا تدغم مقاربتها فيها، كما لا تدغم في مثلها.
- حروف لا تدغم في مقاربتها، وتدغم فيها مقاربتها.
- حروف تدغم في مقاربتها، وتدغم فيها مقاربتها.

وسنحاول – فيما يأتي– توضيح الأقسام الثلاثة:

١) الحروف التي لا تدغم في مقاربتها، ولا تدغم مقاربتها فيها، كما لا تدغم في مثلها:

يشمل هذا النوع من الحروف، التي تمتنع على الإدغام، أحرف الهمزة، والألف، والواو، والياء. وقد عالج سيبويه قضية الإدغام في هذه الأحرف على النحو الآتي:

أ. الياء والواوY. Wبوصفهما نصفي حركة Semi Vowels:

ذهب سيبويه إلى أنّ إدغام هذين الحرفين (بوصفهما نصفي حركة)[١] لا يتحقق بينهما وبين غيرهما من الحروف المتحدة أو المتقاربة معها في

(١) يُنظر، هامش ص:٢٧. من هذه الدراسة.

المخرج كالجيم، والياء، والميم، وذلك في مثل: رأيت قاضيَ جابر، ورأيت دلوَ مالك، ورأيت غلامي جابر، وأخرجْ ياسرا.

وقد علَّل سيبويه امتناع وقوع الإدغام بين هذين الحرفين وغيرهما من الحروف المتحدة، أو المتقاربة معها في المخرج، بأن ذلك من شأنه – في حالة حدوثه – أن يفقد حرفي الواو والياء صفة المد واللين فيهما، أو أن يدخل هذه الصفة على حروف لا تقبلها. يقول سيبويه:" ولا تدغم الياء وإن كان قبلها فتحة، ولا الواو وإن كان قبلها فتحة مع شيء من المتقاربة، لأن فيهما ليناً ومداً، فلم تقو عليهما الجيم والباء... لأنهما يخرجان ما فيه لين ومد إلى ما ليس فيه مد ولا لين... ولا تدغم في هذه الياء الجيم وإن كانت لا تحرَّك، لأنك تدخل اللين في غير ما يكون فيه اللين..."(١).

وتجدر الإشارة إلى أن سيبويه يؤكد في هذا الصدد – ما سبق له أن أكده في موضع سابق(٢)– أن اجتماع هذين الحرفين مع مثلهما يوجب الإدغام؛ "لأن الحرفين استويا في الموضع واللين"(٣).

ب. <u>الهمزة</u>: وصف سيبويه الهمزة بأنها من الحروف التي لا

---

(١) الكتاب. ٤/ ٤٤٦-٤٤٧.

(٢) السابق. ٤/ ٤٤٢.

(٣) السابق. ٤/ ٤٤٦. ويُنظر، كذلك. ص:١١٥. من هذه الدراسة.

تدغم في مقاربتها ولا تدغم فيها مقاربتها، بل إنها لا تدغم في مثلها[1]؛ فهي تتخذ بسبب استثقال النطق بها - كما يُفهم من كلام هذا العالم- ثلاث حالات، هي: التحقيق، والتغيير، والحذف. وتصدق هذه الحالات الثلاث على الهمزة في جميع حالات ورودها السياقي، سواء، أكانت منفردة، أم مع غيرها من الحروف المقاربة أو المماثلة. ولقد بيَّنا - في موضع سابق من هذه الدراسة[2]- الأسباب التي تمنع حدوث الإدغام في الهمزة.

ت. الألف: ذكر سيبويه أن الألف - شأنها شأن الهمزة - لا تدغم فيما تقاربه، ولا تدغم في مثلها أيضاً، وقد نص سيبويه على أنّ السبب الذي منع الألف من الإدغام في مثلها يعود إلى أن هذا الإدغام سيؤدي - في حالة حدوثه- إلى إحداث تغيير فيهما، بحيث تصبحان - كما ذكر سيبويه - غير ألفين. وما دام إدغام الألف في مثلها لا يتحقق عند سيبويه، فإنّ إدغامها في الحروف المقاربة لها يمتنع من باب أولى[3].

وفي رأينا أن السبب الذي حال دون إجراء الإدغام بين الألفين، يرجع إلى طبيعة الإدغام التي تقتضي اسكان أول المثلين، وهذا أمر لا

---

(١) الكتاب. ٤/ ٤٤٦.

(٢) يُنظر، ص: ١٩٣. من هذه الدراسة.

(٣) الكتاب. ٤/ ٤٤٦.

يتحقق في الألفين، نظراً لكونها حركة طويلة – هي الفتحة الطويلة – في طبيعتها، ومن ناحية أخرى، فليس هناك حروف تقارب حركة الفتحة الطويلة – وهي التي يسميها سيبويه وغيره من اللغويين العرب ألفاً– في مخرجها.

أما الهاء، التي عدَّها سيبويه مشتركة مع الألف في المخرج، فهي – في الواقع – حرف يستقل في مخرجه الحنجري عن مخرج الألف التي تحدث عنها سيبويه، والتي تندرج –في الدرس الصوتي الحديث– في عداد الحركات الطويلة.

ث. الواو والياء: U: i: بوصفهما حركتين طويلتين -Long-Vowels-: ينطبق على هذين الحرفين، بوصفهما حركتين طويلتين، ما ينطبق على الألف، التي ذكرنا أنها هي الأخرى حركة طويلة، من حيث امتناع الإدغام في مثليهما.

أما ما ذكره سيبويه من امتناع إدغام هذين الحرفين في حروف مقاربة لهما في المخرج في مثل: ظلموا مالكاً، واظلمي جابراً، فليس دقيقاً؛ ذلك أن مخرج الواو، والياء، بوصفهما حركتين طويلتين، ليس هو مخرج أي من الميم والجيم، على نحو دقيق، كما اعتقد سيبويه. فمخرج الضمة الطويلة – على سبيل المثال– هو الطبق، مع استدارة الشفتين، في أثناء

عملية النطق بها، في حين تنتمي الميم إلى المخرج الشفوي. فلا تقارب – من ثمة– بين مخرجي الضمة الطويلة، والميم.

٢) الحروف التي لا تدغم في مقاربتها، وتدغم المقاربة فيها:

ذكر سيبويه أن هناك مجموعة من الحروف لا تدغم في مقاربتها، في حين تدغم الحروف المقاربة فيها. وتشمل هذه المجموعة من الحروف، الميم، والراء، والفاء، والشين. وفيما يلي بيان بذلك:

أ- ب > م[١]: ذكر سيبويه أن الباء تدغم في الميم، وذلك في مثل: أصحبْ مطراً > اصحمَّطراً.

ᵓiṣ/ḥam/ma/ṭa/ran ⟵ ᵓiṣ/ḥab/ma/ṭa/ran

غير أن الميم لا تدغم في الباء مثل: أكرمْ به. ᵓak/rim/bih.

والسبب في ذلك عائد – كما نص سيبويه – إلى أن الناطقين "يقلبون النون ميماً في قولهم (العنبر)، و(منْ بدالك)، فلما وقع مع الباء الحرف الذي يفرون إليه من النون (وهو الميم) لم يغيروه، وجعلوه بمنزلة النون، إذ كانا حرفي غنة"[٢]. وتعليل سيبويه هذا يستند إلى أنّ "الميم"، التي ترد

---

(١) يعني الرمز (>) أن ما قبله يدغم فيما بعده.

(٢) الكتاب. ٤/ ٤٤٧.

سابقة "الباء" والتي تستبدل "بالنون" وتحل محلها في مثل : "عنْبر" ، و"منْ بدالك" ، أولى بعدم الإدغام حين ترد هي نفسها مع الباء في مثل : "أكرمْ به".

أما فيما يتعلق بعملية إدغام الباء في الميم، فإنّ الأمر في ذلك يعود - في رأينا- إلى أن إجراء مثل هذا الإدغام لا يؤدي إلى فقدان "الميم" لملمحها التمييزي الجوهري وهو ملمح الأنفية Nasality feature، في حين يؤدي العكس - وهو إدغام "الميم" في "الباء"- في حالة حدوثه- إلى فقدان ذلك الملمح التمييزي المهم.

ب- ل، ن > ر:

تدغم كل من اللام والنون في "الراء" في مثل: هلْ رَأيت > هرَّأيْت، منْ رَأيت > مرَّأيت.

mar/ra/$^{\text{ɔ}}$ayt← man/ra/$^{\text{ɔ}}$ayt ، har/ra/$^{\text{ɔ}}$ayt←hal/ra/$^{\text{ɔ}}$ayt

غير أنَّ "الراء" لا تدغم في "اللام" أو في "النون". والسبب في ذلك عائد - كما نص سيبويه - إلى أنّ "الراء" "مكررة، وهي تفشَّى، إذا كان معها غيرها، فكرهوا أن يجحفوا بها فتدغم مع ما ليس يتفشى في

الفم مثلها ولا يكرر"[1]، بل"إن الراء، كما نص ابن جني، أقوى من اللام" [2].

ويستند سيبويه في عدم جواز إدغام الراء في كل من اللام والنون – على الرغم من تقاربها معهما في الصفة والمخرج[3]– إلى أن ذلك من شأنه – في حالة حدوثه – أن يفقد صوت "الراء" ملمحه التمييزي الجوهري وهو ملمح التكرارية.

أما فيما يتعلق بعملية الإدغام، التي نحن بصددها هنا، وهي إدغام كل من اللام والنون في الراء، فقد نص سيبويه، في موضع آخر من

---

(١) الكتاب. ٤/ ٤٤٨.

(٢) الخصائص . ١/ ٥٤.

(٣) تشترك اللام والراء والنون –في التصنيف الصوتي الحديث للأصوات العربية – في المخرج اللثوي، في حين يعدها سيبويه متقاربة المخارج. وبالإضافة إلى ذلك، فإن هذه الأصوات التي تشترك –في التصنيف الصوتي الحديث أيضاً – في الصفة التي يطلق عليها علم الأصوات الحديث مصطلح الأصوات المائعة، على حين يصف سيبويه كل صوت من هذه الأصوات بملمح مميز له وخاص به؛ فاللام صوت منحرف، والراء صوت مكرر، والنون صوت ذو غنّة.

كتابه[1]، على أنهما – أي اللام والنون – يدغمان في الراء بسبب قرب مخارج هذه الأصوات واشتراكها معاً في ملمح الشّدة، فضلاً عن ميل الراء للانحراف نحو اللام قليلاً، ومقاربتها لها في طرف اللسان، واشتراكهما في جري الصوت.

ت- ب > ف:

تدغم الباء في الفاء، في مثل: اذهبْ في ذلك > اذهفِّي في ذلك.

ᵓiò/haf/fii/ðaa/lik ⟵ ᵓiò/hab/fii/ðaa/lik والسبب في ذلك راجع إلى التقارب المخرجي بين هذين الصوتين، وإلى أن صوت الفاء الذي يتم النطق به من باطن الشفة السفلى، وأطراف الثنايا العليا، فضلاً عن انحداره إلى الفم، يضارع صوت الثاء المنتمي إلى حروف الفم واللسان، الأمر الذي يقوي الإدغام، الذي يكثر وقوعه في تلك الحروف، أي حروف الفم واللسان.

أما "الفاء" فإنها لا تدغم في "الباء" في مثل: "اعرفْ بَدراً" وذلك عائد إلى ما سبق أن ذكرناه وهو أن صوت الفاء الذي يتم النطق به من باطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا العليا ينحدر إلى الفم، فيقارب مخرج الثاء المنتمية إلى حروف الفم واللسان التي تعد أصل الإدغام – كما

(١) الكتاب. ٤/ ٤٥٢.

يذكر سيبويه(١) – وعلى هذا فإنَّها، أي الفاء، لا تدغم في الباء المنتمية إلى أحد حروف الطرفين، الحلق والشفتين، التي يقل فيها الإدغام .

وإضافة إلى ذلك، فإنّ إدغام الفاء في الباء من شأنه – في حالة حدوثه– أن يفقد الفاء ملمحها التمييزي المتمثل – كما يقول ابن عصفور ومكي بن أبي طالب – بالتفشي ، في حين تدغم الباء في الفاء؛ "لأنه ليس في ذلك إخلال بالباء بل تقوية بقلبها حرفاً متفشياً"(٢).

ث- ج > ش:

تدغم الجيم في الشين، في مثل: أَخرجْ شَبثاً > اخرشَّبثا. وابعجْ شبثاً > ابعشَّبثاً.

ᵓax/riš/ša/ba/θan ← ᵓax/rig/ša/ba/θan و

ᵓib/ᶜaš/ša/ba/θan ← ᵓib/ᶜag/ša/ba/θan. وينص سيبويه على أن الإدغام والبيان هنا حسنان(٣). وهو يعزو سبب جواز الإدغام في هذين الحرفين إلى أنهما ينتميان إلى مخرج واحد، فضلاً عن كونهما من حروف وسط اللسان.

---

(١) الكتاب. ٤/ ٤٤٨.

(٢) ابن عصفور، الممتع في التصريف. ٢/ ٧٠٩ . وكذلك: الرعاية. ص:١٣٤.

(٣) الكتاب. ٤/ ٤٥٢.

أما الشين فإنها لا تدغم في الجيم في مثل: افرشْ جبلة؛ "لأن الشين استطال مخرجها لرخاوتها حتى اتصل بمخرج الطاء"[(1)]، فابتعدت لذلك عن الجيم واقتربت من حروف أحد الطرفين. وإضافة إلى ذلك، فإن صوت الشين يتسم بخاصة التفشي التي من شأنها – في حالة إدغام الشين في الجيم– أن تفارقه.

٣) الحروف المقاربة التي يُدغم بعضها في بعض:

يقصد سيبويه بهذا النوع من الحروف، ما يأتي:

أ- حروف الحلق:

نص سيبويه على أن " حروف الحلق ليست بأصل للإدغام لقلتها"[(2)]، ولذلك فإن الإدغام فيها – كما ذكر الرضي– غير قوي[(3)]. ومن المعلوم أن النطق بالأصوات الحلقية منفردة أمر يحتاج إلى بذل مجهود كبير؛ لأنها "أشد علاجاً، وأصعب إخراجاً، وأحوج إلى تمكين آلة الصوت من غيرها"[(4)]. ويستتبع هذا أن يكون النطق بحرفي حلق متتاليين أكثر صعوبة. ولذلك يقل اجتماع الأمثال في أحرف الحلق؛ "لأن

---

(١) الكتاب. ٤/ ٤٤٨

(٢) السابق. ٤/ ٤٤٩.

(٣) الرضي: شرح الشافية. ٣/ ٢٧٥.

(٤) ابن عصفور: الممتع في التصريف. ٢/ ٦٩٩. وكذلك: شرح الشافية. ١/ ١١٩.

حروف الحلق ليست بأصل في التضعيف في كلمة"[1]، ولهذا فقد عمد بعض الناطقين إلى إجراء نوع من الإدغام أو المماثلة بين بعض الأحرف الحلقية المتجاورة، من أجل تحقيق نوع من التسهيل في عملية النطق بهما.

وقد ناقش سيبويه موضوع الإدغام في أحرف الحلق[2]على النحو الآتي :

١- هـ > ح: من الممكن أن تدغم الهاء في الحاء، في نحو: اجْبَهْ حَملاً > اجبحَّملاً.

ʾig/baḥ/ḥa/ma/lan ← ʾig/bah/ḥa/ma/lan.

وذلك راجع – كما ذكر سيبويه- إلى قرب مخرجي هذين الحرفين، فضلاً عن كونهما يشتركان في ملمحي الهمس والرخاوة. وعلى الرغم من أن الإدغام، في هذين الحرفين، يُعد عربياً حسناً، كما يذكر سيبويه، إلَّا أنّ البيان فيهما وعدم الإدغام أحسن لاختلاف المخرجين، ولأن أحرف الحلق – كما ذكرنا قبل قليل- ليست بأصل للإدغام لقلتها.

أما الحاء، فإنها لا تدغم في الهاء، في مثل: امدحْ هلالا، والسبب في ذلك عائد إلى أن "الهاء أدخل في الحلق من الحاء، ولا يقلب الأخرج إلى

---

(١) الرضي: شرح الشافية. ٣/ ٢٧٦.

(٢) استثنى سيبويه من أحرف الحلق، التي عالج مسألة الإدغام فيها هنا، حرف الهمزة، وكذلك حرف الألف الذي صنفه ضمن الأصوات الحلقية

الفم إلى جنس الأدخل في الحلق"[1]، لأن ما كان أقرب إلى حروف الفم كان أقوى على الإدغام كما نص سيبويه[2].

٢- ع > هـ: من أحرف الحلق، التي تحدث عنها سيبويه في إطار مناقشته لموضوع الإدغام في تلك الأحرف، حرف العين وعلاقته بحرف الهاء؛ فهو يرى أن البيان وعدم الإدغام في مثل: "اقطعْ هلالاً"، و"اجبَهْ عَنَبه" أحسن. أما إذا أردنا اجراء إدغام متبادل بين هذين الحرفين، لقرب مخرجيهما - كما يقول سيبويه- فإنّ الأمر يستوجب تحويل كل من العين والهاء إلى الحاء، ثم يجري الإدغام بين المثلين الجديدين، وهما "الحاءان"، وذلك في مثل: مَعْهُم > محُّم، ومعْ هؤلاء > محَّؤلاء. في قول بني تميم[3]. ومثل: اجبهْ عَنَبه > اجبحَّنبه.

ويستند سيبويه، فيما ذهب إليه هنا، إلى أمرين:

أولهما: أن إدغام ع > هـ. يعني إدغام ما هو أخرج إلى الفم فيما هو أدخل إلى الحلق، وهذا يخالف مبدأ أساسياً - عند سيبويه وعند غيره من

(١) ابن عصفور: الممتع في التصريف. ٢/ ٦٨٠.

(٢) الكتاب. ٤/ ٤٤٩.

(٣) السابق. ٤/ ٤٥٠.

اللغويين العرب القدامى أيضاً- وهو "أن الأقرب إلى الفم لا يدغم في الذي قبله"(١).

وثانيهما: أن إدغام هـ > ع. لا يخالف المبدأ السابق، حيث تنتمي الهاء إلى أقصى الحلق، في حين تنتمي العين إلى وسطه، ولا مانع حسب المعايير – التي استشففناها من كلام سيبويه، وكلام غيره من لغويي العرب القدامى- من إدغام الأدخل إلى الحلق في الأخرج منه؛ "لأن قياس إدغام الأنزل في الأعلى بقلب الأول إلى الثاني قياس مطرد غير منكسر"(٢). ولكن ذلك – في حالة حدوثه- سيؤدي إلى اجتماع حرفي عين، وذلك – كما يقول ابن عصفور- "ثقيل لأن العين قريبة من الهمزة، فكما أن اجتماع الهمزتين ثقيل، فكذلك اجتماع العينين"(٣). وعلاوة على ذلك، فإنّ هذين الحرفين يختلفان في المخرج – كما ذكرنا آنفاً-، ويختلفان – فضلاً عن ذلك- في ملمح الهمس الخاص بالهاء، وملمح الجهر الخاص بالعين، "فكرهوا – كما ذكر ابن عصفور- أن يقلبوا واحدة منهما إلى الأخرى، للتباعد الذي بينهما، فلذلك أبدلوا منهما الحاء، لأن الحاء من

(١) الكتاب. ٤/ ٤٤٩.

(٢) الرضي: شرح الشافية. ٣/ ٢٧٧.

(٣) ابن عصفور: الممتع في التصريف. ٢/ ٦٨٢، وينظر أيضاً: الكتاب ٤/ ٤٤٦.

مخرج العين، وتقارب الهاء في الهمس والرخاوة"[١]. وإضافة إلى ذلك "فإنّ التقاء الحاءين أخف في الكلام من التقاء العينين" كما نص سيبويه[٢] ولعلنا نستطيع إعادة صياغة ما سبق من كلام على النحو الآتي:

إنَّ الذي باعد وقوع إدغام متبادل بين حرفي العين والهاء، هو أن هذين الحرفين من أحرف الحلق، التي يعد الإدغام فيها ليس أصلاً، وأنهما ينتميان إلى مخرجين لا مخرج واحد، وأنهما يختلفان في ملمحي الهمس والجهر، وإضافة إلى ذلك، فإن تتابع "حرفي عين" صعب بالقياس إلى تتابع "حرفي حاء". من هنا فقد عمد سيبويه – ومن اقتدى به من العلماء– إلى تسويغ الإدغام في هذه الحالة، بوساطة توحيد الصفة بين الحرفين، وهي صفة الهمس، التي تتمثل في حرف الحاء، والتي يعدها سيبويه أَخف من الصفة المقابلة لها، وهي صفة الجهر[٣]، فضلاً عن توحيد المخرج، وذلك بتحويل العين والهاء إلى "حاءين"، ثم القيام، بعد ذلك، بإجراء الإدغام في الحرفين المثلين.

٣- ع > ح: يرى سيبويه أن من الممكن إدغام "العين" في "الحاء"، وذلك في مثل: اقطعْ حملاً > اقطحّملاً

---

(١) ابن عصفور: الممتع في التصريف. ٢/ ٦٨٢.

(٢) الكتاب. ٤/ ٤٥٠.

(٣) الكتاب. ٤/ ٤٥٠.

^{ɔ}iq/ṭaḥ/ḥa/ma/lan ← ^{ɔ}iq/ṭa^{c}/ḥa/ma/lan ، ويعود السبب في ذلك إلى أن هذين الحرفين ينتميان إلى مخرج واحد، وهو وسط الحلق، ويسوِّي سيبويه في هذه الحالة بين الإدغام والبيان من حيث الحسن.

أما إدغام الحاء في العين في مثل: امدحْ عرفه، فيمتنع. ويعود السبب في ذلك إلى أن العين أدخل في الحلق، من الحاء، ولا يقلب الأخرج إلى الأدخل؛ لأن في ذلك -كما قال ابن عصفور، وكما سبق أن ذكرنا سابقاً- تثقيلاً[(١)]. وإضافة إلى ذلك فإنَّ أدغام الحاء في العين سوف يؤدي إلى اجتماع حرفي عين، وهذا أمر ثقيل أيضاً كما ذكرنا قبل قليل.

ولكن سيبويه يرى أن من الممكن وقوع الإدغام في مثل: "امدحْ عرفه" بوساطة قلب العين حاء، وإدغامها في الحاء الأولى، فتصبح: امدحَّرفه؛ لأن الحرف الثاني قد يقلب إذا تعذر قلب الأول كما نص ابن عصفور[(٢)].

وتجدر الإشارة إلى أن ابن الحاجب، وشارح شافيته الرضي يرويان عن أبي عمرو بن العلاء، قوله تعالى: ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ ﴾[(٣)] هكذا:

---

(١) ابن عصفور: الممتع في التصريف. ٢/ ٦٨١

(٢) السابق. ٢/ ٦٨٣

(٣) آل عمران: ١٨٥

"فمن زحزع عَّن النار " ، وذلك بقلب الحاء عيناً وإدغامها في العين الثانية[1].

٤- غ > خ: يجيز سيبويه وقوع إدغام متبادل في حرفي الغين والخاء، في مثل: ادمغْ خَلفاً > ادمخَّلفا، واسلخْ غَنمك > اسلغَّنمك.

ᵓid/muɤ/xa/la/fan ⟵ ᵓid/mux/xa/la/fan :و

ᵓis/lax/ɤa/na/mak ⟵ ᵓis/laɤ/ɤa/na/mak ويعد

ذلك أمراً حسناً، غير أنه – أي سيبويه – يعتبر البيان وعدم الإدغام أحسن"[2].

ويبدو لنا، أن سيبويه قد اعتمد، في إجازة الإدغام هنا، واعتباره حسناً، على أمرين، هما:

١. أن هذين الحرفين ينتميان إلى مخرج واحد هو أدنى الحلق.

٢. وأن مخرج هذين الحرفين يعد أقرب مخارج الحروف الحلقية إلى حروف اللسان التي يكثر فيها وقوع الإدغام.

أما اعتباره البيان وعدم الإدغام أحسن، فيبدو لنا، أنه قد اعتمد في ذلك أيضاً، على أمرين، هما:

١. أن هذين الحرفين، حرفان حلقيان، وليست أحرف الحلق –

---

(١) الرضي: شرح الشافية. ٣/ ٢٧٧.

(٢) الكتاب. ٤/ ٤٥١

كما ذكر سيبويه غير مرَّة - بأصل للإدغام.

٢. وأن هذين الحرفين يختلفان في ملمحي الهمس والرخاوة[١]، مما يشجع على البيان وعدم الإدغام.

ب- الحروف الفموية:

وبعد أن تناول سيبويه امكانات الإدغام في أحرف الحلق، تناول حالات الإدغام التي تعرض للحروف غير الحلقية، وهي الحروف الفموية:

١- ق > ك: يعد سيبويه إدغام القاف في الكاف، في مثل: الحقْ كَلَده[٢]> الحكَّلده:

ᵓil/ḥaq/ka/la/dah ⟵ ᵓil/ḥak/ka/la/dah، والبيان فيهما حسنين. ويعود ذلك -عند سيبويه- إلى قرب مخرجي هذين الحرفين، وإلى كونهما من حروف اللسان، فضلاً عن اشتراكهما في ملمح الشدة.

---

(١) ذكر سيبويه في كتابه. ٤/ ٤٥١. أن "الغين مجهورة وهما (أي الغين والخاء) من حروف الحلق، وقد خالفت الخاءَ في الهمس والرخاوة". والواقع أن هذين الحرفين يختلفان في صفتي الهمس والجهر، ولكنهما لا يختلفان في صفة الرخاوة، كما ذكر سيبويه، وإنما يشتركان -كما جاء في التصنيف الذي أورده هذا العالم في كتابه ٤/ ٤٣٤- في هذه الصفة.

(٢) كلدة - بفتحات: علم رحل. يُنظر الشافية. هامش ٣/ ٢٧٨.

وإضافة إلى ذلك، فإنّ "حرف الكاف ادنى إلى حروف الفم من القاف"[١]، مما يسوغ إدغام القاف التي تعد أقرب إلى حروف الحلق من الكاف، في الكاف، وذلك من أجل إخراج القاف إلى الأقرب إلى حروف الفم التي هي أقوى في الإدغام[٢]. أما إدغام الكاف في القاف، في نحو: انهكْ قَطنا> انهقّطنا، فإن سيبويه يعده حسنا، وإن كان البيان أحسن. ويعزو سيبويه أولوية البيان، أو أفضليته، على الإدغام، في هذه الحالة، إلى كون مخرج هذين الحرفين أقرب مخارج حروف اللسان إلى الحلق من جهة، وإلى كون القاف أقرب إلى حروف الحلق من الكاف، "فذلك ضعف إدغام الكاف، التي هي أخرج، في القاف التي هي أدخل"[٣].

٢- ج > ش، ل> ر: وفيما يتعلق بإدغام الجيم في الشين، وإدغام اللام في الراء، فقد سبق لنا[٤]، أن عرضنا له في موضع سابق، وبيَّنا رأي سيبويه فيه.

٣- ن> في غيرها من الحروف: وبعد ذلك شرع سيبويه ببيان أحكام إدغام النون بغيرها من حروف الفم والحلق. وقد ناقش هذا العالم

---

(١) ابن يعيش: شرح المفصل. ١٠/ ١٣٨.

(٢) السابق. ١٠/ ١٣٨.

(٣) ابن عصفور: الممتع في التصريف. ٢/ ٦٨٥.

(٤) يُنظر، ص:٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤١. من هذه الدراسة.

قضية إدغام النون -في هذا المجال- في المستويات الآتية:

أولاً: إدغام النون في غيرها من الحروف في كلمتين منفصلتين.

ثانياً: إدغام النون في غيرها من الحروف في الكلمة الواحدة.

ثالثاً: إدغام بعض الحروف في النون.

وسنتناول - فيما يأتي من كلام- بيان رأيه وشرحه في هذا الصدد:

<u>أولاً- إدغام النون في غيرها من الحروف في كلمتين منفصلتين:</u>

(١) <u>إدغام النون بحروف الفم:</u>

أ- <u>ن > ر</u>: عرضنا - في موضع سابق من هذه الدراسة[١] - لإدغام النون في الراء، وبينا رأي سيبويه فيه.

ب- <u>ن > ل:</u> تدغم النون في اللام، في نحو: مَنْ لك > مَلَّك man/lak ← mal/lak، والسبب في ذلك يعود -عند سيبويه- إلى "أنها قريبة منها على طرف اللسان"[٢]. ويمكن إدغام النون في هذه الحالة -كما هو في حالة ادغامها في الراء- بغنة، وبلا غنة، ويعد إدغامها بلا غنة -وهو ما يعتبره الرضي

---

(١) يُنظر، ص: ٢٣٨، ٢٣٩. من هذه الدراسة.

(٢) الكتاب. ٤/ ٤٥٢.

أولى(١)- محمولاً على الأصل في الإدغام الذي يقضي بفناء الصوت المدغم في الصوت المدغم فيه. أما إدغامها بغنة فيعود إلى أن في الغنة إشارة إلى النون المدغمة، أو أنها -على حد قول ابن عصفور- فضل صوت فكره إبطالها، والغنة بعض النون، وإبقاؤها عنده أجود لما في ذلك من البيان للأصل والمحافظة على الغنة(٢).

ت- ن > م: تدغم النون في الميم، في مثل: عن ما > عمّا ^{c}am/ maa ← ^{c}an/ maa . فهذان الصوتان يتشابهان من الناحية الصوتية، ويشتركان في الملامح الأنفية، والمائعة، والجهر على الرغم من تباعد مخرجيهما(٣). ولا حاجة إلى أن يكون إدغام النون في الميم مصحوباً بالغنة النونية؛ "لأنّ الميم فيها غنة، فإذا قلبتها ميماً محضة لم تبطل الغنة"(٤).

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فإنّ وقوع النون ساكنة قبل الباء، في مثل: : عنْبر> عَمْبر، ومنْ بك > مَمْبك ^{c}am/bar ← ^{c}an/bar و: mam/bik ← man/bik، من شأنه أن يقلبها ميماً، دون أن يحدث

---

(١) الرضي: شرح الشافية. ٣/ ٢٧٣.

(٢) ابن عصفور: الممتع في التصريف. ٢/ ٦٩٧.

(٣) الكتاب. ٤/ ٤٥٢-٤٥٣.

(٤) ابن عصفور: الممتع في التصريف. ٢/ ٦٩٧.

إدغام، وذلك "لأنّ الباء لا تقارب النون في المخرج،... ولا في الغنة كما قاربتها الميم، فلما تعذر إدغامها في الباء قلبت معها ميماً، لأنّ الباء من مخرج الميم، فعوملت معاملتها، فلما قلبت النون مع الميم ميماً قلبت ميماً أيضاً مع الباء، وأُمن الالتباس لأنه ليس في الكلام ميم ساكنة قبل باء"(١).

وتجدر الإشارة إلى أن قلب النون ميماً في مثل "عَنْبر" لا يفقد النون ملمحها التمييزي، المتمثل بالصفة الأنفية؛ لأن الميم تشترك معها في هذا الملمح التمييزي. وعلى هذا فإنّ عملية القلب هنا لم تؤد إلى التفريط بالخاصة المميزة للصوت الذي وقع فيه القلب والتغيير. ويورد اللغويون هذه البنية "عَنْبر" مثالاً على ما يسمونه بالمماثلة الجزئية Partial Assimilation، وعلى ما يسمونه بالمماثلة الرجعية Regressive Assimilation، حيث اكتسبت "النون" ذات الملمح اللثوي في المخرج، من صوت الباء ملمح الشفوية الثنائية دون الملمح الانفجاري، فانقلبت إلى ميم. ويبدو لنا أن السبب الذي حال دون حدوث تماثل رجعي كلي بين صوت النون الساكنة ، وصوت الباء المتحركة، يكمن في مقاومة صوت النون الأنفي المتميز بملمح الغنة، وهو ملمح قوة فيه، وذلك على الرغم من وروده في وضع يتسم

---

(١) ابن عصفور: الممتع في التصريف. ٢/ ٦٩٨- ٦٩٩.

بالضعف في البنية، ونعني به السكون الذي من شأنه أن يكسب الحرف الملابس له ضعفاً، إذ إن الحروف تكون بالسكون – كما يقول الرضي – ضعيفة (ميتة)[1]، فضلاً عن وقوعه في نهاية مقطع، ولقد تمثلت مقاومة هذا الصوت في انقلابه إلى صوت أنفي آخر يشترك معه في ملمح الغنة، ونعني صوت الميمم، وعدم انقلابه إلى صوت آخر، أو فنائه في الصوت المؤثر المجاور [2].

وتجدر الإشارة إلى أن هناك شبهاً بين ما يمكن أن يحدث للنون الساكنة الواقعة قبل الباء في العربية، وما يمكن أن يحدث للنون الساكنة الواقعة قبل الباء في الانجليزية، ومن الأمثلة على ذلك في هذه اللغة قولهم في Impossible < Inpossible.

ث- <u>ن > و، ن > ي</u>: تدغم النون في كل من الواو والياء بوصفهما نصفي حركة في نحو: مِنْ وال > مِوَّال. ومنْ يأتيك > ميَّأتيك.

.may/ya^{ɔ}/tiik ← man/ya^{ɔ}/tiik:و mim/wal ← min/wal

---

(١) الرضي : شرح الشافية ١/ ١١٩.

(٢) الأزهري: شرح التصريح على التوضيح ٢/ ٧٤٢ وكذلك :

- ابن يعيش: شرح المفصل ١/ ١٤٥.
- جان كانتينو: دروس في علم أصوات العربية. ص٦١-٦٢.
- وينظر ص: ٢٦٠-٢٦١من هذه الدراسة .

ويعود السبب في ذلك إلى وجود شبه بين النون من جهة، وكل من الواو والياء، من جهة أخرى. ويتمثل ذلك في خاصة الغنَّة النونية التي تشبه خاصة اللين في الواو والياء، حيث تعد كل خاصة منهما -على حد قول ابن عصفور- فضل صوت في الحرف(1)، كما يتمثل ذلك أيضاً في كون النون والواو والياء من حروف الزيادة.

وقد ذهب سيبويه إلى أن إدغام النون في الواو يتم؛ لأنها-أي الواو- من مخرج ما أُدغمت فيه النون في الحالة السابقة، وهي الميم، في مثل عنْ ما، وليس من الممكن أن تقلب "النون" في مثل "مِنْ وال" ميماً، على غرار ما وقع في كلمة "عنبر"؛ لأن "الواو" تختلف اختلافاً شديداً في ملامحها عن "الميم" فهي حرف يتسم باللِّين والتجافي والمد، خلافاً للميم التي تتصف بالشدة وانطباق الشفتين(2). وما دامت المماثلة الجزئية التي يراد إِجراؤها بين النون والواو بتحويل النون ميماً، لم تقو على تسهيل النطق، فإنّ إدغام النون في الواو يمكن أن يحل المشكلة، وهي إحداث خفة في النطق.

---

(1) ابن عصفور: الممتع في التصريف. 2/ 696

(2) ذكر سيبويه في كتابه 4/ 453. "والميم كالياء في الشدة والزام الشفتين" والصواب، هو: "والميم كالباء في الشدة والزام الشفتين".

أما إدغام النون في الياء، فإن سيبويه، يعتمد، في إجرائه، على أن بين الواو والياء شبهاً وقابلية لوقوع الإدغام بينهما. ومثلما أمكن وقوع الإدغام بين النون والواو، في مثل" مِنْ وال"، فإن الإدغام ممكن الوقوع بين النون والياء. وبالإضافة إلى ذلك، فإنّ هناك تشابهاً بين "الراء" و"الياء" يتمثل في قرب مخرجيهما والدليل على ذلك "أن الألثغ بالراء يجعلها ياء"[1]، وما دام وقوع الإدغام ممكناً بين النون والراء في مثل: "مَنْ رأيت" فإنّ من الممكن -في المقابل- وقوع الإدغام بين النون والياء.

ويمكن لإدغام النون في كل من الواو والياء أن يقع بغنة، وبلا غنة؛ فإذا تم الإدغام بلا غنة، فإن السبب في ذلك يعود إلى أن النون المدغمة تفنى في الصوت الذي تدغم فيه وتصير -كما قال ابن يعيش- من جنسه[2]. أما إذا وقع الإدغام بغنة - وهو ما يعدّه الرضي أولى- فإن ذلك يعود إلى أن مقاربة النون للواو والياء بالصفة لا بالمخرج ، فالأولى أن لا يغتفر ذهاب فضيلة النون (المتمثلة) بالغنة لمثل هذا القرب غير الكامل، بل ينبغي أن يكون للنون، معهما، حالة بين الإخفاء والإدغام،

---

(١) الكتاب. ٤/ ٤٥٣.

(٢) ابن يعيش: شرح المفصل. ١٠/ ١٤٢.

وهي الحالة التي فوق الإخفاء، ودون الإدغام التام، فيبقى شيء من الغنة"[1].

ج- أما بالنسبة لوضع النون مع بقية حروف الفم الأخرى، فإنها ترد -كما نص سيبويه- خفية، مخرجها من الخياشيم فقط، وهذا الأمر -في حد ذاته- يزيل الاستثقال، الذي قد يتعرض له اللسان، في حالة انتاج صوتين متتاليين. وهذا يعني، بعبارة أخرى، أن صوت النون مع حروف الفم يقتصر مخرجه على الأنف، في حين يكون اللسان متخذاً موضعاً واحداً ملائماً لإنتاج الصوت الفموي التالي؛ لأنه "أخف عليهم أن لا يستعملوا ألسنتهم إلا مرة واحدة"[2]، ومن شأن هذا أن يؤدي إلى محصلة صوتية مزدوجة "أنفية فموية" أو ما يسمى بالصامت الأنفمي، أو الصامت المؤنّف Nazalized Consonant[3]، مع احتفاظ اللسان بوضع واحد فقط، دون أن يؤدي ذلك إلى حدوث لبس في إدراك صوت النون، ذلك أن النون الأنفية، والنون الفموية لا تتمايزان في مستوى الفرق الدلالي؛ لأنّ "العلم بها أنها نون من ذلك الموضع (أي الأنف)

---

(١) الرضي: شرح الشافية. ٣/ ٢٧٣.

(٢) الكتاب ٤/ ٤٥٤.

(٣) د. محمد علي الخولي : معجم علم اللغة النظري ، ص:١٨٠.

كالعلم بها وهي من الفم"[1]، ومن أمثلة ذلك: مَنْ كان، ومنْ قال، ومنْ جاء.

(٢) إدغام النون بأحرف الحلق:

وفيما يتعلق بحرف النون في حالة وروده متلواً بأحد الأحرف الحلقية الستة، وهي: الهمزة، والهاء، والعين، والحاء، والغين، والخاء، في مثل: منْ أبوك، ومنْ هلال، ومنْ عندك، ومنْ حملك، ومنْ غيرك، ومنْ خالفك، فإنها ترد -كما نص سيبويه- "بينة موضعها من الفم"[2]، أي أنها لا تتعرض لإدغام، أو إخفاء. والسبب في ذلك يعود -كما ذكر سيبويه نفسه[3]- إلى تباعد مخرج النون عن المخرج الحلقي، الذي تنتمي له تلك الأحرف الستة، فضلاً عن كونها -أي النون- مختلفة في طبيعتها الأنفية عن تلك الأحرف الحلقية. وإضافة إلى ذلك، فإنّ حروف اللسان لا تدغم في أحرف الحلق. أما بالنسبة لإخفاء النون مع هذه الأحرف فإنه يمتنع أيضاً، لأن الإخفاء نوع من الإدغام"[4]. وقد ذهب سيبويه إلى أنّ

---

(١) الكتاب ٤/ ٤٥٤.

(٢) السابق. ٤/ ٤٥٤.

(٣) السابق. ٤/ ٤٥٤.

(٤) ابن يعيش: شرح المفصل. ١٠/ ١٤٥. وينظر كذلك: الممتع في التصريف. ٢/ ٧٠١.

"بعض العرب يجري الغين والخاء مجرى القاف"[1]. أي أن من العرب من يجيز إخفاء النون مع الغين والخاء، نظراً لكون هذين الحرفين الحلقيين أقرب أحرف الحلق إلى الفم، فإذا أجريا مجرى ما يليهما من حروف الفم – وهي القاف والكاف التالية لهما مباشرة – أمكن إخفاء النون قبلهما كما أمكن اخفاؤها قبل القاف والكاف.

وقد أجاد ابن عصفور، في تعليله لإظهار النون قبل أحرف الحلق، وعدم إدغامها أو إخفائها، عندما قال بلغة واضحة جلية: إن" حروف الحلق أشدّ علاجاً، وأصعب إخراجاً، وأحوج إلى تمكين آلة الصوت من غيرها، فإخراجها لذلك يحتاج إلى اعتمادات تكون في اللسان، والنون الساكنة الخفية مخرجها من الخيشوم، فلا علاج في إخراجها ولا اعتماد. فإذا كانت قبل حروف الحلق تعذر النطق بحروف الحلق؛ لأن النون تستدعي ترك الاعتماد، وحروف الحلق تطلب الاعتماد. فإذا بينت النون قبلها أمكن إخراجها؛ لأن النون البيِّنة مخرجها من اللسان، فهي أيضاً تطلب الاعتماد كسائر حروف اللسان"[2].

(١) الكتاب. ٤/ ٤٥٤.

(٢) ابن عصفور: الممتع في التصريف. ٢/ ٦٩٩.

ثانياً: إدغام النون في غيرها من الحروف في الكلمة الواحدة:

أ- ن> أحرف الحلق: نصَّ سيبويه على أن حرف النون لا يدغم مع أي من أحرف الحلق، التي ترد تالية لها في كلمة واحدة، وفي المقابل فإنّ أحرف الحلق لا تقوى على قلب النون[1]، وذلك على نحو الوضع الذي تتخذه النون مع الأحرف الحلقية في أثناء ورودهما في كلمتين منفصلتين[2].

ب- ن>م/ و/ ي: إذا وردت النون ساكنة متلوة بميم، أو واو، أو ياء في مثل: زَنْماء، وزُنْم، وقَنْواء، وقُنْية، وكُنْية[3]، فإنها تعامل مع هذه الأحرف -من حيث عدم الإدغام ووجوب البيان- معاملتها مع أحرف الحلق في الحالة السابقة. وذلك عائد -كما ذكر سيبويه- إلى أن وقوع الإدغام في هذه الأمثلة - وما كان على غرارها - من شأنه أن يؤدي إلى

---

(١) الكتاب. ٤/ ٤٥٥.

(٢) يُنظر، ص:٢٥٨. من هذه الدراسة.

(٣) زنماء: الزنمة شيء يقطع من أذن البعير فيترك معلقاً، وإنما يفعل ذلك بالكرام من الأبل. يقال: بعير زنم وأزنم ومزنَّم، وناقة زنمة وزنماء ومزنمة. اللسان، مادة "زنم".

قنواء: قنى الأنف قنا: ارتفع وسط قصبته وضاق منخراه... فهو أقنى، وهي قنواء. المعجم الوسيط، مادة "قني".

احتمال حدوث لبس بين هذه الصيغ وصيغة صرفية أخرى هي صيغة المضاعف[1].

أما إذا أمكن وقوع الإدغام –في بعض الحالات– دون أي احتمال لحدوث لبس أو خلط في الصيغ والبنى الصرفية، فإن الإدغام يصبح ممكناً. وقدم سيبويه –في هذا الصدد– مثالين، هما: انْمَحى> امَّحى، وانْوَجل> اوَّجل.

ᵓin/ma/ḥaa ⟵ ᵓim/ma/ḥaa، و: ᵓin/wa/gal ⟵ ᵓiw/wa/gal

وعلق على ذلك بأنه لا تضاعف، في مثل "امَّحى"، الميم، وأن النون زيدت في المثال الثاني الذي لا تضاعف فيه الواو.[2]

ت– ن> ب: إذا وقعت النون ساكنة قبل الباء في كلمة واحدة، مثل: عَنْبر، وشَنْباء[3]، فإنها لا تدغم في الباء، وإنما تقلب ميماً[4]،

---

(١) الكتاب. ٤/ ٤٥٥.

(٢) السابق. ٤/ ٤٥٥.

(٣) شنباء: شنب الثغر: رقّت أسنانة وابيضت، واليوم: برد، فهو شَنِبٌ، وشانب، وهو أشنب، وهي شنباء. المعجم الوسيط: مادة "شنب".

(٤) هناك شبه بين ما يمكن أن يحدث للنون الساكنة الواقعة قبل الباء في اللغة العربية، وما يمكن أن يحدث للنون الساكنة الواقعة قبل الباء في اللغة الإنجليزية أيضاً، ومن الأمثلة على ذلك في الإنجليزية

Impossible< Inpossible.

فتصبح -كما ذكرنا في موضع سابق- عَمْبر، وشَمْباء. وقد نص سيبويه على أنه لا مجال، في هذه الحالة، لحدوث التباس أو خلط بين الصيغ، حيث لا تقع الميم ساكنة قبل الباء في كلمة[١].

ث- ن> ر/ل : ذكر سيبويه أن النون الساكنة لا تقع -فيما يعلم- قبل الراء، أو اللام في أية كلمة "ذلك أنه ليس في الكلام مثل قِنرٍ، وعِنْل"، وبالتالي، فإن الإدغام في مثل هذه الحالة ممتنع بالضرورة . ويعزو سيبويه السبب في عدم اجتماع النون مع الراء، أو اللام في بنية واحدة، إلى صعوبة النطق -عندئذ- بها لقرب المخارج ، كما أنه يعزو السبب في امتناع الإدغام في هذه الحالة أيضاً إلى أنه سيؤدي -على فرض وقوعه- إلى إحداث لبس بصيغة المضاعف . وإضافة إلى ذلك، فإن النون صوت يعتمد له في الفم ويتسم بالغنة الأنفية، في حين يُعدُّ كل من صوت الراء واللام صوتاً فموياً فحسب. ولو وقع إدغام بين النون وأحد هذين الصوتين الفمويين لأدى ذلك إلى ضياع ملمح الأنفية المميز للنون، فتلتبس النون -على حدِّ قول سيبويه- بما ليس فيه غنة ، "إذ كان ذلك الموضع قد تضاعف فيه الراء"[٢].

(١) الكتاب. ٤/ ٤٥٦.

(٢) السابق. ٤/ ٤٥٦.

ثالثاً–إدغام بعض الحروف في النون:

أ- نص سيبويه على أن الحروف الفموية، التي تكون النون معها خيشومية (أنفية)، لا تدغم في النون[1]. وذلك راجع إلى أن النون لا تدغم في تلك الحروف، فضلاً عن كون النون حرفاً أنفياً يختلف في طبيعته عن تلك الحروف الفموية مخرجاً وصفة.

ب- م > ن : لا تدغم الميم –كما نص سيبويه– في النون، ذلك أن الميم غير قابلة للإدغام في الباء، على الرغم من اشتراكهما في المخرج، والشدة، ولزوم الشفتين. ولهذا، فقد كان امتناع إدغام الميم في النون، وهما حرفان متباعدان في المخرج من باب أولى رغم اشتراكهما في ملمح الغنة [2].

ت- ل > ن: من الممكن أن تدغم اللام في النون في مثل: هلْ نرى < هنَّرى، han/na/raa ← hal/na/raa ، غير أنّ البيان، وعدم الإدغام –كما ذكر سيبويه– أحسن. وذلك راجع إلى أنّ ما تدغم فيه النون من الحروف –باستثناء اللام– لا يدغم هو نفسه فيها. ويبدو أن اللام تتأثر بهذا الاتجاه العام للنون.

---

(١) الكتاب. ٤/ ٤٥٦.

(٢) السابق. ٤/ ٤٥٦.

٤- ل > في غيرها من الحروف:

عرض سيبويه -بعد أن فرغ من قضية إدغام النون في غيرها من الحروف، وإدغام غيرها من الحروف فيها- لإدغام اللام في غيرها من الحروف. وقد قسم هذا العالم "اللام" إلى قسمين، هما: لام المعرفة، وغير لام المعرفة[١]. وسنقدم -فيما يأتي- توضيحاً لرأي سيبويه في إدغام كلا الحرفين في غيره من الحروف:

١) لام المعرفة:

تدغم لام المعرفة إدغاماً واجباً إذا وقعت متلوة بثلاثة عشر حرفاً، وهي: ن، ر، د، ت، ص، ط، ز، س، ظ، ث، ذ، ض، ش. وقد استند سيبويه في قوله بوجوب إدغام هذه اللام بتلك الحروف إلى عوامل أهمها:

أ. اشتراك اللام مع هذه الحروف -باستثناء الضاد والشين- في المخرج العام الذي يجمعها معاً، وهو طرف اللسان. أما بالنسبة لحرفي الضاد والشين، فإنهما وإن لم ينتميا إلى هذا المخرج، وهو طرف اللسان، إلا أنهما يتسمان بخاصتي الاستطالة والتفشي، اللتين من شأنهما أن تصل هذين الحرفين بطرف اللسان؛ فالاستطالة، التي تتصف بها الضاد،

---

(١) الكتاب. ٤/ ٤٥٧.

تلحقها بمخرج اللام، والاستطالة، التي تتصف بها الشين، تلحقها بمخرج الطاء، الأمر الذي سوغ إدغام اللام في كل من الضاد والشين، وجعله واجباً. وتؤيد الدراسات الصوتية الحديثة ما ذهب إليه سيبويه من أن التقارب الصوتي والمخرجي بين اللام وهذه الحروف هو السبب في عملية الإدغام[1].

ب. كثرة ورود هذه اللام في الكلام، لأن كل نكرة تحتاج، من أجل تعريفها، إلى هذه السابقة، إلا في حالات قليلة. وقد قرر اللغويون العرب القدامى "أن كثرة دور اللفظ في الكلام تستدعي التخفيف"[2]. ولهذا فإن كثرة ورود الهمزة في الكلام في مثل "يرى"، التي هي في الأصل "يرأى"، كان سبباً في استثقالها، مما أدى إلى تخفيفها بالحذف[3].

ت. اتصال هذه اللام بالاسم، الذي دخلت عليه اتصال بعض حروفه به بدليل أنه لا يوقف عليها، مما أدى إلى جعلها بمنزلة الجزء مما دخلت عليه[4]. أما الحروف الأخرى -وعددها خمسة عشر حرفاً- فإنّ

---

(١) د. عبد الصبور شاهين: المنهج الصوتي للبنية العربية. ص: ٢١٢. وكذلك:
- د. أحمد مختار عمر: دراسة الصوت اللغوي. ص: ٣٣٤.

(٢) ابن عصفور: الممتع في التصريف. ٢/ ٦٩٢.

(٣) الكتاب. ٤/ ٤٥٧.

(٤) ابن يعيش: شرح المفصل. ١٠/ ١٤١. وكذلك:=

لام المعرفة لا تدغم فيها نظراً للتباعد المخرجي بين اللام من جهة، وهذه الحروف من جهة أخرى، مما يسَّر نطق الصوتين بكل خصائصهما [1].

٢) <u>لام غير المعرفة</u>: نص سيبويه على أن إدغام لام غير المعرفة، في مثل: هل، وبل، في الحروف الثلاثة عشر السابقة التي تدغم فيها لام المعرفة، يتفاوت قوة وضعفاً، وذلك على النحو التالي:

أ- <u>ل > ر:</u>

يعدّ إدغام اللام في الراء، في مثل: هلْ رأيت > هرَّأيت، وفي مثل قوله تعالى: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم ﴾ [2] أحسن من البيان، وذلك راجع -كما ذكر سيبويه[3]- إلى التقارب الشديد بين مخرجي هذين الحرفين، فضلاً عن الشبه القائم بينهما، والمتمثل -كما قال سيبويه في موضع سابق من كتابه[4]- بانحراف الراء نحو اللام قليلاً، ومقاربتها في طرف اللسان فضلاً عن اشتراك اللام والراء في الشدة وجري الصوت.

= ابن عصفور: الممتع في التصريف. ٢/ ٦٩٢.

(١) د. أحمد مختار عمر : دراسة الصوت اللغوي ، ص:٣٣٤.

(٢) المطففين: ١٤.

(٣) الكتاب. ٤/ ٤٥٧.

(٤) السابق. ٤/ ٤٥٢.

ومع ذلك، فقد ذهب سيبويه إلى أنّ البيان، وعدم وقوع الإدغام فيهما، عربي جائز، إذ إِنه لغة لأهل الحجاز[١].

ب- ل > ط/ د/ ت/ ص/ ز/ س:

يأتي إدغام اللام في كل من الطاء، والدال، والتاء، والصاد، والزاي، والسين، في المرتبة الثانية لإدغام اللام في غيرها من الحروف من حيث الجودة، وذلك لأن هذه الأحرف تعد أقرب الحروف إلى اللام بعد الراء، فضلاً عن "أن آخر مخرج اللام قريب من مخرج هذه الحروف"[٢].

ت- ل > ظ / ث / ذ:

يُعد إدغام اللام في كل من الظاء، والثاء، والذال، جائزاً، غير أنه يأتي في مرتبة تالية لإدغام اللام في الطاء وأخواتها في الحالة السابقة، من حيث الحسن، والجودة.

ويعود السبب، في جواز الإدغام هنا، إلى الشبه القائم بين هذه الأحرف، وحرف الطاء وأخواتها في الحالة السابقة؛ فهنّ من حروف الثنايا وطرف اللسان. أما السبب في كون إدغام اللام في الظاء، والثاء، والذال أقل قوة وجودة من إدغامها في الطاء وأخواتها، فيعود إلى أنّ مخرج الطاء وأخواتها "مرتفع" كما هو الحال في اللام، خلافاً لمخرج

---

(١) الكتاب. ٤/ ٤٥٧.

(٢) السابق. ٤/ ٤٥٨.

الظاء، وأختيها، الذي يَسْفُل إلى أطراف اللسان.

ث- ل > ض / ش :

يأتي إدغام اللام في كل من الضاد والشين، في مثل: هلْ شيء> هشَّيء[1]، haš/šayʔ ← hal/šayʔ أكثر ضعفاً بالقياس إلى إدغام اللام في غيرها من الحروف السابقة. ويعود ذلك إلى أن الضاد تنتمي في مخرجها إلى أول حافة اللسان، وأن الشين تنتمي في مخرجها أيضاً إلى وسط اللسان، في حين تنتمي اللام إلى حروف طرف اللسان.

ويعزو سيبويه السبب في جواز إدغام اللام في هذين الحرفين إلى خاصتي الاستطالة والتفشي، في الضاد والشين، ومن شأن هاتين الخاصتين أن تصلا الضاد والشين بحروف طرف اللسان كما ذكرنا قبل قليل.

ج- ل > ن :

يُعدُّ سيبويه إدغام اللام في النون، في مثل هلْ نرى> هنَّرى. أقبح من إدغام اللام في الحروف الاثني عشر السابقة[2]. ويعود السبب في ذلك، إلى أن اللام تنتمي -في علاقتها بالنون- إلى مجموعة أحرف الواو والياء والراء والميم، التي يجمعها قولهم "ويرمل"، والتي تمتاز

(١) الكتاب. ٤/ ٤٥٨.

(٢) السابق. ٤/ ٤٥٩.

بإمكان إدغام النون فيها ، وامتناع إدغامها -باستثناء اللام- في النون. ولهذا فقد كره العرب إخراج اللام عن حكم هذه الأحرف الأربعة في علاقتها بالنون، فعاملوها -أي اللام- معاملة هذه الأحرف في منع الإدغام أو استقباحه، أو اعتبار البيان وعدم الإدغام أحسن كما ذكر سيبويه في موضع سابق من كتابه[1].

ملحوظـــات:

استند سيبويه، في عمليات الإدغام، التي ناقشها، في هذا الفصل، إلى عدد من المبادئ والأسس، أهمها:

١) المحافظة على ملمح القوة في الصوت:

يستند هذا المبدأ أو الأساس إلى ما يمكن تسميته قانون القوة، أو الأقوى، وهو قانون لغوي يعزى إلى اللغوي الفرنسي موريس جرامونت M.Grammont، ويتلخص هذا القانون بأنه " عندما يؤثر صوت في آخر، فإن الصوت الأضعف (بموقعه في المقطع، أو بقوته النطقية الخاصة) هو الذي يكون عرضة للتأثر بالصوت الآخر"[2]. وينص

---

(١) الكتاب. ٤/ ٤٥٦.

(2) Malmberg ,Bertil.Phonetics.P100.

ويُنظر، أيضاً: الترجمة العربية لهذا الكتاب للدكتور عبد الصبور شاهين، ص:٢٥٧.

جرامونت على "أن الصوت المؤثر هو ذلك الذي تتوفر فيه صفات: أن يكون أكثر قوة، أو أكثر مقاومة، أو أكثر استقراراً، أو أكثر امتيازاً ... ولتبسيط الأمر يمكننا أن نحدد القضية كلها في كلمة واحدة هي (القوة)"، ثم يذكر أن هذا القانون "تخضع له جميع الظواهر التي يكون فيها تغير صوت ناشئاً عن وجود صوت آخر ، ولم يستثن من هذا القانون شيء، ولن يخرج عن نظامه شيء مطلقاً ."[1]

وقد لمح بعض القدماء والمحدثين من اللغويين ذلك، أو شيئاً قريباً من ذلك، ونصوا عليه. ولعلنا نجد، فيما ذهب إليه ابن جني، في أثناء حديثه عن إهمال ما أهمل في العربية للاستثقال، بعض الاشارات السريعة إلى هذا الموضوع، فهو ينص على أنه إذا ما "جمع بين اثنين منها (أي من أحرف الحلق) قدم الأقوى على الأضعف... وكذلك متى تقارب الحرفان لم يجمع بينهما، إلا بتقديم الأقوى منهما... وأنا أرى أنهم يقدمون الأقوى من المتقاربين، من قبل أن جمع المتقاربين يثقل على النفس، فلما اعتزموا النطق بهما قدَّموا أقواهما، لأمرين: أحدهما أن رتبة الأقوى أبداً أسبق وأعلى ..."[2]

---

(١) د. عبد الصبور شاهين: أثر القراءات في الأصوات والنحو العربي، ص:٢٣٣.

(٢) ابن جني : الخصائص .١/ ٥٤-٥٥.

غير أننا نرى الأمر، عند مكي بن أبي طالب، أكثر جلاءً ووضوحاً، فهو يذكر - في كتابه الرعاية - "أن القوي من الحروف إذا تقدمه الضعيف مجاوراً له جذبه إلى نفسه ... ليعمل اللسان عملاً واحداً في القوة من جهة واحدة"، ثم وجدناه يلح على هذه الفكرة على نحو أكثر صراحة، عندما قال: "وانما ينقل أبداً الأضعف الى الأقوى... ليقوى الكلام، فهذا هو الأكثر في الأصل... وإذا نقل الأقوى إلى الأضعف ضعف الكلام".[1] وهو يؤكد هذه الفكرة في كتاب آخر له، هو "الكشف عن وجوه القراءات السبع" عندما ينص على أنه "ليس من أصول كلام العرب أن يردّوا الأقوى إلى الأضعف، وانما أصولهم في الحروف إذا أبدلوا أن يردوا الأضعف إلى الأقوى ".[2]

وإذا حاولنا دراسة هذا الأساس، ومدى تطبيقه عند سيبويه في عملية الإدغام، فإننا نجد في موضوع إدغام اللام، بنوعيها، في غيرها من الحروف، مثالاً يمكن الاتكاء عليه في هذا المجال:

(١) ل +ر / ن = نَّ :

إذا وقعت اللام بنوعيها مجاورةً لكل من صوت الراء، وصوت

---

(١) مكي بن أبي طالب: الرعاية ص:٢٠٦ ،٢٠٧-٢٠٨.

(٢) مكي بن أبي طالب: الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها.١/ ٣٤.

النون، فإنها؛ أي اللام، تتأثر بهذين الصوتين تأثراً رجعياً، مما يؤدي إلى قلبها إلى صوت من جنس هذين الصوتين؛ أي الراء والنون، وإدغامها فيهما، ويعود السبب في ذلك إلى أن هذين الصوتين يتمتعان بصفات قوة تميزهما من صوت اللام، فإضافة إلى وقوع صوت اللام في كل الأمثلة التي ترد فيها ساكنة في نهاية مقطع، وهذا أمر يعد صفة ضعف في أي صوت، فإن كل الأصوات التي تقع بعد اللام ترد في بداية مقطع متحركة، وهذا أمر يعد صفة قوة في أي الصوت(١)، وعلاوة على ذلك، فإن صوتي الراء والنون يتمتعان -بالإضافة إلى كونهما من الأصوات المائعة أو الرنانة ذات الوضوح السمعي- بملامح قوة أُخرى تتمثل في كون الراء تتسم بملمحي قوة يتمثلان بالتكرار والتفشي اللذين يمكناها من التأثير في غيرها من الأصوات، وفي هذا يقول سيبويه: "والراء لا تدغم في اللام... لأنها مكررة، وهي تتفشى إذا كان معها غيرها، فكرهوا أن يجحفوا بها فتدغم مع ماليس يتفشى في الفم مثلها ولا يكرر ..."(٢)،

---

(١) د. عبد الصبور شاهين:أثر القراءات في الأصوات والنحو العربي. ص:٢٣٤، وكذلك :

- برتيل مالمبرج: علم الأصوات. ترجمة: د. عبد الصبور شاهين. ص:٢٥٧.

(٢) سيبويه: الكتاب ٤/ ٤٤٨.

بل إن ابن جني ينص صراحة "على أن الراء أقوى من اللام" .[1]

أما صوت النون فانه يتسم بملمح الأنفية Nazal Feature، أو ما أطلق عليه علماؤنا القدامى مصطلح "الغنّة"، ويعد هذا الملمح صفة قوة في الصوت تمكنه من التأثير في غيره من الأصوات.[2]

(٢) ل+ص/ ز/ ش/ س/ ص/ طـ/ ظـ :

إذا وقعت اللام بنوعيها مجاورة لهذه الأصوات السبعة، فإنها؛ أي اللام، تتأثر بهذه الأصوات تأثراً رجعياً، مما يؤدي إلى قلبها إلى صوت من جنس هذه الأصوات، وإدغامها فيها. ويعود السبب في ذلك إلى ما يأتي:

أ- تتسم أصوات الصاد والزاي، والشين، والسين بملمح الصفير Sibibnt Feature الذي يعد صفة قوة في الصوت تمكنه من التأثير في غيره من الأصوات، وإضافة إلى ذلك فإن صوت الشين يتسم، بالإضافة إلى ملمح الصفير، بملمحي الاستطالة والتفشي اللذين يعدان أيضاً صفتي قوة في الصوت[3] تمكنه من التأثير في غيره من الأصوات، كما أن صوت الصاد يتسم، بالإضافة إلى ملمح الصفير

(١) ابن جني : الخصائص ١/ ٥٤.

(٢) مكي بن أبي طالب: الرعاية. ص:١٣١.

(٣) سيبويه: الكتاب ٤/ ٤٤٨ ،وكذلك : مكي بن أبي طالب ، الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها ١/ ١٣٧.

أيضاً، بملمح التفخيم الذي يعد صفة قوة مؤثرة في الصوت.

ب- أما أصوات الضاد والطاء والظاء، فإنها تتسم بصفات قوة تتمثل بالتفخيم، فضلاً عن صفتي قوة إضافيتين أخريين تتمتع بهما الضاد، وهما صفتا الاستطالة والتفشي اللتين تعدان صفتي قوة تكسبان الصوت قدرة على التأثير في غيره من الأصوات.

(٣) ل +د/ ذ/ ت/ ث :

إذا وقعت اللام بنوعيها مجاورة لهذه الأصوات، فإنها؛ أي اللام، تتأثر بهذه الأصوات تأثراً رجعياً، مما يؤدي إلى قلبها إلى صوت من جنس هذه الأصوات.

ويعود السبب في ذلك إلى أن صوتي الدال والتاء يتسمان بصفة الشدة (الانفجار)، وأن صوتي الدال والذال يتسمان بصفة الجهر. ولقد قرر اللغويون القدماء أن هاتين الصفتين، الانفجار والجهر، أقوى من الصفتين المناظرتين لهما، وهما: (الرخاوة) الاحتكاك والهمس.

وقد أشار مكي بن أبي طالب إلى بعض هذه الصفات التي من شأنها منح الصوت سمة قوة تؤثر في غيره من الأصوات عندما قال: "واعلم أن القوة في الحرف تكون بالجهر، وبالشدة، وبالاطباق والتفخيم، وبالتكرار وبالاستعلاء، وبالصفير، وبالاستطالة، وبالغنة

وبالتفشي ".[1]

٢) المحافظة على الملمح الجوهري المميز للصوت:

لاحظ سيبويه أن عمليات الإدغام في الحرفين غير المثلين، لا تقع أحياناً حين يؤدي ذلك إلى فقدان الحرف، موضع الإدغام، لأحد خصائصه الأساسية. ومن الأمثلة على ذلك، امتناع إدغام الشين في الجيم، نظراً لأن صوت الشين يتسم بخاصة التفشي، التي من شأنها، في حالة وقوع مثل هذا الإدغام، أن تفارقه. وكذلك امتناع إدغام النون في الراء أو اللام، نظراً لأن وقوع مثل هذا الإدغام سيؤدي إلى ضياع ملمح الأنفية المميز للنون. وكذلك امتناع إدغام كل من الواو والياء بوصفهما نصفي حركة في الحروف المتحدة، أو المتقاربة، معها في المخرج أو العكس؛ لأنّ ذلك سيؤدي –في حالة وقوعه–إلى فقدان الواو والياء لخاصية المد واللين فيهما، أو إلى إدخال هذه الخاصية على حروف لا تقبلها.

(١) مكي بن أبي طالب: الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها. ١/ ١٣٧ . وينظر أيضاً: الرعاية ١١٦–١٣٤، والنشر في القراءات العشر لابن الجزري.١/ ٢٠٢–٢٠٥. وأثر القراءات في الأصوات والنحو العربي. للدكتور عبدالصبور شاهين. ص: ٢١٧.

٣) قابلية حروف طرف اللسان والثنايا للإدغام أكثر من غيرها من الحروف:

ذكر سيبويه أن "أصل الإدغام إنما في حروف الفم واللسان لأنها أكثر الحروف"(١). وقد ترتب على هذه القاعدة، التي وضعها سيبويه، أنه كلما تباعدت الحروف عن منطقة إخراج هذه الحروف نحو الأمام، أو الخلف، فإنّ نصيبها من الإدغام يقل. فأحرف الحلق – على سبيل المثال– وهي من الحروف الخلفية، ليست بأهل للإدغام لقلتها(٢). وكذلك الحال مع الحروف الأمامية.

ففي أثناء حديثه عن عدم إدغام الفاء في الباء، ذكر سيبويه:" إنما أصل الإدغام في حروف الفم واللسان لأنها أكثر الحروف فلما صارت (الفاء) مضارعة للثاء، لم تدغم في حرف من حروف الطرفين"(٣).

٤) اتجاهية الإدغام:

يمكننا صياغة هذا المبدأ على النحو التالي: إذا كان الحرف (أ) أقرب مخرجاً من الحرف (ب) إلى حروف طرف اللسان والثنايا، فإنّ الحرف (ب) يمكن إدغامه في الحرف (أ)، وليس العكس، ومن أمثلة

---

(١) الكتاب. ٤/ ٤٤٨.

(٢) السابق. ٤/ ٤٤٩، ٤٥٠.

(٣) السابق. ٤/ ٤٤٨.

ذلك إمكان إدغام الهاء في الحاء، والباء في الفاء، وليس العكس؛ "لأن ما كان أقرب إلى حروف الفم كان أقوى على الإدغام"[١].

٥) سهولة تحقيق الملمح:

ذهب سيبويه إلى أن لسهولة تحقيق ملمح معين تأثيراً على صيغة الشكل النهائي الناتج عن الإدغام؛ فالنطق بالصوت المهموس -على سبيل المثال- أخف من النطق بالصوت المجهور كما نص سيبويه[٢] فالإدغام في مثل: "امدحْ عَرفه" -على سبيل المثال- يمتنع؛ لأنه -في حالة وقوعه- سيؤدي إلى اجتماع "حرفي عين" يتسمان بملمح الجهر، وهذا صعب بالقياس إلى اجتماع "حرفي حاء" يتسمان بملمح الهمس بوساطة قلب حرف العين في كلمة "عرفه" إلى حاء، حيث يؤدي ذلك إلى توحيد الصفة، أو الملمح بين الحرفين، وهو ملمح الهمس الذي يعده سيبويه -كما ذكرنا قبل قليل- أخف من الملمح المقابل له وهو ملمح الجهر.

٦) التقارب بين الحروف في المخارج أو الصفات:

يرى سيبويه أن الإدغام يتحقق على نحو أكبر في حالة كون الحرفين، موضع الإدغام، متقاربين، أو متحدين في المخارج أو الصفات.

---

(١) الكتاب. ٤/ ٤٤٩.

(٢) السابق. ٤/ ٤٥٠.

ومن الأمثلة على ذلك إدغام القاف في الكاف. حيث سوغ تقارب مخرجي هذين الحرفين، وكونهما من حروف اللسان، واتفاقهما في ملمح الشدة، وقوع الإدغام فيهما[1].

ومن أمثلة ذلك أيضاً إدغام اللام في الراء، حيث أدى اتِّحاد هذين الحرفين في المخرج اللثوي، واشتراكهما، كما يقول سيبويه، في ملمح الشدة، وجري الصوت، فضلاً عن ميل الراء للانحراف نحو اللام قليلاً، ومقاربتها لها في طرف اللسان - إلى وقوع الإدغام فيهما[2].

٧) كثرة الاستعمال تزيد من احتمالات وقوع الإدغام:

عدَّ سيبويه كثرة استعمال عناصر صوتية معينة، وترددها في الكلام، داعياً قوياً للتخفيف وايقاع الإدغام. ومن الأمثلة على ذلك إدغام اللام فيما بعدها من الحروف. وفي هذا يقول سيبويه:" ولام المعرفة تدغم في ثلاثة عشر حرفاً لا يجوز فيها معهن إلا الإدغام لكثرة لام المعرفة في الكلام..."[3]، وتستند هذه العملية الى ما يسمى في الدرس اللغوي الحديث بقانون التردد النسبي Frequency Of Occurence الذي نادى به Vilhelm Thomson، والذي يقرر " أن الاصوات

---

(١) الكتاب. ٤/ ٤٥٢.

(٢) السابق. ٤/ ٤٥٢.

(٣) السابق. ٤/ ٤٥٧.

التي يشيع تداولها في الاستعمال، وكذلك الصيغ التي يكثر ورودها في الكلام، تكون أكثر تعرضاً للتطور اللغوي من غيرهما ... فالصوت اللغوي إذا شاع استعماله في الكلام كان عرضة لظواهر لغوية نسميها حيناً ابدالاً، وحيناً آخر إدغاماً وقد يتعرض الصوت الكثير الشيوع للسقوط من الكلام "[١] .

وهذا الذي يقرره الدرس اللغوي الحديث سبق أن قرره علماؤنا القدامى، كسيبويه [٢]، وابن يعيش[٣]، والرضي شارح الشافية[٤]، وابن جني [٥].

---

(١) د. إبراهيم أنيس : الأصوات اللغوية ص: ٢٤٢،٢٣٧-٢٤٣، وكذلك أحمد مختار عمر : دراسة الصوت اللغوي ، ص: ٣٣١-٣٣٢ .

- Malmberg , B.Phonetics ,P:101.

وينظر أيضاً الترجمة العربية لهذا الكتاب للدكتور عبد الصبور شاهين: علم الأصوات، ص:٢٥٨-٢٥٩.

(٢) الكتاب: ٤/ ٢٧٩.

(٣) ابن يعيش: شرح المفصل ٢/ ١٩ .

(٤) الرضي: شرح الشافية ٣/ ٦٨.

(٥) ابن جني: سر صناعة الاعراب ١/ ١١٢

٨) التشابه بين حرفين:

يرى سيبويه أنه إذا كان هناك حرفان متشابهان، في بعض الصفات، وأمكن إدغام أحدهما في حرف ثالث، فإن من الممكن -أحياناً- إدغام الحرف الآخر في الحرف الثالث أيضاً. ومن الأمثلة على ذلك أن الشبه القائم بين الواو والياء سوغ إدغام النون في الياء، نظراً لإمكان إدغام النون في الواو[١].

٩) انتماء الحرف إلى مجموعة صوتية معينة:

ذهب سيبويه، إلى أن انتماء الحرف (أ) إلى مجموعة صوتية ذات سلوك معين ومسوَّغ من حيث الإدغام في حرف ما، يجعل الحرف (أ) يسلك السلوك نفسه الذي تسلكه، تلك المجموعة من حيث الإدغام. ومن الأمثلة على ذلك قول سيبويه:" والنون إدغامها (أي اللام) فيها (أي النون) أقبح من جميع هذه الحروف؛ لأنها (أي النون) تدغم في اللام، كما تدغم في الباء والواو والراء والميم، فلم يجسروا أن يخرجوها (أي اللام) من هذه الحروف التي شاركتها في إدغام النون، وصارت كأحدها في ذلك"[٢].

(١) الكتاب. ٤/ ٤٥٣.

(٢) السابق. ٤/ ٤٥٩. وينظر، كذلك، ص:٢٦٢. من هذه الدراسة.

الباب الثالث

الإدغام في حروف طرف اللسان والثنايا

الفصل الأول: إدغام حروف طرف اللسان والثنايا في حالة الانفصال.

الفصل الثاني: إدغام حروف طرف اللسان والثنايا في حالة الاتصال.

الفصل الثالث: ظواهر صوتية مختلفة في المماثلة والتخفيف.

الإدغام في حروف طرف اللسان والثنايا

تمهيد:

عالج سيبويه تحت هذا العنوان خمس مجموعات صوتية متمايزة في مخارجها، وهذه المجموعات، هي:

المجموعة الأولى:

وتشمل أحرف الطاء، والدال، والتاء. وتنتمي – عند سيبويه– إلى مخرج يقع بين طرف اللسان وأصول الثنايا.

المجموعة الثانية:

وتشمل أحرف الصاد، والسين، والزاي. وتنتمي – عند سيبويه– إلى مخرج يقع بين طرف اللسان وفويق الثنايا.

المجموعة الثالثة:

وتشمل أحرف الظاء، والذال، والثاء. وتنتمي – عند سيبويه– إلى مخرج يقع بين طرف اللسان، وأطراف الثنايا.

المجموعة الرابعة:

وتشمل حرفاً واحداً فقط، هو الضاد، ولا ينتمي هذا الحرف – عند سيبويه– إلى مجموعة حروف طرف اللسان والثنايا. وإنما هو حرف

من بين أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس. ولكن سيبويه أدرجه ضمن موضوع الإدغام، في حروف طرف اللسان والثنايا، نظراً لأن خاصة الاستطالة، التي يتسم بها هذا الحرف، تصله – كما نص سيبويه – بمخرج اللام[1]، التي تنتمي – بدورها – إلى حروف طرف اللسان. وقد قرر ابن عصفور أن الضاد بالاستطالة التي فيها -لحقت مخرج الطاء، والدال، والتاء، لأنها اتصلت بمخرج اللام ... وقربت بسبب ذلك من الظاء، والذال، والثاء، لأنهن من حروف طرف اللسان والثنايا، كالطاء وأختيها"[2].

المجموعة الخامسة :

وتشمل حرفاً واحداً فقط، هو الشين. وهذا الحرف -كسابقه- لا ينتمي إلى مجموعة حروف طرف اللسان والثنايا. وإنما هو حرف من وسط اللسان بينه وبين وسط الحنك الأعلى. ولكن سيبويه أدرجه ضمن موضوع الإدغام، في حروف طرف اللسان والثنايا، نظراً لأن خاصة التفشي التي يتسم بها هذا الحرف تؤدي إلى استطالته واتصاله -بالتالي- بمخرج الطاء.

---

(١) الكتاب. ٤/ ٤٥٧.

(٢) ابن عصفور: الممتع في التصريف. ٢/ ٦٩١.

وسنحاول - فيما يأتي - تقديم دراسة مؤطَّرة لحالات الإدغام التي تتعرض لها هذه الحروف .

الفصل الأول

إدغام حروف طرف اللسان والثنايا في حالة الانفصال

إدغام حروف طرف اللسان والثنايا في حالة الانفصال.

ناقش سيبويه إدغام هذه الحروف، في حالة الانفصال، على النحو الآتي:

المجموعة الأولى:

(١) الإدغام في عناصر هذه المجموعة :

أ. ط ⟷ د[1]:

يمكن أن تدغم الطاء في الدال، في مثل: اضبطْ دَلَمًا < اضْبِدَّ لما ʾiḍ/biṭ/ da/la/maa ⟵ ʾiḍ/bid/da/la/maa بإطباق أو بدونه. والسبب في ذلك عائد –كما ذكر سيبويه وغيره من اللغويين[2]– إلى اتحاد هذين الحرفين في ملامح المخرج والشدة (الانفجار) والجهر. ويمكن – في المقابل- إدغام الدال في الطاء، في مثل: انقد طالباً > انقطّالباً.

---

(١) يشير السهم المزدوج الاتجاه (⟷) إلى إمكان وقوع إدغام متبادل في الحرفين الواقعين على جانبيه.

(٢) الكتاب. ٤/ ٤٦٠. وكذلك: ابن يعيش: شرح المفصل. ١٠/ ١٤٥.

ᵓun/quṭ/ṭaa/li/ban ← ᵓun/qud/ṭaa/li/ban

ويعد إبقاء الإطباق والمحافظة عليه، في حالة إدغام الطاء في الدال، أفضل من تركه؛ لأن "المطبق – كما ذكر سيبويه–أفشى في السمع، ورأوْا إجحافاً أن تغلب الدالُ على الإطباق، وليست كالطاء في السمع"[١]. ومع ذلك، فلا مانع من وقوع الإدغام بينهما دونما إطباق، حتى يصبح الحرفان المدغمان مثلين متطابقين، وذلك حملاً على الإدغام التام للنون في غيرها من الحروف، والذي من شأنه أن يؤدي إلى فقدان النون لخصيصة الغنة فيها.

ب. ط ↔ ت:

يمكن أن تدغم الطاء في التاء، في مثل: انقُطْ تَوْأما > انقتَّوأما،

ᵓun/quṭ/ṭaw/ᵓa/man ← ᵓun/quṭ/taw/ᵓa/man

بإطباق أو بدون، والأفصح – كما ذكر الرضي– هو إبقاء الإطباق، لئلا تذهب فضيلة الحرف[٢]، (وهي الإطباق) وقد قرأ أبو عمرو بن العلاء، قوله تعالى: ﴿ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ ﴾[٣] > "فرَّتُّ في جنب الله"،

(١) الكتاب. ٤/ ٤٦٠.

(٢) الرضي: شرح الشافية. ٣/ ٢٨١.

(٣) الزمر:٥٦.

بالإدغام والإطباق[1]. ولكن سيبويه يذكر أن بعض العرب يخلصون الطاء تاء في مثل قولهم: حُطْتُهم > حُتُّهم[2].

ويمكن في مقابل ما سبق – أن تدغم التاء في الطاء في مثل: انعتْ طالباً> انعطَّالباً: ᵓin/ᶜaṭ/ṭaa/li/ban ⟵ ᵓin/ᶜat/ṭaa/li/ban

ويعد سيبويه المحافظة على الاطباق، في حالة إدغام الطاء في التاء، أمثل منه في حالة إدغام الطاء في الدال. وذلك لأن صوتي الطاء والتاء يختلفان عند سيبويه في ملمحي الجهر والهمس[3]؛ فإدغام الطاء في الدال دونما إطباق من شأنه أن يفقد الطاء ملمح الإطباق وحده دون ملمح الجهر. أما في حالة إدغام الطاء في التاء، دونما إطباق، فإن الأمر سيؤدي إلى فقدان الطاء لملمحي الإطباق والجهر معاً.

ت. ت ⟷ د:

يمكن أن تدغم التاء في الدال، وأن تدغم الدال في التاء في مثل:

انعَتْ دلاما> انعدُّلاما:

ᵓin/ᶜad/du/laa/man ⟵ ᵓin/ᶜat/du/laa/man

---

(١) ابن يعيش: شرح المفصل. ١٠/ ١٤٦.

(٢) الكتاب. ٤/ ٤٦٠.

(٣) يعد سيبويه "الطاء" صوتاً مجهوراً، خلافاً لوجهة النظر الحديثة، التي تعده صوتاً مهموساً.

وانقُدْ تلك > انقتِّلك. ɔun/qud/tilk ⟵ ɔun/qut/tilk والسبب في إمكان وقوع الإدغام هنا، يرجع – كما ينص سيبويه – إلى أنّ هذين الحرفين يشتركان في ملمحي المخرج والشدة، ولا يختلفان إلا في ملمحي الجهر والهمس[1].

ويعد ابن يعيش إدغام التاء في الدال أمثل؛ لأن الدال مجهورة[2]، وإن كان هو نفسه، ومعه سيبويه، يريان أن الإدغام المتبادل في هذين الحرفين أحسن، نظراً لأن الخلافات، بين هذين الحرفين، تنحصر في الهمس ، والجهر ، في حين يخلوان من الإطباق والاستطالة والتكرير[3].

وعلى أي حال، فإنّ البيان وعدم الإدغام في أحرف هذه المجموعة جائز كما ذكر سيبويه[4]، لأنها من المنفصل، وإنّ ثقل الكلام لشدتهنّ وللزوم اللسان موضعهن لا يتجافى عنه[5].

---

(١) الكتاب. ٤/ ٤٦١.

(٢) ابن يعيش: شرح المفصل. ١٠/ ١٤٦.

(٣) السابق. ١٠/ ١٤٦. وكذلك: الكتاب. ٤/ ٤٦٠.

(٤) الكتاب. ٤/ ٤٦١.

(٥) ابن يعيش: شرح المفصل. ١٠/ ١٤٦.

(٢) <u>إدغام عناصر المجموعة الأولى، في عناصر المجموعة الثانية:</u>

من الممكن أن تدغم عناصر المجموعة الأولى، وهي: الطاء، والدال، والتاء، في عناصر المجموعة الثانية، وهي: الصاد، والسين، والزاي، في مثل:

ذهبتْ سَلمى> ذهبسَّلمى، و لا يَتَسمَّعون > لا يسَّمعون، و قدْ سَمِعت > قسَّمِعت، واضبطْ زرده > اضبزَّرده، وانعتْ صابراً > انعصَّابرا :

òa/ha/bas/sal/maa ← òa/ha/bat/sal/maa
laa/yas/sam/ma/^{c}uun ← laa/ya/ta/sam/ma/^{c}uun
qas/sa/mi^c/ta ← qad/sa/mi/^{c}ta
ɔiḍ/biz/za/ra/dah ← ɔiḍ/biṭ/za/ra/dah
ɔin/^{c}aṣ/ṣaa/bi/ran ← ɔi/^{c}at/ṣaa/bi/ran

والسبب في جواز الإدغام، بين أحرف هاتين المجموعتين، يرجع - كما ذكر سيبويه- إلى قرب المخرجين اللذين تنتمي لهما أحرف هاتين المجموعتين[١]. ومع ذلك، فإنّ البيان وعدم الإدغام، في هذه الحالة، عربي حسن لعدم اتحاد المخرجين[٢].

---

(١) يصنف الدرس الصوتي الحديث، كما سنرى لاحقاً، أصوات هاتين المجموعتين في مخرج واحد، هو المخرج الأسناني اللثوي .

(٢) الكتاب. ٤/ ٤٦٢- ٤٦٣.

وفي المقابل، فإن سيبويه ينفي إمكان إدغام عناصر المجموعة الثانية في عناصر المجموعة الأولى؛ لأن الإدغام سيؤدي – في حال حدوثه – إلى فقدان عناصر المجموعة الثانية، وهي الصاد والسين، والزاي، لخصيصتها المميزة لها، وهي "النداوة في السمع" وملمح الصفير Sibilant Feature الذي يعد –كما نص ابن عصفور– فضل صوت في الحرف[1].

(٣) إدغام عناصر المجموعة الأولى ، في عناصر المجموعة الثالثة:

من الممكن أن يقع إدغام متبادل بين عناصر المجموعة الأولى، وهي: الطاء، والدال، والتاء وعناصر المجموعة الثالثة، وهي: الظاء، والذال، والثاء، في نحو: اهبطْ ظالماً: اهبطْ ظالماً > اهبظّالما، وابعدْ ذلك > ابعذِّلك، وانعتْ ثابتاً > انعثّابتا، واحفظْ طالباً > احفطّالبا، وخذْ داود > خدّاود، وابعثْ تلك > ابعتَّلك.

ᵓih/bið̱̀/ð̱̀aa/li/man ← ᵓih/biṭ/ð̱̀aa/li/man
ᵓab/ᶜið̀/ð̀aa/li/ka ← ᵓab/ᶜid/ð̀aa/li/ka
ᵓin/ᶜaθ/θaa/bi/tan ← ᵓin/ᶜat/θaa/bi/tan
ᵓiḥ/faṭ/ṭaa/li/ban ← ᵓiḥ/fað̱̀/ṭaa/li/ban
xud/daa/wuud ← xuð̀/daa/wuud
.ᵓib/ᶜat/tilk ← ᵓib/ᶜaθ/tilk

---

(١) ابن عصفور: الممتع في التصريف. ٢/ ٧٠٨.

ويرجع السبب في جواز وقوع الإدغام المتبادل في عناصر هاتين المجموعتين، إلى الأسباب نفسها التي سوغت الإدغام في الحالات السابقة، والمتمثلة في قرب المخارج بين أصوات هاتين المجموعتين[1].

ومن الجدير بالملاحظة، في هذا الصدد، أن عناصر المجموعة الثانية، وهي الصاد، والسين، والزاي، أقرب إلى عناصر المجموعة الأولى في المخرج، ومع ذلك، فقد امتنع إدغام عناصر المجموعة الثانية في عناصر المجموعة الأولى، في حين جاز إدغام عناصر المجموعة الثالثة في عناصر المجموعة الأولى رغم البعد المخرجي النسبي بينهما، والسبب في ذلك، يعود إلى ما قرره ابن عصفور، وهو أنه " لا يدغم شيء من هذه الصفيريات في شيء مما يقاربها من الحروف، لأن في ذلك إخلالاً بها، لأنها لو أدغمت لقلبت إلى جنس ما تدغم فيه، فيذهب الصفير وهو فضل صوت في الحرف"[2].

---

(١) تنتمي هاتان المجموعتان إلى مخرجين متجاورين: المخرج الاسناني اللثوي الذي تنضوي في إطاره أصوات المجموعة الأولى، والمخرج الأسناني الذي تنضوي في إطاره أصوات المجموعة الثالثة .

(٢) ابن عصفور: الممتع في التصريف. ٢/ ٧٠٨.

(٤) إدغام عناصر المجموعة الأولى في عناصر المجموعة الرابعة:

يجوِّز سيبويه إدغام عناصر المجموعة الأولى في الضاد، في مثل: اضبطْ ضرمه> اضبضِّرمه، وانعتْ ضرمه> انعضِّرمه، وضجَّتْ ضَجة> ضجضَّجة، وقدْ ضعف> قضَّعف.

^{ɔ}iḍ/biḍ/ḍa/ra/mah ⟵ ^{ɔ}iḍ/biṭ/ḍa/ra/mah
^{ɔ}in/^{c}aḍ/ḍa/ra/mah ⟵ ^{ɔ}in/^{c}at/ḍa/ra/mah
ḍag/gaḍ/ḍag/gah ⟵ ḍag/gat/ḍag/gah
qaḍ/ḍa/^{c}u/fa ⟵ qad/ḍa/^{c}u/fa

ويعود السبب في جواز الإدغام هنا –على الرغم من الاختلاف المخرجي لعناصر هاتين المجموعتين في التصنيف الصوتي القديم – إلى أن خاصة الاستطالة بالضاد قد أدت إلى اتصالها بمخرج الطاء، فضلاً عن اشتراك الضاد والطاء بملمح الإطباق. وقد أعطيت كل من الدال والتاء –كما يرى سيبويه– حكم الطاء، من حيث الإدغام بالضاد، وذلك بسبب اشتراك كل من الطاء والدال والتاء في المخرج[١].

ونحن نرى أنه لا ضرورة لتسويغ إدغام الدال والتاء في الضاد من منطلق إمكان إدغام الطاء فيها، ونفضِّل ما ذهب إليه ابن عصفور[٢]

---

(١) الكتاب. ٤/ ٤٦٥.

(٢) ابن عصفور: الممتع في التصريف. ٢/ ٦٩١.

من أن الاستطالة التي وسمت الضاد، وألحقتها بمخرج الطاء والدال والتاء ، كانت العامل الأساس في إدغام هذه الأحرف في الضاد.

وفي المقابل، فإنّ الضاد لا تدغم في الطاء وأختيها، وذلك من أجل المحافظة على خصيصة الاستطالة في صوت الضاد. وقد نص ابن عصفور، على أن "الضاد لا تدغم في شيء من مقاربتها، وسبب ذلك أن فيها استطالة وإطباقاً واستعلاء، وليس في مقارباتها ما يشركها في ذلك كله، فلو أدغمت لأدى ذلك إلى الإخلال بها، لذهاب هذا الفضل الذي فيها"[١].

ولكن سيبويه يورد حالة شاذة لإدغام الضاد في الطاء، ويتمثل ذلك في قول بعضهم "مطّجع". وقد برر سيبويه هذه الحالة، باشتراك الضاد والطاء في ملمح الإطباق، وتقاربهما في المخرج، حسب التصنيف الصوتي القديم، فضلاً عن وقوعهما معاً في كلمة واحدة[٢].

(٥) إدغام عناصر المجموعة الأولى في عناصر المجموعة الخامسة:

من الممكن أن تدغم عناصر المجموعة الأولى في الشين، في مثل: اضبطْ شبثاً> اضبشَّبثاً، وانعتْ شبثاً > انعشَّبثاً، وانقدْ شبثاً > انقشبثاً.

ʾiḍ/biš/ša/ba/θan ←—— ʾi/ḍiṭ/ša/ba/θan

(١) ابن عصفور: الممتع في التصريف. ٢/ ٦٨٩-٦٩٠.

(٢) الكتاب. ٤/ ٤٧٠.

ᵓin/ᶜaš/ša/ba/θan ⟵ ᵓin/ᶜat/ša/ba/θan
ᵓun/quš/ša/ba/θan ⟵ ᵓun/qud/ša/ba/θan

ويعزو سيبويه السبب في إمكان وقوع الإدغام في هذه الحالة –على الرغم من الاختلاف المخرجي لعناصر هاتين المجموعتين إلى أن خاصة التفشي التي تتسم بها الشين أدت إلى استطالتها، الأمر الذي ألحقها بمخرج الطاء وأختيها، "فجرت لذلك مجرى ما هو من مخرج واحد"[1]. وفي المقابل، فإن الشين لا تدغم –كما ذكر سيبويه– في الحروف المقاربة لها، وذلك خشية فقدانها لخاصة التفشي[2].

ويرى سيبويه أن إدغام عناصر المجموعة الأولى في الشين أضعف منه في الضاد، وذلك عائد إلى كون الضاد مطبقة، وأقرب، من حيث المخرج، إلى الطاء وأختيها، مما هو عليه الحال مع الشين[3].

المجموعة الثانية:

(١) الإدغام في عناصر هذه المجموعة:

تشتمل هذه المجموعة على أحرف الصاد، والسين، والزاي. وتربط بين عناصر هذه المجموعة شبكة من العلاقات، مماثلة لتلك

---

(١) ابن عصفور: الممتع في التصريف. ٢/ ٦٨٨.

(٢) الكتاب. ٤/ ٤٤٧، ٤٤٨.

(٣) السابق. ٤/ ٤٦٦.

الشبكة، التي تربط بين عناصر المجموعة الأولى. بحيث تناظر الصاد، والسين، والزاي في المجموعة الثانية، كلاً من الطاء، والدال، والتاء في المجموعة الأولى على التوالي. فمن الممكن إدغام الصاد في السين، في مثل: افحصْ سالماً> افحسَّالما

ᵓif/ḥas/saa/li/man ←— ᵓif/ḥaṣ/saa/li/man

باطباق أو بدونه، مثلما امكن إدغام الطاء في الدال، بإطباق أو بدونه، في المجموعة الأولى، حيث يشترك الحرفان الأَوَّلان –الصاد والسين – في ملمح الهمس، كما يشترك الحرفان الأخيران – الطاء والدال عند سيبويه – في ملمح الجهر[١].

وتدغم الصاد في الزاي، في مثل: افحصْ زَرده > افحزَّرده

ᵓif/ḥaṣ/za/ra/dah ←— ᵓif/ḥaz/za/ra/dah،وذلك على نحو ما تدغم الطاء في التاء، في المجموعة الأولى، حيث يختلف الحرفان الأولان – الصاد والزاي– والحرفان الأخيران – الطاء والتاء – في ملمحي الجهر والهمس، وتدغم الزاي في السين، في مثل: رُزْ سَلمه> رسَّلمه

ruz/sa/la/mah ←— rus/sa/la/mah، مثلما تدغم التاء في الدال في المجموعة الأولى. فقد اختلف الحرفان الأولان – الزاي والسين– والحرفان الأخيران – التاء والدال – في ملمحي الجهر والهمس.

---

(١) يُنظر الملحوظة رقم (٣) الواردة في هامش ص: ٢٨٨. من هذه الدراسة.

وتجدر الإشارة إلى أن عناصر هذه المجموعة، وهي الصاد، والسين، والزاي، قابلة لوقوع الإدغام فيها على نحو متبادل، وذلك على غرار الإدغام في عناصر المجموعة الأولى، ويعود السبب في ذلك، إلى اتحاد عناصر هذه المجموعة في ملمحي المخرج، والصفير؛ ففي حالة إدغام كل حرف، من أحرف هذه المجموعة، في الآخر، فإنه ينقلب – على حد قول ابن عصفور– إلى مقاربه في المخرج، والصفير فلم يكن في الإدغام إخلال به[1].

(٢) إدغام عناصر المجموعة الثانية في عناصر المجموعة الثالثة:

لا تقبل عناصر المجموعة الثانية، وهي الصاد، والسين، والزاي، الإدغام في عناصر المجموعة الثالثة، وهي: الظاء، والثاء، والذال. ويعود السبب في ذلك – كما يذكر سيبويه – إلى كون أحرف المجموعة الثانية ، تتسم بالملمح الصفيري ، فضلاً عن كونها أيضاً "أندى في السمع"[2]. في حين أن أحرف المجموعة الثالثة، وأحرف المجموعة الأولى أيضاً "لسن في السمع كهذه الحروف لخفائها"[3]. ومن شأن وقوع الإدغام في عناصر

(١) ابن عصفور: الممتع في التصريف. ٢/ ٧٠٦-٧٠٧.

(٢) الكتاب. ٤/ ٤٦٤.

(٣) السابق. ٤/ ٤٦٥.

هاتين المجموعتين، أن تفقد أحرف المجموعة الثانية ملمحها التمييزي الخاص بها، ولهذا فقد امتنع وقوعه.

(٣) إدغام عناصر المجموعة الثانية في عناصر المجموعة الرابعة:

لا تدغم عناصر المجموعة الثانية في الضاد، وذلك من أجل المحافظة على ملمح الصفير الذي تتسم به أحرف المجموعة الثانية، كما لا تدغم الضاد في أحرف هذه المجموعة، وذلك من أجل المحافظة على خاصة الاستطالة التي تتسم بها الضاد فضلاً عن بعد مخرجي هاتين المجموعتين[1].

(٤) إدغام عناصر المجموعة الثانية في عناصر المجموعة الخامسة:

لا يقع إدغام متبادل في عناصر هاتين المجموعتين، ويعود السبب في ذلك، إلى أن إدغام عناصر المجموعة الثانية في الشين، سوف يؤدي إلى فقدان الملمح الصفيري، والنداوة في السمع اللتين تتسم بهما عناصر المجموعة الثانية، في حين يؤدي إدغام الشين في عناصر هذه المجموعة إلى فقدان الشين لخاصيتي التفشي والاستطالة اللتين تتسم بهما الشين. ولهذا فقد امتنع وقوع الإدغام في هذه الحالة.

---

(١) الكتاب. ٤/ ٤٦٦.

المجموعة الثالثة:

(١) الإدغام في عناصر هذه المجموعة:

يمكن إدغام عناصر هذه المجموعة، وهي: الظاء، والذال، والثاء في بعضها، على نحو متبادل، وذلك في مثل: احفظْ ذلك > احفذَّلك، واحفظْ ثابتاً > احفثَّابتا، خذْ ظالما > خظَّالما. وابعثْ ظالماً > ابعظَّالما، وخذْ ثابتاً >خثَّابتا، وابعثْ ذلك > ابعذَّلك.

ᵓiḥ/fað̀/ð̀aa/li/ka ← ᵓiḥ/fað̱/ð̀aa/li/ka
ᵓiḥ/faθ/θaa/bi/tan ← ᵓiḥ/fað̱̀/θaa/bi/tan
xuð̀/ð̱aa/li/man ← xuð̀/ð̱aa/li/man
ᵓib/ᶜað̱/ð̱aa/li/man ← ᵓib/ᶜaθ/ð̱aa/li/man
xuθ/ θaa/bi/tan ← xuð̀/ θaa/bi/tan
ᵓib/ᶜað̀/ ð̀aa/li/ka ← ᵓib/ᶜaθ/ ð̀aa/li/ka

وترتبط عناصر هذه المجموعة بشبكة علاقات مماثلة لشبكتي العلاقات اللتين تقومان بين عناصر المجموعتين الأولى، والثانية. ففي هذه المجموعة، تناظر الظاء، والذال، والثاء، مع الصاد، والسين، والزاي ومع الطاء، والدال، والتاء، في المجموعتين الأولى والثانية على التوالي. ومن الممكن صياغة قواعد مماثلة للقواعد الداخلية التي تربط عناصر كل من المجموعتين السابقتين.

فالظاء تدغم في الذال، في مثل: احفظْ ذلك> احفذّلك: ᵓiḥ/fað̀/ð̀aa/li/ka ← ᵓiḥ/fað̱/ð̀aa/li/ka، بإطباق أو بدونه.

وذلك على غرار إدغام الطاء في الدال، في المجموعة الأولى، وإدغام الصاد في السين، في المجموعة الثانية. فالحرفان الأولان – الظاء والذال- في المجموعة الثالثة يشتركان – على غرار حرفي المجموعة الأولى – الطاء والدال- في ملمح الجهر، في حين يشترك حرفا المجموعة الثانية –الصاد والسين – في ملمح الهمس. ولا يفرق بين حرفي كل مجموعة من هذه المجموعات الثلاث سوى ملمح الإطباق.

وتدغم الظاء في الثاء، في مثل: احفظْ ثابتاً > احفثّابتا

ˀiḥ/faθ/θaa/bi/tan ⟵ ˀiḥ/fað̲/θaa/bi/tan

بإطباق أو بدونه، وذلك على غرار إدغام الطاء في التاء في المجموعة الأولى، وإدغام الصاد في الزاي في المجموعة الثانية؛ فكل حرفين من أحرف هذه المجموعات الثلاث، يتقابلان في ملمح الجهر، والهمس، والإطباق.

وتدغم الذال في الثاء، في مثل: خذْ ثابتاً > خثّابتا

xuθ/ θaa/bi/tan ⟵ xuð̀/ θaa/bi/tan وذلك على نحو ما تدغم الدال في التاء في المجموعة الأولى، والزاي في السين في المجموعة الثانية؛ فكل حرفين من أحرف هذه المجموعات الثلاث يتقابلان في ملمحي الجهر، والهمس فقط.

(٢) إدغام عناصر المجموعة الثالثة في عناصر المجموعة الرابعة:

يمكن أن تدغم عناصر المجموعة الثالثة، وهي: الظاء، والذال والثاء، في الضاد، في مثل: احفظْ ضَرمه > احفضَّرمه، وخذْ ضَرمه > خضّرمه[1]، وابعث ضرمه > ابعضَّرمه.

ˀiḥ/faḍ/ḍa/ra/mah ⟵ ˀiḥ/faḏ̣/ḍa/ra/mah
xuḍ/ ḍa/ra/mah ⟵ xuð̣/ ḍa/ra/mah
ˀib/ᶜaḍ/ ḍa/ra/mah ⟵ ˀib/ᶜaθ/ ḍa/ra/mah

ويعود السبب في إمكان وقوع الإدغام هنا، إلى خاصة الاستطالة التي تتسم بها الضاد، والتي قربتها من الظاء، والذال، والثاء. فضلاً عن أن الإدغام في هذه الحالة لا يفقد الضاد خاصتيها المميزتين لها والمتمثلتين بالاستطالة والإطباق.

وفي المقابل، فإن الضاد لا تدغم في عناصر هذه المجموعة، وذلك من أجل المحافظة على خاصة الاستطالة التي تميز الضاد، والتي ستتعرض – في حالة وقوع الإدغام– إلى الضياع.

(٣) إدغام عناصر المجموعة الثالثة في عناصر المجموعة الخامسة:

من الممكن أن تدغم عناصر المجموعة الثالثة في الشين، في مثل: احفظْ شَنباء > احفشَّنباء، وخذْ شنباء > خشَّنباء، وابعثْ شنباء> ابعشَّنباء.

---

(١) الكتاب. ٤/ ٤٦٥.

ˀiḥ/faš/šan/baaˀ ← ˀiḥ/fað̱̀/šan/baaˀ

xuš/ šan/baaˀ ← xuð̀/ šan/baaˀ

ˀib/ᶜaš/ šan/baaˀ ← ˀib/ᶜaθ/ šan/baaˀ

ويعود السبب في جواز الإدغام في هذه الحالة إلى أنهم - أي الناطقين بالعربية- قد أعطوا الشين- كما يقول سيبويه- حكم الضاد من حيث الإدغام في عناصر هذه المجموعة، غير أن البيان وعدم الإدغام، في هذه الحالة، عربي جيد على حد قول هذا العالم[١].

ويعد إدغام عناصر هذه المجموعة في الشين، أجود من إدغامها في الضاد، وذلك بسبب بعد مخرجي هاتين المجموعتين فضلاً عن خلو الشين من ملمح الإطباق.

وفي المقابل، فإن الشين لا تدغم في عناصر هذه المجموعة، وذلك خشية فقدان الشين - في حالة إدغامها- لخاصة الاستطالة المميزة لها.

(١) الكتاب. ٤/ ٤٦٦.

ملحوظات:

١) تنتمي أصوات المجموعات الأولى (ط، د، ت) والثانية (ص، س، ز) والرابعة (ض)، في التصنيف الصوتي الحديث إلى المخرج الأسناني اللثوي Denti Alveolar، في حين تنتمي أصوات المجموعة الثالثة (ظ، ذ، ث) إلى المخرج الأسناني Dental، أما المجموعة الخامسة فينتمي صوتها الوحيد فيها، وهو الشين، إلى المخرج الغاري Hard Palate.

٢) تستند عملية الإدغام بين الأصوات في هذه المجموعات إلى عامل القوة في الصوت، بحيث يتمكن الصوت المتمتع بملمح أو ملامح قوة، من التأثير في الصوت الآخر الذي لا يتمتع بتلك الملامح، الأمر الذي يؤدي إلى حدوث الإدغام بينهما، كما سنرى في السطور الآتية.

٣) يمكن أن يقع إدغام متبادل بين عناصر المجموعة الأولى (ط، د، ت) بسبب اتحادها في المخرج الاسناني اللثوي، بيد أن اللغويين القدامى، وفي مقدمتهم سيبويه، يرجحون الإدغام بين عناصر هذه المجموعة، مع الاحتفاظ بملمح قوة يتمثل بالتفخيم في حالة الإدغام بين صوت الطاء المفخم، وكل من

صوتي الدال والتاء المرققين، والاحتفاظ بملمح قوة آخر يتمثل بالجهر في حالة الإدغام بين صوت الدال المجهور، وصوت التاء المهموس.

٤) من الممكن أن تدغم أصوات المجموعة الأولى (طـ، د، ت) في أصوات المجموعة الثانية (ص، س، ز)، في حين لا تدغم أصوات المجموعة الأخيرة، وهي المجموعة الثانية، في أصوات المجموعة الأولى، لأن ذلك من شأنه، في حالة حدوثه، أن يفقد أصواتها ملامح قوتها المتمثلة في الصفير Sibilant فيها جميعاً. والصفير والتفخيم في الصاد، والصفير والجهر في الزاي.

٥) يمكن أن يقع إدغام متبادل بين عناصر المجموعة الأولى (طـ، د، ت) ذات المخرج الأسناني اللثوي، وعناصر المجموعة الثالثة (ظـ، ذ، ث) ذات المخرج الأسناني، ويعود السبب في ذلك إلى تقارب، بل تجاور أصوات هاتين المجموعتين.

٦) من الممكن أن تدغم عناصر المجموعة الأولى في صوتي المجموعتين الرابعة، والخامسة المتمثلين بصوت الضاد والشين على الترتيب، في حين لا يدغم هذان الصوتان في أصوات المجموعة الأولى، لأن ذلك من شأنه، في حالة حدوثه، أن يفقد

الضاد ملامح قوتها المتمثلة بالتفخيم، والاستطالة، والتفشي، وأن يفقد الشين ملمحي قوتها المتمثلة بالتفشي والاستطالة.

٧) يمكن أن يقع إدغام متبادل بين عناصر المجموعة الثانية (ص، س، ز) بسبب اتحادها في المخرج الأسناني اللثوي، فضلاً عن اشتراكها معاً في ملمح قوة يتمثل في الصفير والنداوة في السمع على حد قول سيبويه، الذي لا يتعرض إلى التأثر، أو الضياع والفقدان في حالة حدوث الإدغام بينها. ومن ناحية أخرى، فإن عناصر هذه المجموعة الصفيرية لا تقبل أن تُدغمَ في عناصر المجموعتين الأولى (طـ، د، ت) والثالثة (ظـ، ث، ذ)، لأن ذلك من شأنه، في حالة حدوثه، أن يفقد أصوات المجموعة الثانية ملمح قوتها المتمثلة في الصفير والنداوة في السمع. وإضافة إلى ذلك، فإن أصوات هذه المجموعة؛ أي المجموعة الثانية (ص، س، ز) لا تقبل إدغاماً متبادلاً بينها، وبين أصوات المجموعتين الرابعة، والخامسة المتمثلة بصوتي الضاد والشين على الترتيب، ويعود السبب في ذلك إلى أن إدغام أصوات المجموعة الثانية في هذين الصوتين (ض، ش) سوف يفقدها ملمح قوتها المتمثل كما ذكرنا غير مرّة بالصفير، كما أن ادغام هذين الصوتين ، بأصوات المجموعة الثانية سوف يفقد صوت المجموعة الرابعة، المتمثل

بصوت الضاد، ملامح قوتها المتمثلة بالتفخيم، والاستطالة والتفشي، كما سيفقد صوت المجموعة الخامسة، المتمثل بصوت الشين، ملمحي قوتها المتمثلة بالتفشي والاستطالة .

٨) يمكن أن يقع ادغام متبادل بين عناصر المجموعة الثالثة (ظـ، ث، ذ) بسبب اتحادها في المخرج الأسناني. ومن ناحية أخرى، فإن بالامكان إدغام أصوات هذه المجموعة في صوتي المجموعتين الرابعة والخامسة المتمثلين بالضاد والشين على الترتيب، في حين لا يدغم هذان الصوتان في أصوات هذه المجموعة؛ أي المجموعة الثالثة، لأن ذلك من شأنه، في حالة حدوثه أن يفقد الضاد والشين ملامح قوتهما التي أشرنا إليها غير مرَّة.

الفصل الثاني

إدغام حروف طرف اللسان والثنايا في حالة الاتصال

١. في صيغة "افتعل".

٢. في صيغة "فعلت".

٣. في الصيغ التي ترد فيها التاء قبل حروف طرف اللسان والثنايا.

إدغام حروف طرف اللسان والثنايا في حالة الاتصال

يذكر سيبويه، أن إدغام هذه الحروف، في حالة اتصالها في داخل بنية كلمة واحدة، يكون أكثر إلحاحاً وضرورة، منه في الحالة السابقة، وهي حالة التقائها وتقاربها في كلمتين منفصلتين.

يقول سيبويه: "وإذا كانت هذه الحروف المتقاربة في حرف واحد، ولم يكن الحرفان منفصلين، ازدادا ثقلاً واعتلالاً، كما كان المثلان إذ لم يكونا منفصلين أثقل، لأن الحرف لا يفارقه ما يستثقلون"[١].

وتجدر الإشارة، إلى أن جزءاً من المناقشات، التي قدمها سيبويه في هذه الحالة، تعد الأساس الذي قام عليه "درس الإبدال" في ميدان الصرف العربي.

وسنحاول – فيما يأتي– تقديم تصورات هذا العالم وآراءه، حول ما يعرض لحروف طرف اللسان والثنايا في حالة اتصالها داخل البنية الواحدة، من إدغام، أو إبدال. وستكون دراستنا لها قائمة على نظام

---

(١) الكتاب. ٤/ ٤٦٧.

المجموعات التي كانت إطاراً لدراستنا لها في حالة انفصالها، وورودها في كلمتين منفصلتين.

أولاً- في صيغة "افتعل":

(١) في المجموعة الأولى:

أ- ط + ت ←—— طّ[١]:

إذا اجتمعت الطاء والتاء في داخل بنية واحدة، وكانت هذه البنية على صيغة "افتعل" أو مشتقاتها، فإن التاء تبدل طاء، ثم تجري - بعد ذلك - عملية الإدغام في الحرفين المثلين. ومن الأمثلة، التي قدمها سيبويه[٢]، في هذا الصدد، بناء الفعل "طعن"، على زنة افْتَعل أو مشتقاتها، حيث يؤدي ذلك إلى اجتماع طاء وتاء على النحو الآتي:

---

(١) نقصد بالإشارة (+) إمكان اجتماع الحرفين المحيطين بها في داخل بنية واحدة، ويدل الحرف الواقع على يمين هذه الإشارة على أول الحرفين، ويدل الحرف الواقع على يسارها على الحرف التالي له مباشرة ، أما السهم الواقع بعد الحرفين الملتقيين معاً فيشير إلى إمكان تحول الحرفين الورادين قبله إلى الشكل أو الأشكال الجديدة الحاصلة بعد عملية الإبدال، أو الإدغام، أو العمليتين معاً.

(٢) الكتاب. ٤/ ٤٧٠.

"اطْتَعن" أو "مُطْتَعن"، وفي هذه الحالة تتأثر التاء المرققة بالطاء المطبقة تأثراً تقدمياً Progressive، مما يؤدي إلى قلبها إلى مقابلها المطبق ، وهو صوت الطاء، وذلك من أجل تحقيق مماثلة صوتية كلية Total Assimilation بين الصوتين المتجاورين، مما يؤدي إلى تحقيق الانسجام بين الأصوات المتجاورة فتصبح البنية ، هكذا : اطْطَعنَ . وبعد ذلك يقع الإدغام في الحرفين المثلين، على النحو الآتي:

اطْتَعن ←—— اطْطَعن ←—— اطَّعَن.

.^{ɔ}iṭ/ṭa/^{c}a/na ←—— ^{ɔ}iṭ/ta/^{c}a/na

وقد نصَّ سيبويه، على أنه لا يجري، في مثل هذه الحالة، إدغام الطاء في التاء، حتى لا يؤدي ذلك إلى الإخلال بالحرف "لأنهم لم يريدوا إلا أن يبقى الإطباق"(١). ومعنى ذلك أن إدغام الطاء في التاء من شأنه أن يفقد الطاء ملمح الإطباق.

وتستند عملية الادغام في هذا المثال، وما كان على شاكلته، إلى قاعدة القوة في الصوت، التي ألمحنا إليها في موضع سابق، فملمح التفخيم، أو ما يسمى بالاطباق، الذي يتسم به صوت الطاء، ومثله، في ذلك، أصوات الصاد، والضاد، والظاء، يعد ملمح قوة فيه تميزه من غيره من الأصوات غير المفخمة، وعلى هذا فان "بوسع الأصوات المفخمة ان

---

(١) الكتاب. ٤/ ٤٧٠.

تمد نفوذها إلى ما يسبقها ويتبعها من أصوات"[١]، بل إنه في حالة وجود "صوت ساكن مفخم في داخل مقطع، فإن كل المقطع يفخم، بل ربما يمتد نفوذ الصوت المفخم الى المقاطع المجاورة".[٢]

وقد لمح ذلك شيخنا سيبويه عندما ذهب إلى أن الصوت "المطبق أفشى في السمع"[٣]، وهو يقصد بذلك، فيما نرى، أن ملمح الإطباق في الصوت يمنحه صفة قوة ترشحه للتأثير في غيره من الأصوات والتغلب عليها، ويؤيد ذلك قوله، في أثناء حديثه عن الادغام بين الطاء والدال، بأن الدال "ليست كالطاء في السمع". [٤]

وإضافة إلى ذلك، فإن وقوع المماثلة المؤدية إلى الادغام في هذه الحالة، من شأنه أن يحقق بين الصوتين المتجاورين تجانساً سمّاه القدماء من اللغويين، وفي مقدمتهم سيبويه "بالاصعاد"، ويحول دون الانتقال من حالة "إصعاد" إلى حالة "تسفّل"، فضلاً عن أن الناطقين بهذه البنية وأمثالها "أرادوا"، على حد قول سيبويه، أن تقع ألسنتهم موقعاً واحداً".[٥]

---

(1) A.F.L Beeston , The Arabic Language To Day .P:19.
(2) Salman Al-Ani,Arabic Phonology .P:30.

(٣) الكتاب. ٤/ ٤٦٠.

(٤) السابق : ٤/ ٤٦٠.

(٥) السابق ٤/ ١٣٠ .

ويبدو أن مكي بن أبي طالب كان أكثر وضوحاً وصراحة عندما علَّل امكان وقوع ذلك بقوله إن "الطاء حرف قوي متمكن لجهره (حسب التصنيف القديم، ولشدته (انفجاره)، وإطباقه (تفخيمه) واستعلائه، والتاء حرف مهموس فيه ضعف، والقوي من الحروف إذا تقدمه الضعيف مجاوراً له جذبه الى نفسه إذا كان من مخرجه، ليعمل اللسان عملاً واحداً في القوة من جهة واحدة"(١)، ويقول هو نفسه أيضاً: "والطاء من أقوى الحروف، لأنه حرف مجهور شديد منطبق مستعل، وهذه الصفات كلها من علامات قوة الحرف مع انفرادها، فإذا اجتمعت في حرف كملت قوته"(٢). ويقول أيضاً: "وانما ينقل أبداً الأضعف إلى الأقوى، إذا تقاربت المخارج، ليقوى الكلام ... وإذا نقل الأقوى إلى الأضعف ضعف الكلام"(٣).

ب- د+ت ⟵ دَّ:

إذا اجتمعت الدال والتاء متجاورتين في داخل بنية واحدة، وكانت هذه البنية على صيغة "افتعل" أو مشتقاتها، فإن التاء تبدل دالا، ثم تجري بعد ذلك عملية الإدغام في الحرفين المثلين.

---

(١) مكي بن أبي طالب : الرعاية. ص:٢٠٦.

(٢) السابق. ص: ١٩٨.

(٣) السابق. ص:٢٠٧-٢٠٨.

ومن الأمثلة، التي قدمها سيبويه، في هذا الصدد، بناء الفعل "دان" على زنة "افْتَعل"، حيث يؤدي ذلك إلى اجتماع دال، وتاء على النحو الآتي: "ادتان".

وفي هذه الحالة تتأثر التاء المهموسة بالدال المجهورة تأثرا تقدميا، مما يؤدي إلى قلبها إلى مقابلها المجهور، وهو صوت الدال، وذلك من أجل تحقيق مماثلة صوتية بين الصوتين المتجاورين، فتصبح البنية هكذا: "ادْدان".

وبعد ذلك يقع الإدغام في الحرفين المثلين على النحو التالي:

ادْتان ⟵ ادْدان ⟵ إدَّان.

ʾid/daa/na ⟵ ʾid/taa/na

ولقد وقع تأثير الدال المجهورة في التاء المهموسة، في هذه الحالة، حتى يحدث تماثل صوتي بين الصوتين المتجاورين في ملمح الجهر، مما أدى إلى قلب التاء إلى مقابلها المجهور، وهو صوت الدال، ويعود السبب في ذلك إلى أن الناطقين "كرهوا أن يذهب جهر الدال" كما يذكر سيبويه(١). فضلاً عن كون الصوت " المهموس، كما يقرر سيبويه نفسه،

(١) الكتاب. ٤/ ٤٧١.

أخف من المجهور"، [١] أو أنه، على حدِّ قول مكي وابن الجرزي، حرف ضعيف بالقياس إلى الحرف المجهور. [٢]

ت- ت + ت ← تّ:

أما في حالة اجتماع تاءين في داخل البنية، التي ترد على صيغة "افتعل"، والتي تكون أولاهما فاء للفعل، والثانية تاء الافتعال، فإن الإدغام يقع بالضرورة بين الحرفين لتطابقهما، وسكون أَوَّلهما، ووقوعهما في كلمة واحدة. ومن أمثلة ذلك، اتْتَبَع ← اتَّبَعَ.

ᵓit/ta/ba/ᶜa ← ᵓit/ta/ba/ᶜa

(٢) في المجموعة الثانية:

أ. ص+ت ← [ص ط / صّ] [٣]

إذا اجتمعت الصاد والتاء، في داخل بنية واحدة، وكانت هذه البنية على صيغة "افتعل" أو مشتقاتها، فإنه لا يجوز في هذه الحالة إدغام

---

(١) الكتاب ٤/ ٤٥٠.

(٢) الرعاية. ص:١١٦. والنشر ١/ ٢٠٢ .

(٣) يشير وضع العناصر في داخل القوسين المركنين، إلى أن نتيجة الإبدال أو الإدغام، سوف تكون واحداً من العناصر البديلة الواردة في داخل القوسين.

الصاد في التاء، وذلك راجع إلى كون عناصر المجموعة الثانية، وهي: الصاد، والزاي، والسين، لا تقبل الإدغام في عناصر المجموعة الأولى، وهي: الطاء، والدال، والتاء.[1] ولذا لم يكن بد من إجراء إحدى هاتين العمليتين الصرفيتين والصوتيتين:

١. الإبدال:

ويتم ذلك بأن تتأثر التاء المرققة، بالطاء المطبقة تأثراً تقدمياً، مما يؤدي إلى قلبها إلى مقابلها المطبق، وهو صوت الطاء، فيتحقق بذلك نوع من التماثل الصوتي الجزئي بين الصوتين المتجاورين، ويتم ذلك على النحو التالي: اصْتَبَرَ ← اصْطَبر. ʾiṣtabar ← ʾiṣṭabar. وفي هذه الحالة يقول سيبويه:" ولم يجز إدخال الصاد فيها (يعني في التاء) لما ذكرنا من المنفصلين فأبدلوا مكانها أشبه الحروف بالصاد، وهي الطاء، ليستعملوا ألسنتهم في ضرب واحد من الحروف، وليكون عملهم من وجه واحد."[2]

(١) يُنظر، ص:٢٩٠، وما بعدها من هذه الدراسة.

(٢) الكتاب. ٤/ ٤٦٧. وكذلك: ٤/ ٢٣٩.

٢. الإدغام:

ويتم ذلك بأن تقلب الطاء، الناتجة عن تحول التاء طاء في الحالة السابقة، إلى صاد، ثم يجري بعد ذلك الإدغام في الحرفين (الصوتين) المثلين على النحو الآتي: : اصْطبر ←— اصْصَبر ←— اصَّبَر.

ʾiṣ/ṭa/ba/ra ←— ʾiṣ/ṣa/ba/ra

ويعود السبب في هذه العملية، إلى أن الصاد وأُختيها السين، والزاي، لا تقبل الإدغام في الطاء، وأختيها الدال والتاء. كما ذكرنا قبل قليل، فلم يبق أمام اتجاه الراغبين في الإدغام إلا قلب الطاء إلى صاد ثم اجراء الإدغام في المثلين، وذلك حرصاً على ملمح الصفير الذي يتسم به صوت الصاد. وفي هذا يقول سيبويه:" وأراد بعضهم الإدغام، حيث اجتمعت الصاد والطاء، فلما امتنعت الصاد أن تدخل في الطاء، قلبوا الطاء صاداً، فقالوا: مصَّبِر. وحدثنا هارون أن بعضهم قرأ: "فلا جناح عليهما أن يصَّلِحا بينهما صلحا."[١]

وإضافة إلى ذلك، فان صوت الصاد، الذي يماثل صوت الطاء المجاور له في ملمح التفخيم، يتسم، علاوة على التفخيم، بصفة قوة أخرى تتمثل في ملمح الصفير Sibilant Feature، كما أشرنا قبل قليل، والنداوة في السمع، كما نص سيبويه، ويعد هذا الملمح، كما ذكرنا

(١) الكتاب. ٤/ ٤٦٧، ويُنظر كذلك، تعليقات المحقق الواردة في هامش الصفحة نفسها.

غير مرَّة، صفة قوة في الصوت ترشحه للتأثير في غيره من الأصوات، والتغلب عليها، وتؤيد الدراسات الصوتية الحديثة ما ذهب اليه علماؤنا في هذا المجال، حيث تؤكد أن الأصوات الصفيرية تتميز بوجود ضجة ذات تردد مرتفع (تتجاوز٣٠٠٠هيرتس)."[1] وأن هذه الأصوات تمتاز من بقية الأصوات الاحتكاكية، مثل الفاء، والذال، والثاء بارتفاع شدتها."[2]، ومعنى هذا أن صوت الصاد يتمتع بصفتي قوة هما: التفخيم والصفير معاً، في حين يتمتع صوت الطاء بصفة قوة واحدة فقط هي التفخيم، فضلاً عن كون الصوت الصفيري أقوى من الصوت المفخم.

ب. ز + ت ← [زد/ زّ]:

إذا اجتمعت الزاي والتاء في داخل بنية واحدة، وكانت هذه البنية على صيغة "افتعل" أو مشتقاتها، فإنه لا يجوز في هذه الحالة إدغام الزاي في التاء للسبب الذي ذكرناه سابقاً، وهو أن عناصر المجموعة الثانية لا تدغم في عناصر المجموعة الأولى.

وفي هذه الحالة، فإن من الممكن إجراء إحدى هاتين العمليتين الصرفيتين والصوتيتين:

(1) Ladefoged ,P, Acurse in Phonetics P:264,281,257-258.
(2) Crystal,D,Afirst DictionaryOf Linguisticsand Phonetics P:212.

١. <u>الإبدال:</u>

ويتم ذلك بأن تتأثر التاء المهموسة بالزاي المجهورة تأثّراً تقدمياً، مما يؤدي إلى قلبها إلى مقابلها المجهور، وهو صوت الدال، فيتحقق بذلك نوع من التماثل الصوتي الجزئي بين الصوتين المتجاورين. ويتم ذلك على النحو الآتي: ازْتان ⟵ ازْدان. ʔiz/taa/na ⟵ ʔiz/daa/na. وفي هذا يقول سيبويه: "والزاي تبدل لها مكان التاء دالاً، وذلك قولهم: مُزْدان، في مُزْتان، لأنه ليس شيء أشبه بالزاي من موضعها من الدال، وهي مجهورة مثلها، وليست مطبقة، كما أنها ليست مطبقة"[1].

ويعود السبب في تأثير الزاي في التاء، في هذه الحالة وما كان على شاكلتها، إضافة إلى ما سبق، إلى أن صوت الزاي، ومثله صوتا الصاد والسين، يتسم، إضافة الى ملمح الجهر القوي، بملمح الصفير، والنداوة في السمع، كما ذكر سيبويه، وهو ملمح قوة في الصوت تمكنه من التأثير في غيره من الأصوات والتغلب عليها، وهذا يعني أن صوت الزاي يتمتع بصفتي قوة (الجهر والصفير) مكنتاه من التأثير في صوت التاء الضعيف بالهمس.

---

(١) الكتاب. ٤/ ٤٦٧-٤٦٨، وكذلك. ٤/ ٢٣٩.

٢. الإدغام:

ويتم ذلك بأن تقلب الدال، الناتجة عن تحول التاء دالاً في الحالة السابقة، إلى زاي، ثم يجري بعد ذلك الإدغام في الحرفين المثلين، على النحو الآتي:مُزدان ←مُزْزان ← مُزَّان.

muz/daan ← muz/zaan ويعود السبب في ذلك إلى أنّ الزاي لا تقبل الإدغام في الدال، كما ذكرنا سابقاً، فضلاً عن تمتع صوت الزاي بصفتي قوة متمثلتين، كما ذكرنا قبل قليل، بالجهر والصفير، أمام صوت الدال المتسم بملمح قوة واحد هو الجهر، مما أدى إلى تأثير الزاي مرة أخرى في الصوت التالي له، وهو الدال، وتحويله إلى صوت مماثل له ثم إجراء الإدغام في المثلين.

ت. س+ت ←سّ:

إذا اجتمعت السين والتاء في داخل بنية واحدة، وكانت هذه البنية على صيغة "افتعل" أو مشتقاتها، فإنه لا يجوز – في هذه الحالة- إدغام السين في التاء لما هو معلوم من امتناع إدغام عناصر المجموعة الثانية في عناصر المجموعة الأولى، فضلاً عن تميز صوت السين بالنسبة إلى صوت التاء المجاورة له بملمح قوة يتمثل في الصفير. ولهذا كان لا مفر من إدغام التاء بالسين، نظراً لقبول عناصر المجموعة الأولى، وهي:

الطاء، والدال، والتاء، الإدغام في عناصر المجموعة الثانية، وهي: الصاد، والسين، والزاي. ويتم ذلك على النحو الآتي: مُسْتَمع ⟵ مُسَّمع.

.mus/sa/mi^{c} ⟵ mus/ta/mi^{c}

وقد نص سيبويه على أن الذي سوغ إدغام التاء في السين في داخل البنية الواحدة، هو اشتراك هذين الصوتين في ملمح الهمس[١]. وتجدر الإشارة إلى أن الإدغام في هذه الحالة، قد وقع مغايراً للأصل في الإدغام، الذي يقتضي عند سيبويه، إدغام الأول في الآخر، وليس العكس. ويعود السبب في ذلك إلى ما ذكرناه آنفاً، وهو امتناع إدغام السين في التاء وأختيها.

(٣) في المجموعة الثالثة:

أ. ث + ت ⟵ [ثّ/ ث ت]:

إذا اجتمعت الثاء والتاء في داخل بنية واحدة، وكانت هذه البنية على صيغة "افتعل"، أو مشتقاتها، فإن بالإمكان إجراء إحدى العمليتين الصرفيتين والصوتيتين الآتيين:

---

(١) الكتاب. ٤/ ٤٦٨.

١. الإدغام:

وذلك بإدغام التاء في الثاء، نظراً لقبول عناصر المجموعة الأولى، وهي الطاء، والدال، والتاء، الإدغام في عناصر المجموعة الثالثة، وهي: الظاء، والثاء، والذال. ويتم ذلك على النحو التالي: مُثْترد ⟵ مُثَّرد.

muθ/θa/rid ⟵ muθ/ta/rid

ويعزو سيبويه السبب في جواز الإدغام، في هذه الحالة، إلى اشتراك الصوتين المدغمين في ملمح الهمس، فضلاً عن تقاربهما المخرجي(١)، وإضافة إلى ذلك ، فلعل اتّسام الثاء بملمح قوة يتمثل في التفشي، كما ذكر مكي بن أبي طالب، منحت هذا الصوت فضل قوة على التاء ، ومكنته من التأثير فيه.

وتجدر الإشارة هنا، أيضاً، إلى أن الإدغام، في هذه الحالة، قد وقع مغايراً للأصل في الإدغام عند سيبويه. ذلك أن الأصل فيه هو أن يدغم الأول في الآخِر وليس العكس. ولذلك فقد ذكر سيبويه أن "القياس" متَّرد"، لأن أصل الإدغام أن يدغم الأول في الآخِر"(٢).

---

(١) الكتاب. ٤/ ٤٦٧.

(٢) السابق. ٤/ ٤٦٧.

٢. البيان وعدم الإدغام:

وقد نص سيبويه على أن البيان حسن، وذكر أن بعضهم، يقول: مُثْتَرد، ثم علق على ذلك، بقوله: وهي عربية جيدة.

ب. ظ + ت ⟵ [ظ ط / طّ/ ظّ]:

إذا اجتمعت الظاء والتاء متجاورتين في داخل بنية واحدة، وكانت هذه البنية على صيغة "افتعل" أو مشتقاتها، فإن بالإمكان – في هذه الحالة – إجراء العمليات الصرفية والصوتية الآتية:

١. الإبدال:

ويتم ذلك بأن تتأثر التاء المهموسة المرققة بالظاء المجهورة المطبقة (المفخمة) تأثراً تقدمياً، مما يؤدي إلى قلبها إلى مقابلها المطبق، وهو صوت الطاء. فيتحقق بذلك نوع من التماثل الصوتي الجزئي بين الصوتين المتجاورين، ويتم ذلك على النحو الآتي: مُظْتلم ⟵ مُظْطلم.

muḏ̣/ṭa/lim ⟵ muḏ̣/ta/lim

وفي هذا يقول سيبويه:"... فأبدلوا مكانها (أي التاء) أشبه الحروف بالظاء، وهي الطاء، ليكون العمل من وجه واحد...وكان ذلك أخفَّ عليهم"[١].

---

(١) الكتاب. ٤/ ٤٦٨. وكذلك: ٤/ ٢٣٩

٢. الإدغام:

ويتم ذلك بإدغام الظاء في الطاء المنقلبة عن التاء، أي إدغام الأول في الآخر، وذلك جرياً على قاعدة الأصل في الإدغام عند سيبويه. ويستند وقوع الإدغام في هذه الحالة، إلى جواز إدغام عناصر المجموعة الثالثة، وهي: الظاء، والثاء، والدال، في عناصر المجموعة الأولى، وهي الطاء وأختيها. ويتم ذلك على النحو الآتي: مُظْطَلم ←—— مُطَّلم.

muṭ/ṭa/lim ←— mu ð̠̀/ṭa/lim

وقد يتم الإدغام أيضاً على نحو مغاير، وهو إدغام الطاء المهموسة المنقلبة عن التاء في الظاء المجهورة، أي إدغام الآخر في الأول، وذلك خلافاً لقاعدة الأصل في الإدغام عند سيبويه. ويستند وقوع الإدغام في هذه الحالة، إلى جواز إدغام عناصر المجموعة الأولى في عناصر المجموعة الثالثة فضلاً عن تميز صوت الظاء، بالنسبة إلى صوت الطاء المجاور له، بملمح قوة يتمثل في الجهر. ويتم ذلك على النحو الآتي:

مُظْطلم ←—— مظَّلم. muð̠̀/ṭa/lim ←—— muð̠̀/ ð̠̀a/lim

ويجدر أن نلاحظ، في هذا المجال، أن عملية الإدغام – في هذه الحالة – تفترض– بادئ بدء – توحيد الصوتين المتجاورين في ملمح الإطباق، وذلك من أجل التمهيد للقيام بتلك العملية بين الأصوات غير المتنافرة. ثم يجري الإدغام – بعد ذلك– في اتجاهين، يسير أحدهما مع

قاعدة الأصل في الإدغام، وهو ما يعتبره سيبويه الأقيس[1]، ويسير الآخر منهما على غير تلك القاعدة، وذلك على نحو ما ذكرنا قبل قليل .

ت. ذ + ت ←—— [دّ / ذّ]:

إذا اجتمعت الذال والتاء في داخل بنية واحدة، وكانت هذه البنية على صيغة "افتعل"، أو مشتقاتها، فإنه ليس بالإمكان – في هذه الحالة- البيان، وذلك لأن الذال تدغم في التاء إدغاماً متبادلاً من شأنه أن يجعل الإدغام في حالة ورودهما في كلمة واحدة أقوى ومن باب أولى.

غير أن الإدغام المباشر في مثل "اذتكر"، سوف يؤدي إلى فقدان الذال للمح الجهر فيها، وهذا يلحق بها – كما ينص سيبويه – الإجحاف[2]. ولذا فإن التاء تتحول إلى أقرب الحروف من موضعها إلى الذال، أو لنقل إنَّ التاء تتحول إلى المقابل المجهور لها، وهو صوت الدال، فتصبح "اذدكر" فيتحقق بذلك نوع من التماثل الصوتي الجزئي بين الأصوات المتجاورة، ولكن البيان وعدم الإدغام يمتنع هنا أيضاً، لأن "كل واحد منهما يدغم في صاحبه في الانفصال، فلم يجز في الحرف

(١) الكتاب. ٤/ ٤٦٩.

(٢) السابق. ٤/ ٤٦٩.

الواحد (يعني الكلمة) إلا الإدغام"[1]. وهذا الإدغام، الذي يراه سيبويه الوسيلة الوحيدة في هذه الحالة، يمكن أن يتم بإحدى هاتين الطريقتين الصرفيتين والصوتيتين:

١. أن تدغم الذال في الدال، وذلك جرياً على الأصل في الإدغام عند سيبويه، وهو إدغام الأول في الآخر، ويتم ذلك على النحو التالي:

اذْتكر ← اذْدكر ← ادَّكر

ᵓiδ/ta/ka/ra → ᵓiδ/da/ka/ra → ᵓid/da/ka/ra

وقد نص سيبويه على أنه سمعهم (أي الناطقين بالعربية) "يقولون "مدَّكر"[2]، فضلاً عن ورودها في القرآن الكريم في مواضع مختلفة من سورة القمر.[3]

٢. أن تدغم الدال في الذال، وذلك خلافاً للأصل في الإدغام، عند سيبويه، وهو إدغام الآخر في الأول، ويتم ذلك على النحو التالي:

اذْتَكر ← اذْدَكر ← اذَّكر.

ᵓiδ/ta/ka/ra → ᵓiδ/da/ka/ra → ᵓiδ/δa/ka/ra

---

(١) الكتاب. ٤/ ٤٧٠.

(٢) السابق. ٤/ ٤٦٩.

(٣) الآيات: ١٥،١٧،٢٢،٣٢،٤٠،٥١.

(٤) في المجموعة الرابعة:

ض+ت ⟵ [ض ط / ل ط/ طّ/ ضّ]

إذا اجتمعت الضاد والتاء في داخل بنية واحدة، وكانت هذه البنية على صيغة "افتعل" أو مشتقاتها. فإن بالإمكان إجراء إحدى هذه العمليات الصرفية والصوتية الآتية:

١. الإبدال:

ويتم ذلك بأن تتأثر التاء المرققة بالضاد المطبقة، تأثراً تقدمياً، مما يؤدي إلى قلبها إلى مقابلها المطبق، وهو صوت الطاء، فيتحقق بذلك نوع من التماثل الصوتي الجزئي بين الصوتين المتجاورين، ويتم ذلك على النحو الآتي : اضْتَجع ⟵ اضْطَجع.

ᵓiḍ/ṭa/ga/ᶜa ⟵ ᵓiḍ/ta/ga/ᶜa

وقد ذهب سيبويه – في موضع لاحق من كتابه[1]– إلى أن بعض العرب يستبدلون بالضاد في "اضطجع" لاماً، فيقولون: الطجع. وينص هذا العالم على أن الذي سوغ هذا النوع من الإبدال، هو "كراهية التقاء

(١) الكتاب. ٤/ ٤٨٣.

المطبقين" أي الضاد والطاء، مما دفع أولئك الناطقين إلى إبدال الضاد إلى "أقرب الحروف منها في المخرج والانحراف"[١]، ويقصد بذلك اللام.

٢. <u>الإدغام:</u>

يمكن أن يتم الإدغام بإحدى طريقتين:

أ. أن تدغم الضاد في الطاء المنقلبة، في الأصل، عن التاء، أي إدغام الأول في الآخر، وذلك جرياً على الأصل في الإدغام عند سيبويه، ويتم ذلك على النحو اللآتي: اضْتَجع ←اضْطَجع ←اطَّجع.

^{ɔ}iṭ/ṭa/ga/^{c}a ← ^{ɔ}iḍ/ṭa/ga/^{c}a ← ^{ɔ}iḍ/ta/ga/^{c}a

ومن المعلوم- كما مر معنا سابقاً- أن الضاد لا تدغم في شيء من مقارباتها، لأن ذلك يفضي إلى فقدها لملمح الاستطالة منها، مما يؤدي – بالتالي- إلى الإخلال بها لذهاب هذا الفضل الذي فيها، على حد قول ابن عصفور[٢].

بيد أن سيبويه يبرر إدغام الضاد في الطاء في هذه الحالة باشتراك هذين الحرفين في ملمح الإطباق، وتقاربهما في المخرج، فضلاً عن

---

(١) الكتاب. ٤/ ٤٨٣.

(٢) يُنظر، ص:٢٩٤. من هذه الدراسة.

وقوعهما في حالة اتصال في كلمة واحدة. ولكن ابن عصفور يذهب إلى أن مثل هذا الإدغام قليل جداً ولا ينبغي أن يقاس(١).

ب. أن تدغم الطاء، المنقلبة في الأصل عن التاء، في الضاد، أي إدغام الآخر في الأول، وذلك خلافاً لقاعدة الأصل في الإدغام عند سيبويه، ويتم ذلك على النحو الآتي: اضْتَجع ← اضْطجع ← اضَّجع.

ᵓiḍ/ḍa/ga/ᶜa ← ᵓiḍ/ṭa/ga/ᶜa ← ᵓiḍ/ta/ga/ᶜa

ويستند الإدغام في هذه الحالة إلى جواز إدغام عناصر المجموعة الأولى في الضاد.

ومن الجدير بالذكر، أن سيبويه قد عرض، في موضع سابق، من كتابه(٢)، لحالة اخرى من حالات الإبدال، وهي الحالة التي يكون فيها الفعل المراد بناؤه على صيغة "افتعل" فعلاً معتلاً مثالاً واوياً، أو يائياً، وذلك في مثل وعد، ويئس؛ ففي هذه الحالة، تقلب كل من الواو والياء إلى تاء، ثم يجري إدغامها في التاء التي بعدها، وهي تاء الافتعال. ويتم ذلك على النحو الآتي: اوْتَعد ← اتْتَعد ← اتَّعد.

ايْتَأس ← اتْتَأس ← اتَّأس.

ᵓit/ta/ᶜa/da ← ᵓiw/ta/ᶜa/da

ᵓit/ta/ᵓa/sa ← ᵓiy/ta/ᵓa/sa

---

(١) ابن عصفور: الممتع في التصريف. ٢/ ٦٩٠.

(٢) الكتاب. ٤/ ٢٣٩.

ويعود السبب في حدوث هذا التأثر الصوتي، الذي ترتب عليه حدوث مماثلة رجعية Regressive Assimilation، فيما نرى، إلى أن صوتي الواو والياء، وهما، في المثالين اللذين قدمهما سيبويه هنا، ووما كان على غرارهما، نصفا حركة Semi Vowels، يتسمان بالقصر، وقلة الوضوح السمعي، إذا ما قيسا بالحركات الصرفة[1]، كالواو والياء في كتبوا katabuu، وتكتبين taktubiin، وهما، لهذا السبب، يلحقان بالصوامت الاحتكاكية، وإن كان الاحتكاك فيهما قليلاً، أكثر مما يلحقان بالحركات، وإضافة إلى ذلك، فان نصفي الحركة، الواو والياء، يعدان "صامتين ضعيفين"[2]، بل إن برجشتراسر يعد "الواو والياء بين الحركات، أو الحروف الصائتة (أي الحركات) لابين الحروف الصامتة"[3]، وإضافة الى ذلك، فقد وقع صوتا الواو والياء في هذين المثالين "اوتعد" و "ايتأس"، وما كان على غرارهما، في نهاية مقطع

---

(١) د. كمال بشر: علم اللغة العام – الأصوات . ص: ١٣٢.

(٢) هنري فليش : فقه العربية ، ص: ٦٥، نقلاً عن كتاب : القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث، للدكتور عبد الصبور شاهين. ص:٤٣–٤٤.
وينظر أيضاً ،– هنري فليش : العربية الفصحى .ص:٣٩ .
-Beeston ,A.f.l . The Arabic Language To day .P:19.

(٣) التطور النحوي . ص:٤٦.

ساكنين، نظراً لاستثقال الحركات فيهما[1]، فازداد بالسكون ضعفهما، لأن من شأن الحركة، كما ذكر ابن جني، وغيره من اللغويين، أن تقوي الحرف وتحصنه[2].

ومن ناحية أخرى، فقد وقع هذان الصوتان المتسمان بهذه الملامح تحت تأثير صوت التاء الانفجاري، ومن المعلوم أن ملمح الانفجار يعد، بالقياس إلى ملمح الاحتكاك، صفة قوة في الصوت المتسم به، كما يقرر الرضي[3]. وعلى هذا فقد أثر هذا الصوت – أي صوت التاء الانفجاري الواقع في بداية مقطع متحركا – الذي يعده المازني، وشارح كتابه ابن جني حرفاً أجلد، أو حرفاً أقوى من الواو والياء[4] في كل منهما، وقلبهما إلى حرف من جنسه.

ثانياً– في صيغة فَعَلْتُ:

ذكر سيبويه أن بعض العرب، ممن ترضى عربيتهم، شبهوا تاء الضمير في صيغة "فعلت"، بالتاء الواردة في الصيغة السابقة، وهي صيغة

---

(١) ابن جني : المنصف ١/ ٢٢٣، ٢/ ٢٣٩. وشرح الشافية ٣/ ٩٥.

(٢) ابن جني : سر صناعة الإعراب ١/ ٥١.و شرح الشافية ٣/ ١٣٧.

(٣) شرح الشافية ٣/ ٢٧٥.

(٤)السابق ٣/ ٨٢.وكذلك: سيبويه:٤/ ٣٣٨،٣٣٤. والمنصف١/ ٢٢٣.

"افتعل"، وذلك "لأن شدة اتصال تاء الضمير بالفعل كاتصال تاء الافتعال بما قبلها"[1]. وقد ميز سيبويه –في هذا الصدد– بين مجموعتين من حروف طرف اللسان والثنايا:

<u>المجموعة الأولى:</u> وتشمل الأحرف المطبقة منها، وهي: الصاد، والضاد، والطاء، والظاء: يرى سيبويه، أنه في حالة وقوع التاء في صيغة "فعلت" مسبوقة بأحد هذه الأحرف المطبقة ساكنة، فإن بالإمكان قلب التاء طاء على النحو الآتي:

حِصْتُ > حِصْطُ .

خَبَطْتُ > خبطْطُ > خَبطُّ .

حفظْت > حفظْط > حفطٌّ .

ḥiṣ/ṭu ←—— ḥiṣ/tu

xa/baṭ/ṭu ←—— xa/baṭ/tu

ḥa/fiṭ/ṭu ←—— ḥa/fiḏ̣/ṭu ←—— ḥa/fiḏ̣/tu

ففي هذه الأمثلة، وقعت التاء المرققة، مسبوقة بأصوات الصاد، والطاء، والظاء المطبقة، الأمر الذي أدى إلى تأثر التاء بملمح الإطباق في تلك الأصوات تأثراً تقدمياً وقلبها –من ثَمَّ– إلى مقابلها المطبق، وهو صوت الطاء، وذلك من أجل إحداث نوع من المماثلة الصوتية بين الصوتين المتجاورين.

---

(١) الرضي: شرح الشافية. ٣/ ٢٨٧- ٢٨٨.

وقد اقتضت عملية التماثل الصوتي بين الأصوات المتجاورة، في هذه الحالة، إجراء نوعين من التحولات الصوتية، وهما:

١. الإبدال : ص/ ض+ت ←ص/ ض+ط.

تقتصر عملية التماثل الصوتي في مثل: حِصْتُ > حِصْطُ، ḥiṣ/tu ← ḥiṣ/ṭu على قلب التاء إلى مقابلها المطبق، وهو صوت الطاء، كما ذكرنا آنفاً، ولا تُسْتَتْبع هذه العملية بإدغام الصوتين المطبقين، نظراً لأن عناصر المجموعة الثانية، وهي: الصاد، والزاي، والسين، لا تقبل الإدغام في عناصر المجموعة الأولى، وهي الطاء، والدال، والتاء. وتجدر الإشارة، إلى أن سيبويه لم يمثل – في هذا المجال– لحالة سبق التاء في "فعلت" بصوت الضاد المطبق، في مثل : "مَرِضْتُ". وفي رأينا أن الضاد في هذه الحالة، يجب أن تعامل معاملة الصاد، حيث يقتصر تأثيرها في تاء "فَعَلْتُ" التالية لها على مجرد قلبها إلى طاء، دون أن يستتبع ذلك إدغام الضاد في الطاء، نظراً لأن الضاد لا تقبل –في الأعم الأغلب– الإدغام في عناصر المجموعة الأولى، وذلك خشية أن تفقد الضاد – في حالة الإدغام هذه– خاصة الاستطالة التي تتسم بها[١].

(١) يُنظر، ص:٢٩٨. من هذه الدراسة.

٢.الإبدال والإدغام معاً: ط/ ظ+ت ←ـــ طّ:

تؤدي عملية التماثل الصوتي، في مثل: خَبطْت > خبطٌّ، وحفظْتُ> حفطٌّ

ḥa/fiṭ/ṭu←— ḥa/fiḏ̣/tu: و ، xa/baṭ/ṭu←—xa/baṭ/tu

إلى قلب تاء "فعلت" إلى مقابلها المطبق، وهو صوت الطاء. غير أن ذلك يستتبع إيقاع الإدغام في الحرفين المثلين في: خَبَطْطُ>خبطٌّ، xa/baṭ/ṭu ، وإيقاعه أيضاً في الحرفين المتقاربين في حَفِظْطُ > حفطٌّ.

ḥa/fiṭ/ṭu←—ḥa/fiḏ̣/ṭu. وقد سوغ الإدغام، في الحالة الأخيرة، وهي حالة إدغام الظاء في الطاء، إمكان إدغام عناصر المجموعة الثالثة، وهي: الظاء، والثاء، والذال، في عناصر المجموعة الأولى.

وينص سيبويه -في نهاية حديثه عن هذه المجموعة- على أن البيان، وعدم قلب التاء طاء، أعرب وأجود. وذلك راجع إلى كون التاء في صيغة "فعلْتُ" علامة إضمار، وأنها ليست جزءاً أساسياً من بنية الفعل، إذ إنها مستعملة لأداء معنى، وليست لازمة للفعل في جميع حالاته، خلافاً للتاء في صيغة "افتعل"، التي تعد جزءاً أساسياً لا يفارق بنيتها في جميع أحوالها، فهي "لم تدخل على أنها لمعنى، ثم تخرج، لكنه بناء دخلته زيادة لا تفارقه، وليست كذلك تاء الاضمار لأنها بمنزلة

المنفصل"[1]. ولهذا فإن حالة التاء، في صيغة "فعلتُ، تقترب من حالة الإدغام في المنفصلين، وإن كان الإدغام وترك البيان في هذه الحالة، أقوى منه في حالة الانفصال"[2].

<u>المجموعة الثانية:</u> وتشمل بعض الأحرف الأخرى غير المطبقة من حروف طرف اللسان والثنايا، وهي: الدال، والثاء، والذال: ذكر سيبويه أنه في حالة وقوع التاء في صيغة "فعلْتُ" مسبوقة ببعض حروف طرف اللسان والثنايا غير المطبقة ساكنة، فإن بالإمكان وقوع الإدغام. ويمثل سيبويه لذلك بقول بعضهم: عدُّه، ونَقَدُّه في عُدْتُه، ونقدْتُه حيث أدغمت التاء في الدال في هذين المثالين على غير قاعدة الأصل في الإدغام.

ويرى سيبويه أن الإدغام في هذه الحالة حسن، وأنه أقوى منه في المنفصلين وإن كان بعضهم يظهر ويبين ولا يدغم في نحو: أخذت[3].

(١) ابن يعيش: شرح المفصل. ١٠/ ١٥١.

(٢) الكتاب. ٤/ ٤٧٢.

(٣) السابق. ٤/ ٤٧٢.

ثالثاً- في الصيغ التي ترد فيها التاء قبل حروف طرف اللسان والثنايا:

أ. <u>في صيغة استفعل:</u>

يختلف الوضع في هذه الصيغة والصيغ التالية، عن الوضع في الصيغتين السابقتين، حيث ترد التاء في هذه الحالة سابقة لحروف طرف اللسان والثنايا الأخرى.

ففي هذه الحالة يمتنع الإدغام؛ لأن الأصل فيه أن يكون أول الحرفين المدغمين ساكناً. ويقدِّم سيبويه على ذلك أمثلة، نحو: استطْعم، واستضْعف، واستدْرك، واستثْبت، ثم يعلل وجوب البيان، وعدم الإدغام على النحو الآتي:

إن الإدغام يمتنع في الحرفين المثلين، في نحو: ردَدْت، وردَدْن، بسبب وقوع لام الفعل – وهي الدال الأخيرة هنا- ساكنة، وعلى هذا فإن الإدغام، في الحرفين المتقاربين، وهما: التاء، والحرف التالي له من حروف طرف اللسان، والثنايا، يمتنع من باب أولى، بسبب وقوع الحرف التالي للتاء ساكناً، فضلاً عن كون الحرف السابق للتاء ساكناً بالضرورة، وذلك على نحو ما يظهر في اسْتَطَعم"، والأمثلة الأخرى التي قدمها سيبويه، حيث وقعت التاء في هذه الأمثلة متحركة بين ساكنين فلو جاز

الإدغام، لاستتبع ذلك اسكان أول الحرفين المتقاربين المرشحين للإدغام، وهو التاء، الأمر الذي سيؤدي بالضرورة إلى اجتماع ثلاثة صوامت متتالية ساكنة، أو ما يعرف بالعنقود الفونيمي Cluster، وهذا أمر ترفضه العربية ولا تستسيغه. ولذا، فقد وجب البيان وعدم والإدغام.

وكما يمتنع الإدغام، في هذه الحالة، فإنه يمتنع أيضاً، في مثل: اسْتَضاء، واسْتَدار، واسْتَطار؛ لأن الإدغام في هذه الحالة يقتضي اسكان أول المتقاربين المرشحين للإدغام، وهو التاء، وتحريك الحرف السابق له، وهو السين التي لا تقع – كما يذكر سيبويه– إلا ساكنة، ويكره تحريكها. وفضلاً عن ذلك، فإن الحرف التالي للتاء والذي يرد –في الأصل– ساكناً، قد تعرض للتحريك لعلة طارئة. ولذا فقد وجب البيان هنا وعدم الإدغام.

ب. <u>في صيغة افتعل:</u>

تشترك هذه الصيغة، مع صيغة "استفعل" السابقة، في إمكان وقوع حروف طرف اللسان والثنايا بعد التاء في مثل اخْتَصم، ويخْتَصِم وما كان على شاكلتهما. غير أن هذه الصيغة لا تشارك صيغة "استفعل" في امتناع وقوع الإدغام في حروف طرف اللسان والثنايا والتاء. والسبب في ذلك يعود إلى أن الحرف السابق للتاء، ليس كالسين التي يكره تحريكها في صيغة "استفعل"، كما أن الحرف التالي لها ليس ساكناً في أصله على

غرار الحرف التالي في صيغة "استفعل" أيضاً، وإنما وقعت التاء في هذه الصيغة، وهي صيغة "افتعل"، متحركة، ومتلوة بصامت متحرك أيضاً.

ومن الأمثلة، التي قدمها سيبويه، على ذلك، إمكان وقوع الإدغام في الحرفين المتقاربين في: يَخْتَصِمون > يَخِصِّمون

yax/ta/ṣi/muun ⟵ ya/xiṣ/ṣi/muun ، حيث يمكن إدغام التاء في الصاد، ثم يحرك الصامت الساكن الواقع قبل التاء بحركة الصامت التالي لها، وذلك من أجل إحداث نوع من المماثلة الصوتية بين الحركات المتجاورة، وذلك فيما يعرف في الدراسات الصوتية الحديثة بالتناغم الحركي Vowel harmony.

ت. <u>في صيغة فَعَل:</u>

إذا وقعت التاء – ومثلها الطاء أيضاً- قبل أحد حروف طرف اللسان، كالدال على سبيل المثال –في صيغة "فَعَل" في مثل: وَتَد، ووَطَد(١)، فإن الإدغام في هذه الحالة يمتنع في الحرفين المتقاربين لئلا يحدث التباس في البنى الصرفية. إذ إن الإدغام –في حالة حدوثه في مثل هذه الصيغة– من شأنه أن يقدم شكلاً صرفياً وصوتياً واحداً، هو: "وَدَّ" لمعنيين مختلفين تؤديهما البنيتان السابقتان، "وَتَدَ" و "وَطَدَ" في حالة البيان وعدم الإدغام.

---

(١) الكتاب. ٤/ ٤٧٤.

ث. صيغتا تفعّل وتفاعل:

تشترك هاتان الصيغتان مع الصيغ السابقة، في إمكان وقوع حروف طرف اللسان والثنايا بعد التاء. وفي هذه الحالة، فإن من الممكن أن تدغم التاء فيما بعدها من تلك الحروف نتيجة اتحاد المخرج، أو قربه، بين الحرفين المدغمين. ومن الأمثلة، التي قدمها سيبويه على ذلك:

يتطوَّع > يطَّوَّع. تطوَّع > اطَّوَّع. يتذكَّر> يذَّكَّر. تذكّر> اذَّكَّر. تزيَّن>ازَّيَّن. و: تثاقل > اثَّاقل ، تدارأ > ادَّارأ[1].

yaṭ/ṭaw/wa^{c} ← ya/ta/ṭaw/wa^{c}

^{ɔ}iṭ/ṭaw/wa^{c} ← ta/ṭaw/wa^{c}

yaδ̀/δ̀ak/kar ← ya/ta/δ̀ak/kar

^{ɔ}iδ̀/δ̀ak/kar ← ta/δ̀ak/kar

^{ɔ}iz/zay/yan ← ta/zay/yan

^{ɔ}iθ/θaa/qal ← ta/θaa/qal

^{ɔ}id/daa/ra^{ɔ} ← ta/daa/ra^{ɔ}

وينص سيبويه على أن إمكان وقوع الإدغام في هذه البنى وأمثالها قوي[2]؛ نظراً لأن الحرفين المرشحين للإدغام في هذه الحالة، وهما التاء، وأي من حروف طرف اللسان والثنايا، واقعان في كلمة واحدة من جهة،

---

(١) الكتاب. ٤/ ٤٧٤-٤٧٥.

(٢) السابق. ٤/ ٤٧٤.

ولأن من الممكن أن تدغم عناصر المجموعة الأولى - ومنها التاء- في عناصر المجموعات الأخرى من جهة أخرى.

وتجدر الإشارة إلى أن سابقة همزة الوصل، التي ترد في بداية صيغ الماضي والأمر، التي من هذا القبيل، ضرورية، نظراً للتسكين الطارئ على أول الحرفين المدغمين، حيث إن اللغة العربية ترفض البدء بصامتين أولهما ساكن، أو ما يسميه الدرس الصوتي الحديث بالعناقيد الفونيمية Clusters ويعود السبب في ذلك إلى أن الناطقين بالعربية، كما يقول سيبويه، "لا يستطيعون أن يبتدئوا بساكن"[١].

ويرى سيبويه، أنه في حالة ورود الأفعال، التي تأتي على صيغة "تفعَّل" مسبوقة بمورفيم التاء، الذي يرد للمضارعة، في نحو: تتنزل وتتجافى وتتمنون، وغيرها، فإن الإدغام يمتنع وقوعه في الحرفين المثلين[٢]. ومع ذلك فإن بالإمكان إجراء أحد هذين التشكلين للبنية:

أولهما: البيان، وذلك في نحو قوله تعالى: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾[٣]

وقوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾[٤]

---

(١) الكتاب. ٤/ ٤٧٥. وينظر كذلك: ابن جني: سر صناعة الإعراب١/ ١٢٧.

(٢) الكتاب. ٤/ ٤٧٥.

(٣) فصلت:٣٠.

(٤) السجدة:١٦.

وثانيهما: حذف التاء الثانية، التي تقبل الإدغام في أحد حروف طرف اللسان، والثنايا في هذه الصيغة – أي صيغة تفعل–، والاحتفاظ بالتاء الأولى، التي هي مورفيم المضارعة، لأهميتها من جهة، ولأنها غير قابلة للإدغام فيما بعدها من الحروف من جهة أخرى. ذلك أنها لو أدغمت فيما بعدها لأوجب ذلك تسكينها باعتبارها أول الحرفين المدغمين، ولاستدعى ذلك بالضرورة اجتلاب همزة الوصل كي يتوصل بها للنطق بالساكن في بداية الكلمة.

ولكن همزة الوصل "بابها –كما ذكر ابن يعيش– الأفعال الماضية"(١) ، أو أنها يُختص "بها ما كان في معنى فَعَل وافْعَلْ في الأمر" على حد قول سيبويه(٢) . ولو وقع الإدغام في الفعل المضارع لزال الاستقبال(٣).

---

(١) ابن يعيش :شرح المفصل١٠/ ١٥٢.

(٢) الكتاب. ٤/ ٤٧٦.

(٣) ابن يعيش: شرح المفصل. ١٠/ ١٥٢.

الفصل الثالث

ظواهر صوتية خاصة في المماثلة والتخفيف

١. مضارعة بعض الحروف الزاي.

٢. التحولات التي يمكن أن يتعرض لها حرف السين.

٣. استعمالات بنيوية خاصة للتخفيف.

ظواهر صوتية خاصة في المماثلة والتخفيف

قدم سيبويه – في نهاية باب الإدغام- جانباً لبعض الظواهر الصوتية الخاصة التي تعرض لبعض الكلمات بسبب المماثلة الصوتية، أو بهدف إحداث نوع من التخفيف في أثناء عملية النطق. وسنقدم –في الصفحات الآتية- عرضاً وتحليلاً لبعض الأمثلة التي قدمها سيبويه لهذه الظواهر:

(١) <u>مضارعة بعض الحروف للزاي:</u>

أ. <u>مضارعة الصاد للزاي:</u>

ذهب سيبويه، إلى أن وقوع الصاد ساكنة قبل الدال في الكلمة من شأنه أن يقلب الصاد إلى زاي مفخمة. ومن أمثلة ذلك، قولهم في: مَصْدر> مزدر. وفي أَصْدر> أژدر، وفي التَصْدير > التژدير.

، ᵓaẓ/dar←ᵓaṣ/dar ، maz/dar←maṣ/dar

ᵓat/taẓ/diir ← ᵓat/taṣ/diir

وقد حاول سيبويه أن يعلل حدوث هذه الظاهرة على النحو الآتي:

١. يعد ورود هذين الحرفين – أي الصاد والدال، وهما من حروف طرف اللسان – متجاورين تجاوراً مباشراً في كلمة واحدة،

وأولهما ساكن، يعد من الأمور التي تُغلِّب إمكان وقوع تفاعل صوتي ما بينهما.

٢. غير أنه ليس من الممكن أن يكون هذا التفاعل الصوتي من نوع الإدغام نظراً لأن أحرف المجموعة الثانية، وهي الصاد وأختاها، لا تدغم في أحرف المجموعة الأولى التي من بينها الدال.

٣. وقد وقع التغيير، في هذه الحالة، على الحرف الأول، وهو الصاد، دون الحرف التالي له، وهو الدال، في حين وقع التغيير – على سبيل المثال- في كلمة "اصتبر" وأمثالها، على الحرف الثاني، وهو التاء، وليس الحرف الأول، وهو الصاد، فأصبحت – كما هو معلوم – اصطبر. والسبب في ذلك راجع إلى أن التاء في "اصتبر" وأشباهها- وهي تاء الافتعال- ليست من أصل الكلمة، ولهذا فإنها تعد اكثر قابلة للتغيير من حرف "الدال"، الذي يعد في كلمة "مصدر" وأمثالها حرفاً أصلياً في بنية الكلمة.

٤. قلبت الصاد في هذه الحالة إلى حرف الزاي، الذي يشترك معها في ملمح المخرج، والذي يعد أكثر شبهاً في الدال بسبب كونهما مجهورين.

ولكنهم حاولوا ألا يفقدوا الصاد -في أثناء عملية القلب والتغيير- ملمح الإطباق الذي تتسم به، الأمر الذي أدى إلى قلبها إلى المقابل المفخم المجهور لها، وهو حرف الزاي المفخم.

وقد نص سيبويه على ذلك بقوله:" ولم يبدلوها زاياً خالصة كراهية الإجحاف بها للإطباق"(١). ومع ذلك فقد ذكر سيبويه أنه سمع بعض العرب الفصحاء يقبلون الصاد في مثل التصدير، والفَصْد وأصْدرت، زاياً خالصة فيقولون في الكلمات السابقة: التزدير، والفزد، وأزدرت على التوالي.

ومن الجدير بالذكر أن قلب الصاد، في هذه الحالة، إلى زاي يتوقف على كون الصاد المتلوة بالدال ساكنة، أما إذا تحركت فإنها -على حد قول سيبويه - "لم تبدل، لأنه قد وقع بينهما شيء فامتنع من الإبدال"(٢).

وتؤيد الدراسات الصوتية الحديثة ما ذهب إليه سيبويه، في هذا المجال، ذلك أن وقوع صوتين متجاورين أحدهما مهموس، والآخر

---

(١) الكتاب. ٤/ ٤٧٨.

(٢) السابق. ٤/ ٤٧٨. وكذلك، ابن جني: سر صناعة الإعراب. ١/ ٥١. ويُنظر كذلك. ص:٤٣. من هذه الدارسة.

مجهور، في داخل بنية واحدة من شأنه أن يحدث نوعاً من المشقة والعسر في الخروج والانتقال من جهر إلى همس، أو العكس في آن واحد.

لذا، فإن الناطق يعمد – على نحو غير شعوري- إلى تجهير المهموس – في الأعم الأغلب- كي يحدث بين الصوتين المتجاورين نوعاً من المماثلة في الصفة – وهي صفة الجهر هنا- مما يؤدي إلى تحقيق الانسجام والتناسب الصوتيين، ويزيل المشقة والعسر في أثناء النطق.

ففي كلمة "مَصْدر"، وما كان على غرارها، وقعت الصاد – وهي صوت مهموس- ساكنة قبل الدال، وهي صوت مجهور، مما ادى إلى تأثر الصاد بالدال تأثراً رجعياً حيث قلبت الصاد إلى مقابلها المجهور المطبق، وهو الزاي المطبقة، وذلك لإحداث مماثلة بين الصوتين المتحاورين في الصفة. وقد لمح سيبويه ذلك، على نحو ذكي، عندما حاول التعليل لهذه الظاهرة، فقال: "وإنما دعاهم إلى أن يقربوها ويبدلوها. أن يكون عملهم من وجه واحد، وليستعملوا ألسنتهم في ضرب واحد"(١).

ومن ناحية أخرى، فإن بوسعنا عدَّ الأمثلة التي قدمها سيبويه في هذا المجال، وهي: مصدر، وأصدر، وتصدير، وما كان على شاكلتها –

---

(١) الكتاب. ٤/ ٤٧٨. ويُنظر كذلك:

ابن جني: سر صناعة الإعراب. ١/ ٥١٧.

من قبيل ما يطلق عليه الدرس الصوتي الحديث مصطلح المماثلة المتبادلة Reciprocal / Coalescent Assimilation، وهي مماثلة يتم بموجبها تأثر كل من الصوتين السابق واللاحق بالآخر.

ففي كلمة "مصدر"، وما كان على شاكلتها حصل تماثل متبادل، فقد أثر صوت الصاد المفخم المهموس – على الرغم من وقوعه ساكناً في نهاية المقطع الأول للكلمة – تأثيراً تقدمياً Progressive في صوت الدال المرقق المجهور المجاور له، مما أدى إلى طروء نوع من التفخيم عليه، وتحويله، أو، لنقل، إلى إشمامه صوت مقابله المفخم المجهور، وهو صوت الضاد. بيد أن الصوت الجديد الذي انقلب إليه صوت الدال، وهو، كما ذكرنا، صوت مفخم مجهور، أثر بدوره تأثيراً رجعياً Regressive في صوت الصاد المفخم المهموس، كما ذكرنا، بسبب وقوعه ساكناً في نهاية مقطع، مما أدى إلى قلبه إلى مقابله المفخم المجهور، ونعني به صوت الزاي المفخم، فأصبح ينطق على النحو الآتي: مزضر mazḍar.

وتجدر الإشارة إلى أن صوت الصاد قد حافظ، في أثناء تأثره بالصوت المفخم المجهور المجاور له، على ملمح الصفير المتسم به، فضلاً عن ملمحه المفخم، وذلك على الرغم من ضعفه بالسكون. ويعود السبب في ذلك إلى أن "الصوت الصفيري أكثر قوة من الصوت

المطبق"[1]، من ناحية، وإلى كونه متسماً، إضافة إلى ملمح الصفير القوي، بملمح الاطباق من ناحية أخرى. ومعنى هذا أن صوت الصاد قد اعتمد، في أثناء عملية تأثيره في الصوت المجاور له، على ملمحي الصفير والاطباق، في حين حصنه هذان الملمحان من ضعف همسه وسكونه، فبقي، في أثناء عملية تأثره بالصوت المجاور له، مفخماً وصفيرياً، وإن كان قد تعرض، في إثناء تلك العملية، إلى استبدال ملمح الجهر بملمح الهمس، بتأثير جهر الصوت المجاور.

ب. مضارعة الشين والجيم للزاي:

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فقد عدّ سيبويه حرفي الشين والجيم مضارعين للزاي، في بعض الاستعمالات، وإن لم يكونا منتميين إلى مخرجها. والسبب في ذلك عائد إلى خاصة الاستطالة، التي تصل صوت الشين بمخرج الطاء، وتجعلها مخالطة لأعلى الثنيتين[2]، كما أن الجيم تحمل – في هذا المجال– على الشين بسبب اتحادهما في المخرج .

ومثلما قلبت الصاد المهموسة، بتأثير الدال المجهورة، في كلمة "مصدر" ونحوها، إلى مقابلها المجهور المفخم المشترك معها في المخرج،

---

(١) عبد الصبور شاهين: أثر القراءات في الأصوات والنحو العربي. ص:٢١٨.

(٢) الكتاب. ٤/ ٤٥٧، ٤٧٩.

وهو صوت الزاي المفخم، كذلك، فإن كلاً من الشين والجيم يُقلب إلى حرف مضارع للزاي، ولكنه يختلف عنه بعض الاختلاف، وقد نص سيبويه على ذلك عندما قال: "ولا يجوز أن يجعلها زاياً خالصة، ولا الشينَ، لأنهما ليسا من مخرجها"[1].

(٢) التحولات التي يمكن أن يتعرض لها حرف السين:

يتعرض حرف السين -كما ذكر سيبويه- إلى التحولات الآتية:

أ. س > ص:

تتحول السين، عندما ترد سابقة حرف القاف، أو الخاء، أو الغين، إلى صاد، حتى في بعض الحالات، التي يكون التجاور بين السين وأيٍّ من هذه الأحرف الثلاثة غير مباشر؛ ومن الأمثلة على ذلك، قولهم في: سُقْت وسبقت وسالغ وسلخ، صقت وصبقت وصالغ وصلخ على التوالي.

ففي هذه الأمثلة وقعت السين، وهي أحد أحرف الفم، أو لنقل أحد أحرف طرف اللسان، متلوة بأحد الحروف المستعلية الخلفية الثلاثة، وهي: القاف، والخاء والغين، مما أدى إلى تأثرها بهذه الأصوات المستعلية تأثراً رجعياً، وقلبها إلى مقابلها المطبق وهو صوت الصاد، الذي يشترك

---

(١) الكتاب. ٤/ ٤٧٩.

معه في ملامح الرخاوة، والهمس، والصفير، وذلك من أجل إحداث نوع من المماثلة الصوتية بين الأصوات المتجاورة، أو –على حد قول سيبويه- "ليكون العمل من وجه واحد"(١).

وقد ذهب سيبويه – في موضع سابق من كتابه- إلى أن تحول السين السابقة للقاف إلى صاد، وبقاء السين تالية لها على حالها، يعود – حسب رأيه- إلى سهولة الانتقال من حال الاستعلاء إلى وضع الاستفال، أو ما يسمى بعملية الانحدار، وذلك على خلاف عملية الانتقال من الاستفال إلى الاستعلاء، أو ما يُسمى بعملية الاصعاد، وهو أمر صعب كما ذكر هذا العالم. وفي هذا يقول:" فإذا كان حرف من هذه الحروف قبل الألف بحرف وكان مكسوراً، فإنه لا يمنع الألف من الإمالة، وليس بمنزلة ما يكون بعد الألف، لأنهم يضعون ألسنتهم في موضع المستعلية، ثم يصوِّبون ألسنتهم، فالانحدار أخف عليهم من الإصعاد. ألا تراهم قالوا: صَبقْتُ، وصُقْتُ، وصُوَيق، لمـّا كان يثقل عليهم أن يكونوا في حال تسفُّل ثم يصعِّدون ألسنتهم، أرادوا ان يكونوا في حال استعلاء، وألا يعملوا في الإصعاد بعد التسفل، فأرادوا أن تقع ألسنتهم موقعاً واحداً".(٢)

---

(١) الكتاب. ٤/ ٤٨٠.

(٢) السابق. ٤/ ١٣٠.

وبالمثل فإن صوت السين يتحول إلى صاد أيضاً، وذلك في حالة وقوعه مع الطاء في بنية واحدة، كقولهم في ساطع، صاطع. ويعود السبب في ذلك إلى أن صوت الطاء يتصف بملمح الاطباق، فضلاً عن قرب مخرجه من مخرج السين حسب التصنيف القديم، الأمر الذي يسوغ تحويل السين إلى صاد لتحقيق مماثلة صوتية بين الأصوات المتجاورة.

ويعد سيبويه قلب السين إلى صاد، في هذه الحالة، أولى من قلبها إلى صاد، في حالة اجتماعها مع القاف[1].

وقد نص ابن يعيش على أن وقوع السين قبل أصوات الطاء، والقاف، والخاء، والغين من شأنه أن يقلب السين صاداً، وذلك "من قبل أن هذه الحروف (في رأيه) مجهورة مستعلية، والسين مهموس مستفل، فكرهوا الخروج منه إلى المستعلي لأن ذلك مما يثقل فأبدلوا من السين صاداً، لأن الصاد توافق السين في الهمس، والصفير، وتوافق هذه الحروف في الاستعلاء فيتجانس الصوت ولا يختلف"[2].

---

(١) الكتاب. ٤/ ٤٨٠.

(٢) ابن يعيش: شرح المفصل. ١٠/ ٥١-٥٢. وكذلك:

ابن جني: الخصائص. ٢/ ١٤٢-١٤٣.

ب. س > ز:

تتحول السين، عندما ترد سابقة حرف الدال - وهما في هذه الحالة حرفان أصليان يقعان معاً في كلمة واحدة - إلى زاي، وذلك في مثل: يسْدُل > يَزْدل ، والتسْدير > التزدير[١].

ᵓat/taz/diir ←— ᵓat/tas/diir، yaz/dul ←— yas/dul

ويعود ذلك إلى ظاهرة المماثلة الصوتية، التي تقتضي - في هذه الحالة - تأثر صوت السين المهموس بصوت الدال المجهور تأثراً رجعياً، مما يؤدي إلى تجهير السين وقلبه إلى المقابل المجهور له، وهو صوت الزاي، الذي يشترك مع السين في المخرج، والصفير، ويشترك مع الدال في الجهر، مما يؤدي إلى تجانس الصوتين، كما نص ابن يعيش[٢].

ويذكر سيبويه - عقب ذلك - أن البيان، وعدم القلب والإبدال، في هذه الحالة وأمثالها، أحسن. ثم ينص أيضاً على أن البيان، في حالتي تحويل السين والصاد إلى زاي - مطبقة وغير مطبقة - أولى، وإن كان القلب وتحويل السين إلى زاي أقل منه في حالة الصاد[٣].

---

(١) الكتاب. ٤/ ٤٧٨.

(٢) ابن يعيش: شرح المفصل. ١٠/ ٥٢.

(٣) الكتاب. ٤/ ٤٧٩.

(٣) استعمالات بنيوية خاصة للتخفيف:

ناقش سيبويه – في نهاية مطافه في باب إدغام- بعض الحالات الخاصة، التي تستعمل فيها بعض الكلمات مخففة، وقد تمثلت هذه الحالات في البنى الآتية:

أ. سِدْسٌ:

من الممكن أن تتحول بنية هذه الكلمة إلى "ستٌّ". ويعلل سيبويه – ومعه لغويون آخرون – هذا التحول على النحو الآتي(١):

١- تتقارب أحرف هذه الكلمة، التي يكثر استعمالها، مخرجياً. كما أن الحاجز الصوتي الواقع بين الحرفين المثلين- وهما حرفا السين- ليس قوياً لسكونه.

٢- يمتنع إدغام السين في الدال، نظراً لأن أحرف المجموعة الثانية وهي السين وأختاها، لا تدغم في أحرف المجموعة الأولى ومن بينها الدال.

٣- يؤدي إدغام الدال في السين – وهو أمر ممكن- إلى تواجد ثلاث سينات في بنية كلمة واحدة، "فكرهوا ذلك لأنهم إذ كرهوا السينين بينهما دال، كانوا لاجتماع ثلاث سينات ليس بينهما حاجز

---

(١) الكتاب. ٤/ ٤٨١-٤٨٢.

أكره"[1].

٤- لذا يبدل بحرف السين الأخير، في البنية، أكثر الحروف شبهاً به من مخرج الدال، وذلك الحرف هو التاء، الذي يشترك مع السين في ملمح الهمس، فتصبح الكلمة هكذا "سِدْتٌ"، "sid/tun"، ولما كان الادغام بين عناصر المجموعة الأولى امراً ممكناً، فإن الدال، التي وقعت قبل التاء ساكنة، تدغم في التاء لثقل إظهارها، كما ذكر ابن يعيش[2]. فتصبح بنية الكلمة -في صورتها الأخيرة - على النحو الآتي"ستّ". "sit/tun".

ب. ييجل:

اقتضى تحويل الواو، في الكلمة"يوْجل" "yuw/gil" إلى ياء، اجتلاب الكسرة الواردة في كلمة"يِيْجَل"، "yiy/gal"، وهذا هو ما حدث في كلمة"أَدْلُو" "ᵓad/luw" التي اقتضى تحويل الواو فيها إلى ياء، اجتلاب الكسرة للام، فأصبحت "أدْلٍ" "ᵓad/lin" وذلك على غرار اقتضاء الإدغام في كلمة "سدس" تحويل السين الأخيرة إلى تاء.

---

(١) ابن يعيش: شرح المفصل. ١٠/ ١٥٣.

(٢) السابق. ١٠/ ١٥٣.

ت. وَتِد وَعِتْدان:

من الممكن – في هاتين البنيتين وأمثالها- إدغام التاء في الدال، نظراً لأن هذين الحرفين من عناصر المجموعة الأولى، التي يجوز وقوع الإدغام فيها بينها. فتصبحان على النحو الآتي: "ودٌّ" و"عِدّان"، wad/dun وᶜid/daan، غير أن وقوع الإدغام، في هذه الحالة، من شأنه أن يؤدي إلى حدوث لَبْس في البنى الصرفية. ومع ذلك، فإن التميميين يجرون الإدغام، في حين يؤثر الحجازيون البيان، وعدم الإدغام.[1]

ث. أحسَسْت، ومسسْت، وظللْت:

تتحول هذه البنى – شذوذاً كما يقول سيبويه[2]- إلى: أَحَسْتُ وَمَسْتُ وظَلْتُ ᵓa/ḥas/tu، mas/tu، ḏ̣al/tu على التوالي. وتعليل ذلك أن العرب، أو لنقل بعضهم، كرهوا التضعيف في هذه الكلمات، وأمثالها، لكثرة ترددها في كلامهم، كما أنهم كرهوا الإدغام أيضاً، لما يحدثه ذلك من خروج على القاعدة، التي تقضي بتسكين الحرف السابق لضمير الرفع في الماضي، فلجأوا –من ثمة- إلى حذف ثاني الحرفين المثلين

---

(١) ابن يعيش: شرح المفصل. ١٠/ ١٥٣. وكذلك: ابن عصفور: الممتع في التصريف. ٢/ ٧١٦.

(٢) الكتاب. ٤/ ٤٨٢.

تخفيفاً لَمَّا تعذر التخفيف بالإدغام فأصبحت هذه البنى : أحسْتُ، ومسْتُ، وظَلْتُ ðal/tu، mas/tu، ᵓa/ḥas/tu على التوالي.(١)

ج. يستطيع:

(١) من الممكن أن تتحول هذه البنية إلى"يسطيع" yas/ṭiiᶜ.

وذلك عائد إلى كثرة تردد هذه الكلمة، واستعمالها في الألسن، وإلى أن إدغام التاء في الطاء – وهو أمر ممكن نظراً لكونهما من عناصر المجموعة الأولى القابلة لوقوع الإدغام فيما بينهما – يفْرِضُ تحرك السين، بسبب نقل حركة التاء إليها، وهي لا تحرك في هذه الصيغة أبداً، إذ لاحظَّ لها في الحركة كما يذكر الرضي(٢)، مما جعلهم يلجأون إلى حذف التاء، عند قصد التخفيف، لاستثقال اجتماع التاء، والطاء مبينتين في الكلمة الواحدة.

وفي رأينا أن السبب الذي أدى إلى حذف التاء، في هذه الحالة، بقصد التخفيف، يعود إلى أن هذه الكلمة قد اشتملت على ثلاثة أحرف متجاورة المخرج، وهي: السين، والتاء، والطاء، الأمر الذي أدى إلى استثقال النطق بهذه البنية على هذا النحو.

(٢) ومن الممكن أن تتحول هذه البنية نفسها إلى "يستيع"

---

(١) ابن عصفور: الممتع في التصريف. ٢/ ٦٦١. ويُنظر تفصيل ذلك في ص:٢١٩-٢٢٠. من هذه الدراسة.

(٢) الرضي: شرح الشافية. ٣/ ٢٩٢.

yas/tii^{c} بحذف الطاء، وذلك على غرار حذف لام "ظلت"، أو أن الطاء التالية للسين – وهي حرف مجهور في تصنيف القدماء– في كلمة يسطيع السابقة قد قلبت إلى تاء بتأثير السين المهموسة عليها تأثيراً تقدمياً، وذلك لإحداث تماثل صوتي بين الحرفين المتجاورين في ملمح الهمس. وفي هذا يقول سيبويه: "وقال بعضهم في يستطيع يستيع...، أبدلوا التاء مكان الطاء ليكون ما بعد السين مهموساً مثلها"(١).

ح. اتَّقيت، ويتَّقي، ويتَّسع:

يمكن أن تخفف هذه البنى شذوذاً، على رأي سيبويه(٢)، فتصبح: تَقَيْت، وَيَتقي، ويَتَسِع taqayt ، yataqii، yatasi^{c} على التوالي. ويتم ذلك – كما هو واضح – بحذف التاء الأولى من هذه الكلمات. ويعود السبب، في إمكان هذا الحذف، إلى كثرة استعمال هذه الكلمات، الأمر الذي يدفع بعض الناطقين إلى التخفيف بوساطة الحذف.

خ. اتّخذَ:

من الممكن أن تتحول هذه البنية إلى "استخذ"(٣)، ويذكر سيبويه ان التاء الأولى، في هذه الكلمة، قد أُبدلت سيناً لكثرة الاستعمال،

---

(١) الكتاب. ٤/ ٤٨٤.

(٢) السابق. ٤/ ٤٨٣. وكذلك: الرضي: شرح الشافية. ٣/ ٢٩٣.

(٣)الكتاب.٤/ ٤٨٣–٤٨٤،وكذلك،الرضي:شرح الشافية.٣/ ٢٩٤.على التوالي.

وكراهية التضعيف، فضلاً عن كون السين أقرب الحروف إلى التاء من حيث ملمحا المخرج والهمس. ولعل ما حدث في هذه الكلمة، في هذه الحالة، يعود إلى ما يسمى بالمخالفة الصوتية Dissimilation.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فقد تكون هذه الكلمة على وزن "استفعل" أي"استَتْخَذ" ᵓis/tat/xa/ꝺa ثم حذفت منها التاء للتخفيف وكراهية التضعيف، مما أدى إلى تكوين بنيتها الجديدة "استخذ". ᵓis/ta/xa/ꝺa.

د. اضطجع:

ذكر سيبويه أن بالإمكان تحول هذه البنية إلى "الطجع"[١] بقصد التخفيف في النطق. وقد سوغ ذلك – من وجهة نظر هذه العالم– كراهية بعض العرب للجمع بين حرفين مطبقين، الأمر الذي أدَّى إلى قلب الضاد إلى أقرب الحروف منها في ملمحي المخرج والانحراف[٢]، ونعني به اللام. وقد استشهد اللغويون على ذلك بقول الراجز:

لما رأى أن لا دعه ولا شِبَعْ

مالَ إلى أرطاة حِقْفٍ فالطجعْ

---

(١) الكتاب. ٤/ ٤٨٣.

(٢) تؤدي خاصة الاستطالة في الضاد إلى اتصالها بمخرج اللام، يُنظر: الكتاب. ٤/ ٤٥٧.

وعقبوا على قوله "فالطجع" بأنه شاذ[1].

وتجدر الإشارة إلى أن التشكل البنيوي الجديد "الطجع" ʾil/ṭa/ga/ʿa المنقلب عن البنية الأصلية "اضطجع" ʾiḍ/ṭa/ga/ʿa يعدّ أيضاً من قبيل المخالفة الصوتية التي مر ذكرها قبل قليل؛ فقد اجتمع في هذه البنية صوتا الضاد والطاء، وهما صوتان يجمع بينهما ملمح التفخيم القوي، فضلاً عن وقوع أولهما، وهو صوت الضاد، ساكناً في نهاية مقطع، مما أدى إلى إضعافه بالسكون. ولقد حصل بين هذين الصوتين المتماثلين، في هذا الملمح القوي، تخالف صوتي تمثل باستبدال صوت اللام بصوت الضاد على النحو الآتي: "الطجع"، ʾil/ṭa/ga/ʿa ويتسم صوت اللام، ومعه أصوات الراء والنون والميم، بالملمح المائع أو الرنان Liquid/Resonant Feature، الذي يتسم بالوضوح السمعي Sonority، ومن المعلوم أن الأصوات المائعة، ومعها الحركات الطويلة Long Vowels، هي الأصوات التي يمكن أن يحل أحدها محل أحد الصوتين المتماثلين اللذين يجد الناطق مشقة في تحقيقهما، الأمر الذي من أجله يعمد الناطق إلى إحداث المخالفة الصوتية بينهما[2].

---

(١) ابن يعيش: شرح المفصل. هامش ١٠/ ٤٦. وكذلك:الرضي: شرح الشافية. ٣/ ٢٢٦، ٢٩٤، ٤/ ٢٧٤-٢٧٥، وكذلك:اللسان. مادة (ضجع)

(٢) ينظر ص:٢٢٠-٢٢١ من هذه الدراسة.

ذ. بني العنبر وبني الحارث وأمثالهما:

من الممكن أن تتحول هذه البنى، التي تظهر فيها لام المعرفة، – في رأي سيبويه– إلى: بلعنبر، وبلحارثbal/^{c}an/bar، bal/ḥaa/riθ، فقد أسقطت في هذه التراكيب – التي يكثر استعمالها– وما كان على غرارها – الياء الفاصلة بين نون "بني" ولام المعرفة ، لالتقاء الساكنين، ثم حذفت النون لقرب مخرجها من اللام، وقد لجأ الناطقون، أو لنقل بعضهم– إلى النطق بهذه البنى على هذا النحو، لإحداث تخفيف في النطق بها عن طريق الحذف، حين تعذر عليهم ذلك بوساطة الإدغام، لئلا يؤدي ذلك إلى التقاء ساكنين، فضلاً عن كون هذه البنى تتألف من كلمتين منفصلتين[١].

أما في حالة عدم ظهور لام المعرفة في بعض البنى، من مثل: بني النجار، وبني النمر، وبني التيم، وغيرها، فلا تحذف النون؛ لئلا يؤدي ذلك إلى إجراء عمليتي الإدغام والحذف معاً.

وقد ألحق سيبويه، بهذه الحالة، قول بعض العرب في "على الماء بنو فلان" ^{c}al/maa/^{ɔ}i/ba/nuu/fu/laan. فقد اسقطت في هذا التركيب – وما كان على شاكلته – همزة الوصل من الكلام بسبب

(١) الكتاب. ٤/ ٤٨٤.

الدَّرْج، كما نصَّ ابن يعيش[1]، مما أدى إلى اجتماع مثلين هما لام على، ولام المعرفة، فحذفت اللام الأولى، لكراهية التضعيف، ولإحداث نوع من التخفيف في النطق.

---

(١) ابن يعيش: شرح المفصل. ١٠/ ١٥٥.

ملحوظـــات:

اعتمد سيبويه، في الحالات التي ذكرها للإدغام في حروف طرف اللسان والثنايا، على كثير من المبادئ، التي استند إليها في الباب السابق.

ومن أمثلة تلك المبادئ، المحافظة على الملمح المميز للصوت، وكثرة استعمال العنصر الصوتي، أو الصيغة المعينة، وغيرها. ومع ذلك، فقد استند هذا العالم – في مناقشته لحالات وقوع الإدغام أو عدمه في هذا الباب– إلى مبادئ أخرى، من أهمها:

(١) كثرة وقوع الإدغام في حروف هذا الباب:

نص سيبويه، في مواضع كثيرة، على أن وقوع الإدغام في حروف طرف اللسان والثنايا أقوى منه في غيرها من الحروف الأخرى.

(٢) سلوك عناصر المجموعة الأولى:

تقبل عناصر المجموعة الأولى من حروف طرف اللسان والثنايا، وهي: الطاء، والدال، والتاء، الإدغام في أية عناصر تابعة لأي مجموعة أخرى تالية لها. أما العكس، ونعني به إدغام عناصر المجموعات الأخرى في عناصر المجموعة الأولى، فلا يتحقق إلا في حالة المجموعة الثالثة التي تشمل أحرف" الظاء، والثاء، والذال. ولعل السبب في ذلك يعود إلى أن عناصر هذه المجموعة، تنتمي إلى مخرج متوسط في الفم

بالقياس إلى عناصر المجموعات الأخرى التي تحيط بها من الجانبين الأمامي والخلفي.

(٣) وجود صفة مميزة للمجموعة:

يؤدي اتِّسام مجموعة صوتية معينة بصفة مميزة لها إلى امتناع إدغام عناصر هذه المجموعة في عناصر غيرها من المجموعات الأخرى. ومن الأمثلة على ذلك امتناع إدغام عناصر المجموعة الثانية، وهي: الصاد، والسين، والزاي، في أية عناصر تابعة لأي مجموعة، من المجموعات الأخرى. والسبب في ذلك يعود إلى المحافظة على الملمح الصفيري الذي تتصف به هذه المجموعة، والذي يتعرض للضياع في حالة إدغامها في غيرها من العناصر الأخرى.

وبالمثل، فإن عناصر المجموعتين الرابعة، والخامسة، وهي الضاد والشين لا تقبل الإدغام في عناصر المجموعات الأخرى، وذلك من أجل المحافظ على خصائص هذين الصوتين، المتمثلة في الاستطالة والتفشي، التي من شأنها أن تتعرض للضياع في حالة وقوع الإدغام بينها وبين عناصر المجموعات الأخرى.

(٤) الإدغام في حالة الاتصال:

يعد الإدغام في حالة اتصال عنصرين أقوى منه في حالة كون هذين العنصرين منفصلين، والأمثلة على ذلك كثيرة، وفي هذا يقول

سيبويه:" وإذا كانت هذه الحروف المتقاربة في حرف واحد، ولم يكن الحرفان منفصلين ازدادا ثقلاً واعتلالاً، كما كان المثلان إذ لم يكونا منفصلين أثقل؛ لأن الحرف لا يفارقه ما يستثقلون"[١].

(٥) تؤدي كثافة حروف طرف اللسان والثنايا، وتقاربها جميعاً في المخارج – على نحو عام – إلى تشجيع حدوث تخفيف النطق بها حال اجتماعها معاً في داخل البنية . ويتم ذلك – أحياناً– بخروج الإدغام عن أصله، الذي يقضي بإدغام الأول في الآخر. ومن الأمثلة على ذلك قولهم في: "مثترد"، "مثَّرد"، muθ/θa/rid← muθ/ta/rid، وقولهم في: "مستمع" "مسَّمع" mus/sa/mi^c←mus/ta/mi^c حيث أدغم – في هاتين الكلمتين– الآخِر في الأول على غير قاعدة الأصل في الإدغام.

ويمكن أن يتحقق التخفيف في هذه الحروف بوسائل أخرى غير الإدغام، كحذف أحد الحرفين المثلين أو المتقاربين.

(٦) تقبل عناصر كل مجموعة، غير أحادية المكونات، وقوع الإدغام بينها على نحو متبادل.

---

(١) الكتاب. ٤/ ٤٦٧.

خاتمـــــــــة

وبعد، فقد حاولنا، في هذه الدراسة، التي وصلنا إلى شطآنها، إلقاء الضوء على الغرس الصوتي البكر، الذي أودعه شيخ العربية سيبويه بتألق وتفوق، في أحشاء التربة اللغوية في وقت جدِّ مبكِّر من عمر الحضارة الإنسانية ومسيرتها.

وكان منهج سيبويه، في دراسته الصوتية، يقوم على دراسة الصوت اللغوي مفرداً ومركباً. وهو المنهج الذي يستند إليه الدرس الصوتي الحديث بمستوييه: الفوناتيكي Phonetics، والفونولوجي Phonology.

ولقد تمثل الفكر الصوتي لهذا العالم -كما اتضح لنا- في ثلاثة اتجاهات عامة :

الاتجاه الأول: وفيه انصب جهد سيبويه على دراسة الصوت اللغوي مفرداً؛ فبحث – من خلال هذا المستوى من الدرس – في الحروف العربية الأصلية، والحروف العربية الفرعية، مستحسنة وغير مستحسنة. ثم انتقل – بعد ذلك- إلى الحديث عن مخارج الأصوات العربية وأحيازها التي تنتمي لها كل مجموعة صوتية، والصفات والملامح التي يتسم بها كل صوت. وقد خصصنا – في نهاية حديثنا عن هذا

الجانب من الدرس الصوتي السيبويهي- فصلاً حاولنا فيه عقد بعض المقارنات الخاطفة بين تصورات سيبويه لملامح بعض الأصوات العربية وخصائصها والتصورات الصوتية الحديثة لتلك الأصوات.

الاتجاه الثاني: وفيه انتقل سيبويه إلى دراسة الصوت اللغوي مركباً داخل البنى اللغوية، وذلك في إطار موضوع عام أطلق عليه سيبويه – وغيره من اللغويين العرب- مصطلح الإدغام. ولقد كان هذا الموضوع مدخلاً عاماً لدى القدماء – ومنهم شيخنا، أو لنقل على رأسهم شيخنا- لمعالجة الكثير من القضايا الصوتية، وخاصة ما كان منها متعلقاً بجانب الدرس الفونولوجي للصوت ووظيفته، مؤلَّفا ومنظوماً، داخل البنية اللغوية حية منطوقة.

أما الاتجاه الثالث: فيعد – في رأينا- امتداداً لسابقه، وإن كان صاحبه قد خصَّصه لظاهرة الإدغام في حروف طرف اللسان والثنايا. وعلى غرار ما قام به سيبويه – في الاتجاه السابق- من معالجة الأصوات "فونولوجياً" في إطار البنى اللغوية، فقد جاءت دراسته للإدغام في حروف طرف اللسان والثنايا مسايرة لذلك الاتجاه، وإن اختلفت عنه في طرائق التناول، وأساليب المعالجة، ونماذج التطبيق.

وكان سيبويه، في درسه للغة بمستواها الصوتي- كما كان درسه لها بمستوييها الصرفي والنحوي- أُستاذاً مالكاً لناصية اللغة، وشيخاً عالماً بأسرارها، ومعلماً هادياً إلى الكثير من دقائقها. ولقد أرسى، في كل ما قدَّمه، في هذا المجال، القواعد المكينة، والأسس الرصينة لمن جاء بعده من العلماء الذين امتاحوا من معينه الثر، واغترفوا من منهله الصافي،... وكثير ما هم.

وختاماً، فليست هذه الدراسة، في منهجها وأُسلوب معالجة موادها، إلا محاولة، أو مجرد محاولة، للاقتراب من ذلك الهرم العلمي الشامخ في عالم فكرنا اللغوي. ونحن في هذا لا ندعي أننا قد وفينا بها حق الوفاء. وكل ما نزعمه لأنفسنا أننا أردنا الوفاء، ولم ندخر في سبيله شيئاً من جهد أو وقت.

وإذا تخلل عملنا هذا شيءٌ من قصور أو نقص، وهو أمر لا نبرئ أنفسنا منه، فإننا نرجو المولى عز وجل أن ينفع به، وأن يهيِّئ له من الأقلام المخلصة ما يقوِّم معوجه، ويصلح خطأه.

والله الموفق إلى عمل الخير، وخير العمل، وهو من وراء القصد.

المراجع والمصادر

أولاً- المراجع العربية:

د. إبراهيم أنيس:

١. الأصوات اللغوية، ط:٥. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية. ١٩٧٥م.

٢. في اللهجات العربية. ط:٣، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية. ١٩٦٥م.

ابن أحمد، الخليل:

٣. كتاب العين. تحقيق د. عبد الله درويش. بغداد: مطبعة العاني. ١٩٦٧م.

ابن الجزري، شمس الدين أبو الخير محمد بن محمد الدمشقي:

٤. النشر في القراءات العشر. نشر: علي محمد الضباع. القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى.

ابن جني، أبو الفتح عثمان:

٥. سر صناعة الإعراب. ط:١. تحقيق: مصطفى السقا وآخرين. القاهرة: شركة مكتبة ومطبعة البابي الحلبي. ١٩٥٤م.

٦. الخصائص. تحقيق: محمد علي النجار. القاهرة. ١٩٥٢-١٩٥٦م.

ابن خلكان، أبو العباس أحمد بن محمد:

٧. وفيات الأعيان. تحقيق: د. إحسان عباس. بيروت: دار صادر. ١٩٦٨-١٩٧٢م.

ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن:

٨. جمهرة اللغة. تحقيق: محمد السورتي، وفريتس كرنكو، حيدر أباد الدكن بالهند. ١٣٤٤-١٣٥١هـ.

ابن عصفور، أبو الحسن علي بن مؤمن:

٩. الممتع في التصريف. ط:٤. تحقيق: د. فخر الدين قباوة، بيروت: منشورات دار الآفاق الجديدة. ١٩٧٩م.

ابن مسعود، أحمد بن علي:

١٠. مراح الأرواح في علم الصرف، بشرح ديكنقوز وابن كمال باشا. ط:٢. القاهرة: مصطفى البابي الحلبي. ١٩٣٧م.

ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم:

١١. معجم ليان العرب. تحقيق: عبدالله علي الكبير وآخرين. القاهرة: دار المعارف. ١٩٨٠م.

ابن النديم، أبو الفرج محمد بن إسحاق:

١٢. الفهرست. بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر. ١٩٧٨م.

ابن يعيش، أبو البقاء موفق الدين:

١٣. شرح المفصل. بيروت:عالم الكتب. والقاهرة: مكتبة المتنبي.

أبو الطيب اللغوي، عبد الواحد بن علي:

١٤. الإبدال. تحقيق: عز الدين التنوخي. ط:١. دمشق: مجمع اللغة العربية. ١٩٦١م.

١٥. مراتب النحويين. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط:٢. القاهرة: دار الفكر العربي. ١٩٧٤م.

د. أحمد مختار عمر:

١٦. دراسة الصوت اللغوي. ط:١. القاهرة: عالم الكتب. ١٩٧٦م.

أرتور شاده:

١٧. علم الأصوات عند سيبويه وعندنا، صحيفة الجامعة المصرية، السنة الثالثة، العدد الخامس، ١٩٣١م.

الأزهري، خالد بن عبد الله:

١٨. شرح التصريح على التوضيح. ط:١. بيروت: دار الكتب العلمية.٢٠٠٠م.

الاسترابادي، رضي الدين محمد بن الحسن:

١٩. شرح شافية ابن الحاجب. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد وآخرين. بيروت: دار الكتب العلمية. ١٩٧٥م.

البغدادي، عبد القادر:

٢٠. خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب. بولاق. ١٢٩٩هـ

برتيل مالمبرج:

٢١. علم الأصوات. تعريب ودراسة الدكتور عبد الصبور شاهين. القاهرة: مكتبة الشباب. ١٩٨٤م.

برجشتراسر:

٢٢. التطور النحوي للغة العربية. أخرجه وصححه وعلق عليه، الدكتور رمضان عبد التواب. القاهرة: مكتبة الخانجي. ١٩٨٢م.

د. تامر سلوم:

٢٣. نظرية اللغة والجمال في النقد العربي. اللاذقية: دار

الحوار للنشر والتوزيع. ١٩٨٣م.

د. تمام حسان:

٢٤. اللغة العربية معناها ومبناها. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب. ١٩٧٣م.

٢٥. مناهج البحث في اللغة. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية. ١٩٥٥م.

الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر:

٢٦. البيان والتبيين. تحقيق: عبد السلام محمد هارون. ط:١. القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٨-١٩٥٠م.

جان كانتينو:

٢٧. دروس في علم أصوات العربية. ترجمة: صالح القرمادي. تونس. ١٩٦٦م.

جوزيف فندريس:

٢٨. اللغة. ترجمة عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية. ١٩٥٠م.

الحموي، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي:

٢٩. معجم الأدباء. ط:٣. بيروت: دار الفكر للطباعة

والنشر والتوزيع. ١٩٨٠م.

الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي:

٣٠. تاريخ بغداد أو مدينة السلام. القاهرة: مطبعة السعادة. ١٣٤٩هـ.

د. رمضان عبد التواب:

٣١. التطور اللغوي، مظاهره وعلله وقوانينه. القاهرة: مكتبة الخانجي. ١٩٨١م.

٣٢. لحن العامة والتطور اللغوي.ط:١. القاهرة: دار المعارف. ١٩٦٧م.

٣٣. المدخل إلى علم اللغة. القاهرة: مكتبة الخانجي. ١٩٨٠م.

الزبيدي، أبو بكر محمد بن الحسن:

٣٤. طبقات النحويين واللغويين. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة: مطبعة السعادة. ١٩٥٤م.

سيبويه، عمرو بن عثمان:

٣٥. كتاب سيبويه. ط:٣. تحقيق: عبد السلام هارون. بيروت: عالم الكتب. ١٩٨٣م.

السيرافي، أبو سعيد الحسن بن عبد الله:

٣٦. أخبار النحويين البصريين. تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، وطه محمد الزيني. القاهرة: ١٩٥٥م.

السيوطي، عبد الرحمن جلال الدين:

٣٧. بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. بيروت: المكتبة العصرية. ١٩٦٤م.

٣٨. المزهر في علوم اللغة وأنواعها. تحقيق: محمد أحمد جاد المولى وآخرين. ط:١. القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي.

٣٩. همع الهوامع شرح جمع الجوامع في علم العربية. بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر.

د. عبد الرحمن أيوب:

٤٠. أصوات اللغة. ط:٢. القاهرة: مطبعة الكيلاني. ١٩٦٨م.

د. عبد الصبور شاهين:

٤١. في التطور اللغوي. ط:١. القاهرة: المطبعة العالمية. ١٩٧٥م.

٤٢. المنهج الصوتي للبنية العربية. القاهرة: مطبعة جامعة

القاهرة والكتاب الجامعي. ١٩٧٧م.

علي النجدي ناصف:

٤٣. سيبويه إمام النحاة. ط:٢. القاهرة: عالم الكتب. ١٩٧٩م.

فاطمة محجوب:

٤٤. دراسات في علم اللغة. القاهرة: دار النهضة. ١٩٧٦م.

القالي، أبو علي اسماعيل بن القاسم:

٤٥. ذيل الأمالي والنوادر. لبنان: منشورات دار الحكمة.

القفطي، جمال الدين علي بن يوسف:

٤٦. إنباه الرواة على أنباه النحاة. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة: دار الكتب المصرية. ١٣٩٦هـ.

د. كمال محمد بشر:

٤٧. دراسات في علم اللغة. ط:٢. القاهرة: دار المعارف. ١٩٧١م.

٤٨. علم اللغة العام، الأصوات. ط٧، القاهرة: دار المعارف. ١٩٨٠م.

المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد:

٤٩. المقتضب. تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة. القاهرة:

المجلس الأعلى للشئون الإسلامية. ١٩٦٣-١٩٦٨م.

محمد جواد النوري، وعلي خليل حمد:

٥٠. فصول في علم الأصوات. نابلس: مطبعة النصر التجارية. ١٩٩١م.

محمد علي الخولي:

٥١. معجم علم اللغة النظري. بيروت: مكتبة لبنان. ١٩٨٢م.

محمد المبارك:

٥٢. فقه اللغة وخصائص العربية. ط:٧. دمشق: دار الفكر. ١٩٨١م.

محمد نمر حماد:

٥٣. اتحاف العباد في معرفة النطق بالضاد. نابلس. ١٣٢٣هـ.

د. محمود السعران:

٥٤. علم اللغة، مقدمة للقارئ العربي. دار المعارف بمصر. ١٩٦٢م.

مكي بن أبي طالب القيسي:

٥٥. الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة. ط:٢.

تحقيق: د.أحمد حسن فرحات. عمّان: دار عمار. ١٩٨٤م.

٥٦. الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها. تحقيق: د. محيي الدين رمضان.دمشق: مطبوعات مجمع اللغة العربية. ١٩٧٤م.

هنري فليش:

٥٧. العربية الفصحى. ترجمة د. عبد الصبور شاهين. بيروت: المطبعة الكاثوليكية. ١٩٦٦م.

٥٨. العربية، دراسات في اللغة واللهجات والأساليب. ترجمة: د. عبد الحليم النجار. القاهرة: مكتبة الخانجي. ١٩٥١م.

ثانياً- المراجع الأجنبية:

1- Al-Ani, Salman, Arabic Phonolgy. Indiana University, Mouton, 1970.
2- Beeston, A.F.L. The Arabic Language today, London,1970.
3- Brosnahan, L.F. and Malmberg, B. Introduction to Phonetics. Cambridge, 1976.
4- Crystal, David, A First Dictionary of Linguistics and Phoetics. London, 1980.
5- Hartmann, R.R.K. and Stork, F.C. A Dictionary of Language and Linguistics.

London, 1976.
6- Hockett, Charles, A coursc in Modern Linguistics, New York Macmillan, 1958.
7- Jones, Daniel, An outline of English Phonetics, Cambridge, Heffer. 1957.
The Pronunciation of English.
8- Ladefoged, Peter, A course in Phonetics, Harcourt Brace, Javanovich, Inc, New York, 1975.
9- Pei, Mario, Glossary of Linguistic Terminology, New York, 1966.
10- Pei, Mario, and Gaynor, Frank. Dictionary of Linguistics, New Jersy, 1980.
11- Wardhaugh, Ronald, Introduction to Linguistics, McGraw Hill, New York, 1977.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
التقديم	ب–ج
الإهداء	خ
جدول رموز الكتابة الصوتية	د
مقدمة	ر–ف
تمهيد: سيبويه وكتابه	١–١٢
١. سيبويه	٢
٢. كتابه	١٤
الباب الأول: حروف العربية	٢٢–١٧٥
الفصل الأول: حروف العربية من حيث العدد	٢٣–٦٨
١. الحروف العربية الأصول	٢٦
٢. الحروف العربية الفروع المستحسنة	٣٤
٣. الحروف العربية الفروع غير المستحسنة	٤٥
الفصل الثاني: حروف العربية من حيث المخارج	٦٩–٨٣
الفصل الثالث: حروف العربية من حيث الصفات	٨٤–١٢٦

١. الجهر والهمس ٨٥

٢. الشدة والرخاوة ٩٩

٣. تصنيفات أخرى تشمل ١٠٥

- مجموعتي الأصوات المطبقة والمنفتحة ١٠٥
- مجموعة الأصوات الصفيرية ١٠٨
- مجموعة الأصوات المنحرفة ١٠٩
- مجموعة الأصوات المكررة ١١١
- مجموعة الأصوات ذات الغنَّة ١١٢
- مجموعة الأصوات اللينة ١١٥
- مجموعة الأصوات الهاوية ١١٥
- مجموعة الأصوات ذات الاستطالة والتفشي ١١٩
- مجموعة الأصوات المشربة ١٢٠

الفصل الرابع: التطور التاريخي لبعض أصوات العربية ١٢٧-١٧٥

١. صوت الطاء ١٣٠

٢. صوت القاف ١٣٦

٣. صوت الهمزة ١٤٥

٤. صوت الضاد ١٥٠

٥. صوت الجيم ١٦٥

الباب الثاني: الإدغام ١٧٦-٢٨٠
تمهيد ١٧٧
الفصل الأول: الإدغام في الحرفين المثلين ١٨٦-٢٣٠
أولاً: الإدغام في الحرفين المثلين المنفصلين ١٨٧
١. الإدغام الجائز ١٨٧
٢. الإدغام الواجب ١٩٢
٣. الإدغام الممتنع ١٩٣
٤. ملحوظات ١٩٨
ثانياً: الإدغام في الحرفين المثلين غير المنفصلين ٢٠٧-٢٣٠
١. الإدغام في الحرفين المثلين في الكلمة الواحدة ٢٠٧
أ. في الأفعال التي تتماثل فيها العين واللام ٢٠٨
ب. في الأسماء ٢١٣
١. في الأسماء المزيدة عن ثلاثة أحرف ٢١٣
٢. في الأسماء الثلاثية ٢١٦
٢. ما يعرض للتضعيف من ظواهر غير الإدغام ٢١٩
أ. الحذف ٢١٩
ب. الإبدال ٢٢٠
ت. المحافظة على التضعيف ٢٢١

ملحوظات ٢٢٩
الفصل الثاني: الإدغام في الحرفين غير المثلين ٢٣١-٢٨٠
تمهيد ٢٣٢
١. الحروف التي لا تدغم في مقاربتها، ولا تدغم فيها، كما لا تدغم في مثلها ٢٣٣
٢. الحروف التي لا تدغم في مقاربتها، وتدغم المقاربة فيها ٢٣٧
٣. الحروف المقاربة التي يدغم بعضها في بعض ٢٤١
أ. حروف الحلق ٢٤١
ب. الحروف الفموية ٢٤٨
ملحوظات ٢٦٩
الباب الثالث: الإدغام في حروف طرف اللسان والثنايا ٢٨١-٣٦١
تمهيد ٢٨٢
الفصل الأول: إدغام حروف طرف اللسان والثنايا في حالة الانفصال ٢٨٥-٣٠٦
الفصل الثاني: إدغام حروف طرف اللسان والثنايا في حالة الاتصال ٣٠٧-٣٤٠
١. في صيغة "افتعل" ٣٠٩

٢. في صيغة "فعلت" ٣٣٠
٣. في الصيغ التي ترد فيها التاء قبل حروف طرف اللسان والثنايا ٣٣٥
أ. في صيغة استفعل ٣٣٥
ب. في صيغة افتعل ٣٣٦
ت. في صيغة فَعَل ٣٣٧
ث. في صيغتي تفعَّل وتفاعل ٣٣٨
الفصل الثالث: ظواهر صوتية مختلفة في المماثلة والتخفيف ٣٤١-٣٦٣
١. مضارعة بعض الحروف للزاي ٣٤٢
٢. التحولات التي يمكن أن يتعرض لها حرف السين ٣٤٨
٣. استعمالات بنيوية خاصة للتخفيف ٣٥٢
ملحوظات ٣٦١
خاتمة ٣٦٤
المراجع ٣٦٧
١. المراجع العربية ٣٦٧
٢. المراجع الأجنبية ٣٧٦

٣. الفهرس ٣٧٨